ومما يفوت العبد بمحض الرياء وما يفوته من صلاح قلبه وما يحرمه في الحال من التوفيق وفي الآخرة من المنزلة عند الله وما يتعرض له من العقاب العظيم والمقت الشديد والخزي الظاهر حيث ينادى على رؤوس الاشهاد يا فاجر يا غادر يا مرائي اما استحييت اذ اشتريت بطاعة الله تعالى عرض الدنيا راقبت قلوب العباد واستهزأت بطاعة الله وتحببت الى العباد بالتبغض الى الله وتزينت لهم بالشين عند الله وتقربت اليهم بالبعد من الله وتحمدت اليهم بالتذمم عند الله وطلبت رضاهم بالتعرض لسخط الله اما كان احد اهون عليك من الله فمهما تفكر العبد في هذا الخزي وقابل ما يحصل له من العباد والتزين لهم في الدنيا بما يفوته في الآخرة وما يحبط عليه من ثواب الاعمال مع ان العمل الواحد ربما كان يترجح به ميزان حسناته لو خلص فاذا فسد بالرياء حول الى كفة السيئات فترجح به ويهوي الى النار فلو لم يكن في الرياء الا احباط عبادة واحدة لكان ذلك كافيا في معرفة ضرره وان كان مع ذلك سائر حسناته راجحة فقد كان ينال بهذه الحسنة علو الرتبة عند الله في زمرة النبيين والصديقين وقد حط عنهم بسبب الرياء ورد الى صف النعال من مراتب الاولياء هذا مع ما يتعرض له في الدنيا من تشتت الهم بسبب ملاحظة قلوب الخلق فان رضا الناس غاية لا تدرك فكلما يرضى به فريق يسخط به فريق ورضا بعضهم في سخط بعض ومن طلب رضاهم بسخط الله سخط الله عليه واسخطهم ايضا عليه ثم اي غرض له في مدحهم وايثار ذم الله لاجل حمدهم ولا يزيده مدحهم رزقا ولا اجلا ولا ينفعه يوم فقره وفاقته وهو يوم القيامة واما الطمع لما في ايديهم فبان يعلم ان الله سبحانه هو المسخر للقلوب بالمنع والاعطاء وان الخلق مضطرون اليه فيه ولا رازق الا الله ومن طمع في الخلق لم يخل من الذل والخيبة وان وصل الى المراد لم يخل عن المنة والمهانة فكيف يترك ما عند الله لرجاء كاذب ووهم فاسد قد يصيب وقد يخطئ واذا اصاب فلا تفي لذته بالم منته ومذلته واما ذمهم فلم يحذر منه ولا يزيده ذمهم شيئا ما لم يكتبه الله عليه ولا يعجل اجله ولا يؤخر رزقه ولا يجعله من اهل النار ان كان من اهل الجنة ولا يبغضه الى الله ان كان محمودا عند الله ولا يزيده مقتا ان كان ممقوتا عند الله والعباد كلهم عجزة لا يملكون لانفسهم ضرا ولا نفعا ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا فاذا قرر في قلبه آفة هذه الاسباب وضررها فترت رغبته واقبل على الله قلبه فان العاقل لا يرغب فيما يكثر ضرره ويقل نفعه ويكفيه ان الناس لو علموا ما في باطنه من قصد الرياء واظهار الاخلاص لمقتوه وسيكشف الله عن سره حتى يبغضه الى الناس ويعرفهم انه مراء وممقوت عند الله ولو اخلص لله لكشف الله لهم اخلاصه وحببه اليهم وسخرهم له واطلق السنتهم بحمده والثناء عليه مع انه لا كمال في مدحهم ولا نقصان في ذمهم كما قال شاعر بني تميم ان مدحي زين وان ذمي شين فقال

رسول الله صلى الله عليه وسلم كذبت ذاك الله عز وجل لا اله الا هو اذ لا زين الا في حمد الله ولا شين الا في مذمته فاي
خير لك في مدح الناس وانت عند الله مذموم ومن اهل النار واي شر لك في ذم الناس وانت عند الله محمود
في زمرة المتقين فمن احضر في قلبه الآخرة ونعيمها المؤبد والمنازل الرفيعة عند الله استحقر ما يتعلق بالخلق
ايام الحيوة مع ما فيه من الكدورات والمنغصات واجتمع همه وانصرف الى الله قلبه وتخلص من مذمة الريا
ومقاساة قلوب الخلق وانعطفت من اخلاصه انوار على قلبه ينشرح لها صدره وينفتح له من لطايف
المكاشفات ما يزيد به انسه بالله ووحشته من الخلق واستحقاره للدنيا واستعظامه للآخرة وسقط
محل الخلق عن قلبه وانحلت عنه داعية الريا وتذلل له منهاج الاخلاص وهذا وما قدمناه في الشطر
الاول هي الادوية العلمية القالعة لمغارس الريا. واما الدواء العملي فهو ان يعود نفسه اخفى العبادات
واغلاق الابواب دونها كما تغلق الابواب دون الفواحش حتى يقنع قلبه بعلم الله تعالى واطلاعه على عبادته
ولا تنازعه النفس الى طلب علم غير الله به وقد روي ان بعض اصحاب ابي حفص الحداد ذم الدنيا واهلها فقال
له ابو حفص اظهرت ما كان سبيلك ان تخفيه لا تجالسنا بعد هذا فلم يرخص في اظهار هذا القدر لان
في ضمن ذم الدنيا دعوى الزهد فيها ولا دواء للريا مثل الاخفاء وذلك يشق في بدو المجاهدة فاذا صبر
عليه مدة بالتكلف سقط عنك ثقله ويهون عليك ذلك بتواصل الطاف الله ومايمده عباده من حسن
التوفيق والتاييد ولكن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم فمن العبد المجاهدة ومن الله الهداية
ومن العبد قرع الباب ومن الله فتح الباب لا يضيع اجر المحسنين وان تك حسنة يضاعفها ويؤت
من لدنه اجرا عظيما المقام الثاني في دفع العارض منه في اثناء العبادة وذلك لا بد
من تعلمه ايضا فان من جاهد نفسه وقلع مغارس الريا من قلبه بالقناعة وقطع الطمع واسقاط
نفسه عن اعين المخلوقين وذمهم فالشيطان لا يتركه في اثناء العبادة بل يعارضه بخطرات الريا
ولا ينقطع عنه نزغاته وهوى النفس وميلها لا ينمحي بالكلية فلا بد ان يتشمر لدفع ما يعرض من
خواطر الريا. وخواطر الريا ثلاثة قد يخطر دفعة واحدة كالخاطر الواحد وقد يترادف على التدريج فالاول
العلم باطلاع الخلق ورجاء اطلاعهم ثم يتلوه هيجان الرغبة من النفس في حمدهم وحصول المنزلة
عندهم ثم يتلوه قبول النفس له والركون اليه وعقد الضمير على تحقيقه فالاول معرفة والثاني حالة
تسمى الشهوة والرغبة والثالث فعل يسمى العزم وتصحيح العقد وانما كمال القوة في دفع الخاطر
الاول ورده قبل ان يتلوه الثاني فاذا خطر له معرفة اطلاع الخلق او رجاء اطلاعهم دفع ذلك بان
يقول لنفسه ما لك وللخلق علموا او لم يعلموا ان الله عالم بحالك فاي فايدة في علم غيره فان هاجت

الرغبة الى لذة الحمد تذكر ما رسخ في قلبه من قبل من آفة الريا وتعرضه للمقت عند الله في القيمة
وخيبته في احوج اوقاته الى اعماله فكما ان معرفة اطلاع الناس تثير شهوة ورغبة في الريا فمعرفة
آفة الريا تثير كراهة له تقابل تلك الشهوة اذ يتفكر في تعرضه لمقت الله سبحانه وعقابه الاليم فالشهوة
تدعو الى القبول والكراهة تدعو الى الابا والنفس تطاوع لا محالة اقواهما واغلبهما فاذن لا بد
من رد الريا من ثلاثة امور المعرفة والكراهة والابا وقد يشرع العبد في العبادة على عزم الاخلاص
ثم يرد خاطر الريا فيقبله ولا يحضره المعرفة ولا الكراهة التي كان الضمير منطويا عليها وانما سبب
ذلك امتلاء القلب بخوف الذم وحب المدح واستيلاء الحرص عليه بحيث لا يبقى في القلب
متسع لغيره فيعزب عن القلب المعرفة السابقة بآفات الريا وشوم عاقبته اذ لم يبق موضع في
القلب خال عن شهوة الحمد او خوف الذم وهو كالذي يحدث نفسه بالحلم وذم الغضب ويعزم
عن الحلم عند جريان سبب الغضب ثم يجري من الاسباب ما يشتد به غضبه فينسى سابق عزمه
ويمتلي قلبه غيظا يمنع من تذكر آفة الغضب ويشغل عنها فكذلك حلاوة الشهوة تملا القلب
وتدفع نور المعرفة مثل مرارة الغضب والى ذلك اشار جابر بن عبد الله بقوله بايعنا رسول الله صلعم
تحت الشجرة على ان لا نفر ولم نبايعه على الموت فانسيناها يوم حنين حتى نودي يا اصحاب
الشجرة فرجعوا وذلك لان القلوب امتلات بالخوف فنسيت العهد السابق حتى ذكرت
واكثر الشهوات التي تهجم فجاة هكذا تكون اذ تنسى معرفة مضرتها الداخلة في عقد الايمان ومهما
نسي المعرفة لم تظهر الكراهة فان الكراهة ثمرة المعرفة وقد يتذكر فيعلم ان الذي خطر له هو خاطر
الريا الذي يعرضه لسخط الله ولكنه يستمر عليه لشدة شهوته فيغلب هواه عقله ولا يقدر على
ترك لذة الحال فيسوف بالتوبة او يتشاغل عن التفكر في ذلك لشدة الشهوة فكم من عالم يحضره
كلام لا يدعوه اليه الا ريا الخلق وهو يعلم ذلك ولكنه يستمر عليه فيكون الحجة عليه اوكد اذ قبل
داعي الريا مع علمه بغائلته وكونه مذموما عند الله ولا ينفعه معرفته اذا خلت المعرفة من الكراهة
وقد يحضر المعرفة والكراهة ولكن مع ذلك يقبل داعي الريا ويعمل به لكون الكراهة ضعيفة بالاضافة
الى قوة الشهوة وهذا ايضا لا ينتفع بكراهته اذ الغرض من الكراهة ان تصرف عن الفعل فاذا لا فائدة
الا في اجتماع الثلاث وهي المعرفة والكراهة والابا فالابا ثمرة الكراهة والكراهة ثمرة المعرفة وقوة
المعرفة بحسب قوة الايمان ونور العلم وضعف المعرفة بحسب الغفلة وحب الدنيا ونسيان الآخرة
وقلة التفكر فيما عند الله وقلة التامل في آفات الحيوة الدنيا وعظيم نعيم الآخرة وبعض ذلك يثمر

بعضا ويتمرع واصل ذلك كله حب الدنيا وغلبة الشهوات فهو راس كل خطيئة ومنبع كل ذنب لان حلاوة
حب الجاه والمنزلة ونعيم الدنيا هي التي تغلب القلب وتسلبه وتحول بينه وبين التفكر في العاقبة
والاستبصار بنور الكتاب والسنة وانوار العلوم فان قلت فمن صادف من نفسه كراهة الريا وحمله
الكراهة على الابا ولكنه مع ذلك غير خال عن ميل الطبع اليه وحبه له ومنازعته اياه الا انه كاره لحبه
وميله وغير مجيب له فهل يكون في زمرة المرائين فاعلم ان الله تعالى لم يكلف العبد الا ما لا يطيق وليس
في طاقة العبد منع الشيطان من نزغاته ولا قمع الطبع حتى لا يميل الى الشهوات ولا ينازع اليها وانما
غايته ان يقابل شهواتها بكراهة استثارها من معرفة العواقب وعلم الدين واصول الايمان بالله واليوم
الآخر فاذا فعل ذلك فهو الغاية في اداء ما كلف ويدل على ذلك من الاخبار ما روي ان اصحاب رسول الله
صلى الله عليه وسلم شكوا اليه وقالوا يعرض لقلوبنا اشياء لان نخر من السماء فتخطفنا الطير او تهوي
بنا الريح في مكان سحيق احب الينا من ان نتكلم بها قال اوقد وجدتموه قالوا نعم قال ذاك صريح الايمان
ولم يجدوا الا الوسواس والكراهة له ولا يمكن ان يقال اراد بصريح الايمان الوسوسة فلم يبق الا حمله على الكراهة
المساوقة للوسوسة والريا وان كان عظيما فهو دون الوسوسة في حق الله تعالى واذا اندفع ضرر الاعظم بالكراهة
فبان يندفع ضرر الاصغر اولى وكذلك يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث ابن عباس انه قال الحمد
لله الذي رد كيد الشيطان الى الوسوسة وقال ابو حازم ما كان من نفسك فكرهته نفسك لنفسك فلا
يضرك ما هو من عدوك وما كان من نفسك فرضيته نفسك فعاتبها عليه فاذن وسوسة الشيطان
ومنازعة النفس لا تضرك مهما رددت مرادهما بالاباء والكراهة والخواطر التي هي العلوم والتذكارات
والتخيلات للاسباب المهيجة للريا هي من الشيطان والرغبة والميل بعد تلك الخواطر من النفس
والكراهة من الايمان ومن آثار العقل الا ان الشيطان ههنا مكيدة وهو انه اذا عجز عن حمله على
قبول الريا خيل اليه ان صلاح قلبه في الاشتغال بمجادلة الشيطان ومطاولته في الرد والجدال حتى
تسلبه بذلك ثواب الاخلاص وحضور القلب لان الاشتغال بمجادلة الشيطان ومدافعته انصراف عن سر
المناجاة مع الله سبحانه فيوجب ذلك نقصانا في منزلته عند الله تعالى والمتخلصون من الريا في دفع خواطر
الريا على اربع مراتب الاولى ان يرد على الشيطان مكيدته ولا يقتصر على الرد بل يشتغل بمجادلته ويطيل
الجدال معه لظنه ان ذلك اسلم لقلبه وهو على التحقيق نقصان لانه اشتغل عن مناجاة الله سبحانه
وعن الخير الذي هم بصدده وانصرف الى قتال قطاع الطريق والتعرج على قتال قطاع الطريق نقصان
في السلوك الرتبة الثانية ان يعرف ان القتال والجدال نقصان في السلوك فيقتصر على تكذيبه ودفعه

ولا يشتغل بمجادلته الرتبة الثالثة ان لا يشتغل بتكذيبه ايضا لان ذلك وقفه وان قلت بل يكون
قد قرر في عقد ضميره كراهة الرياء وكذب الشيطان فيستمر على ما كان عليه مستصحبا للكراهة غير مشتغل
بالتكذيب ولا بالمخاصمة الرتبة الرابعة ان يكون قد علم ان الشيطان يحسده عند جريان اسباب الرياء
فيكون قد عزم على انه مهما نزع الشيطان زاد فيما هو فيه من الاخلاص والاشتغال بالله سبحانه واخفى
الصدقة والعبادة غيظا للشيطان وذلك هو الذي يغيظ الشيطان ويقمعه ويوجب اياسه وقنوطه
حتى لا يرجع يروى عن الفضيل بن غزوان انه قيل له ان فلانا ذكرك قال والله لاغيظن من امره قيل من
امره قال الشيطان ثم قال اللهم اغفر له اي لاغيظنه بان اطيع الله فيه ومهما عرف الشيطان من عبد
هذه العادة كف عنه خيفة ان يزيد في حسناته وقال ابرهيم التيمي ان الشيطان ليدعو العبد
الى باب من الاثم فلا يطيعه ويحدث عند ذلك خيرا ثم يدعو الى الباب من الاثم فلا يطيعه ويحدث عند
ذلك خيرا ثم يدعو الى الباب من الاثم فلا يطيعه ويحدث عند ذلك خيرا ثم يدعوه فاذا رآه كذلك تركه
وقال ايضا اذا رآك الشيطان مترددا طمع فيك واذا رآك مدا وما ملك وقلاك وضرب الحارث المحاسبي
رحمه الله لهذه الاربعة مثالا حسنا فقال انما مثل الناس في الوجوه الاربعة مثل رجال اربعة ارادوا
مجلس محدث او ذكر يخافون ان يفوتهم منه تقدرا بطائهم في طريقهم او صلاة في جماعة او جمعة
فمر احدهم برجل من اهل الضلالة فوض له بالتثبط والنهي عن الذهاب يريد ان يصده فلما رآه يابا ان
يرجع اقبل يجادله فقام عليه يجادله ويخاصمه والضال يحب طول المجادلة بينهما ليفوته بقدر ما يحبسه
بخصومته ومر الثاني عليه فنهاه عن الذهاب الى الموضع الذي يريد فوقف منتهرا له رادا عليه فاغتنمها
الضال بقدر ما يفوته بحبسه بالوقفة عليه ومر الثالث وهو يمشي ماضيا او راكبا فوض له بالنهي
والتثبط وقد علم ما القى اصحابه من الحبس فمضى ولم يقف عليه ولم يحدث معه ومر الرابع وقد علم
ما القى اصحابه من الحبس فلما احس بصوته ان كان ماشيا سعى وان كان راكبا حرك راحلته بالسرعة
ليغيظه ولئلا يفوته ما يطلب وليدرك ما طلبه تاما ولا يكون كاصحابه الذين من قبله فيوشك ان عادوا
عليه ان يعرض لهم ويدع هذا الرابع لانه اتخذ دعاءه عبرة وزيادة في الخير بالسرعة اليه والاعراض عما دعا
اليه العدو وكذلك القوي الكيس من المخلصين فان قلت فالشيطان اذا كان لا يؤمن نزغاته
فهل يجب الترصد له قبل حضوره للحذر منه انتظارا لوروده ام يجب التوكل على الله تعالى ليكون هو
الدافع له ام يجب الاشتغال بالعبادة والغفلة عنه قلنا اختلف الناس في ذلك على ثلثة اوجه
فذهبت فرقة من اهل البصرة الى ان الاقوياء قد استغنوا عن الحذر من الشيطان لانهم انقطعوا الى

الله تعالى واشتغلوا بعبة فاعتزلهم الشيطان وايس منهم وخنس عنهم كما ايس من ضعفاء العباد في الدعوة
الى الخمر والزنا فصارت ملاذ الدنيا عندهم وان كانت مباحة كالخمر والخنزير وادخلوا من حبها بالكلية
لم يبق للشيطان اليهم سبيل فلا حاجة بهم الى الحذر وذهبت فرقة من اهل الشام الى ان الرصد
والحذر منه انما يحتاج اليه من دل نفسه ونقص توكله فمن ايقن ان لا شريك لله في تدبيره لم يحذر غير الله
وعلم ان الشيطان ذليل مخلوق ليس اليه امر ولا يكون الا ما اراده الله تعالى وهو الضار والنافع والعارف
يستحي منه ان يحذر غيره والنقش بالوحدانية نفتيه عن الحذر وقالت فرقة من اهل العلم لا بد من
الحذر من الشيطان وما ذكره البصريون من ان الاقوياء استغنوا عن الحذر لخلو قلوبهم من حب الدنيا
بالكلية وحب الدنيا هو وسيلة الشيطان الى القلوب وهذا القول يكاد يكون غرورا اذ الانبياء
لم يتخلصوا من وسواس الشيطان ونزغاته فكيف يتخلص غيرهم وليس كل وسواس الشيطان عن الشهوات
وحب الدنيا في صفات الله تعالى واسمائه وفي تحسين البدع والضلال وغير ذلك ولا يخلو احد من الخطر
فيه ولذلك قال الله تعالى وما ارسلنا من قبلك من رسول ولا نبي الا اذا تمنى القى الشيطان في امنيته
فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم وقال النبي صلى الله عليه وسلم انه ليغان على
قلبي مع ان شيطانه قد اسلم ولا يامر الا بخير فمن ظن ان اشتغاله بحب الله اكثر من اشتغال رسول الله صلى الله
عليه وسلم وسائر الانبياء فهو مغرور ولم يامنهم ذلك من كيد الشيطان ولذلك لم يسلم منه آدم صلعم
وحوا عليها السلم في الجنة التي هي دار الامن والسرور بعد ان قال الله تعالى لهما ان هذا عدو لك ولزوجك
فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ان لك ان لا تجوع فيها ولا تعرى وانك لا تظما فيها ولا تضحى ومع انه لم ينه
الا عن شجرة واحدة واطلق له ما وراء ذلك ما اراد فاذا لم يامن نبي من الانبياء وهو في الجنة دار
الامن والسعادة من كيد الشيطان فكيف يجوز لغيره ان يامن في دار الدنيا وهي منبع الفتن
والمحن ومعدن الملاذ والشهوات المنهي عنها وقال موسى عليه السلم هذا من عمل الشيطان
ولذلك حذر الله تعالى منه جميع الخلق فقال تعالى يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما اخرج
ابويكم من الجنة وقال تعالى انه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم والقرآن من اوله الى آخره تحذير
من الشيطان فكيف يدعي الامن منه واخذ الحذر حيث امر الله تعالى به لا ينافي الاشتغال بحب
الله فان من الحب امتثال امره وقد امر بالحذر من العدو كما امر بالحذر من الكفار فقال تعالى
وليأخذوا اسلحتهم وقال تعالى واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله
وعدوكم فاذا لزمك بامر الله الحذر من العدو الكافر وانت تراه فبان يلزمك الحذر من عدو يراك

فلا تراه اولى ولذلك قال ابن محيريز صيد تراه ولا يراك يوشك ان تظفر به وصيد يراك ولا تراه يوشك ان
يظفر بك واشار الى الشيطان كيف وليس في الغفلة عن عداوة الكافر الا قتل هو شهادة وفي اهمال
الحذر من الشيطان التعرض للنار والعقاب الاليم فليس من الاشتغال بالله عز وجل الاعراض عما
حذر الله منه وبهذا بطل مذهب الفرقة الثانية في ظنهم ان ذلك قادح في التوكل فان اخذ الترس
والسلاح وجمع الجنود وحفر الخندق لم يقدح في توكل رسول الله صلى الله عليه وسلم فكيف يقدح
في التوكل الخوف مما خوف الله تعالى منه الحذر مما امر بالحذر منه وقد ذكرنا في كتاب التوكل ما يبين
غلط من ظن ان معنى التوكل النزوع عن الاسباب بالكلية وقوله واعدوا لهم ما استطعتم من قوة
ومن رباط الخيل لا ينافي متثاله التوكل مهما اعتقد القلب ان الضار والنافع الله المحيي والمميت
هو الله فكذلك يحذر الشيطان ويعتقد ان المضل والهادي هو الله تعالى ويرى الاسباب وسايط
مسخرة كما ذكرنا ذلك في كتاب التوكل وهذا انما اختاره المحاسبي رحمه الله وهو الصحيح الذي تشهد له
نور العلم وما قبله تشبه ان يكون من كلام العباد الذين الذين لم يغزر علمهم ويظنون ان ما يهجم
عليهم من الاحوال في بعض الاوقات من الاستغراق بالله يستمر على الدوام وذلك بعيد ثم اختلفت
هذه الفرقة على ثلاثة اوجه في كيفية الحذر فقال قوم اذ حذرنا الله تعالى العدو فينبغي ان يكون
شيء اغلب على قلوبنا من ذكره والحذر منه والترصد له فانا ان غفلنا عنه لحظة فيوشك ان يهلكنا
وقال قوم ان ذلك يؤدي الى خلاء القلب من ذكر الله عز وجل واشتغال الهم كله بالشيطان وذلك
مراد الشيطان منا بل يشتغل بالعبادة وبذكر الله ولا ينسى الشيطان وعداوته والحاجة الى الحذر
فيجمع بين الامرين فانا ان نسيناه ربما عرض من حيث لا نحتسبه وان تجردنا للذكر كما اهملنا ذكر
الله فالجمع اولى وقال العلماء المحققون غلط الفريقان اما الاول فقد تجردت لذكر الشيطان
ونسيت ذكر الله فلا يخفى غلطها وانما امرنا بالحذر من الشيطان كيلا يصدنا عن الذكر فكيف
نجعل ذكره اغلب الاشياء على قلوبنا وهذا منتهى ضرر العدو ثم يؤدي ذلك الى خلو القلب من نور
ذكر الله تعالى فاذا قصد الشيطان مثل هذا القلب وليس فيه نور ذكر الله وقوة الاشتغال به
فيوشك ان يظفر به ولا نقوى على دفعه فلم يامرنا باشتغال الشيطان ولا بادمان ذكره واما الفرقة الثانية
فقد شاركت الاولى اذ جمعت في القلب بين ذكر الله وذكر الشيطان فبقدر ما يشتغل القلب
بذكر الشيطان ينتقص من ذكر الله وقد امر الله الخلق بذكره عز وجل ونسيان ما عداه ابليس وغيره
فالحق ان يلزم العبد قلبه الحذر من الشيطان ويقرر على نفسه عداوته فاذا اعتقد عداوته وتيقن صدق

بها واستقر الحذر في قلبه اشتغل بذكر الله وبث اليه بكل الهمة ولا يخطر بباله امر الشيطان فانه اذا اشتغل
بذلك بعد معرفة عداوته ثم خطر الشيطان له تنبه لخطرته وعند التنبه يشتغل بدفعه والاشتغال بذكر
الله لا يمنع من التيقظ عند نزغه الشيطان بل الرجل ينام وهو خايف من ان يفوته مهم عند طلوع الصبح
فيلزم نفسه الحذر وينام على نية ان ينتبه في ذلك الوقت فينتبه في الليل مرات قبل اوان الوقت
الذي اراده لما سكن في قلبه من الحذر مع انه بالنوم غافل عنه واشتغاله بذكر الله كيف يمنع تنبهه ومثل
هذا القلب هو الذي يقوى على دفع العدو اذ كان اشتغاله بمجرد ذكر الله قد امات منه الهوى واحيى منه
نور العلم والعقل واماط ظلمة الشهوات فاهل البصيرة اشعروا قلوبهم عداوة الشيطان وترصدوه
والزموها الحذر ثم لم يشتغلوا بذكره بل بذكر الله ودفعوا بالذكر شر العدو واستضاؤا بنور الذكر حتى ابصروا
خواطر العدو ثم مثال القلب مثال بير اريد تطهيرها من الماء القذر ليتفجر منها الماء الصافي فالمشتغل
بذكر الشيطان قد ترك فيها الماء القذر والذي جمع بين ذكر الشيطان وذكر الله نزح الماء القذر من جوانب
البير ولكن تركه جاريا اليها من جانب آخر فيطول تعبه ولا يجف البير من الماء القذر مع ذلك والبصير هو
الذي يجعل لمجرى الماء القذر سدادا ويملاها بالصافي فاذا جاء الماء القذر دفعه بالسكر والسد
من غير كلفة ومؤنة وزيادة تعب

بيان الرخصة في قصد اظهار الطاعات

اعلم ان في الاسرار الاعمال فايدة الاخلاص والنجاة من الريا وفي الاظهار فايدة الاقتداء وترغيب الناس في
الخير ولكن فيه آفة الريا قال الحسن قد علم المسلمون ان السر احرز العملين ولكن في الاظهار ايضا فايدة
ولذلك اثنى الله عز وجل على السر والعلانية فقال تعالى ان تبدوا الصدقات فنعما هي وان تخفوها
وتوتوها الفقرا فهو خير لكم والاظهار قسمان احدهما في نفس العمل والآخر بالتحدث بما عمل القسم الاول
اظهار نفس العمل كالصدقة في الملا لترغيب الناس فيها كما روي عن الانصاري الذي جاء بالصرة
فتتابع الناس بالعطية لما راوه فقال النبي صلى الله عليه وسلم من سن سنة حسنة فعمل بها كان له
اجرها واجر من اتبعه ثم تجري ساير الاعمال هذا المجرى من الصلاة والحج والغزو وغيره ولكن الاقتداء
على الطباع في الصدقة اغلب ثم الغازي اذا هم بالخروج واستعد وشد الرحل قبل القوم تحريضا
لهم على الحركة فذلك افضل له لان الغزو في اصله من اعمال العلانية لا يمكن اسراره فالمبادرة اليه
ليست من الاعلان بل هو تحريض مجرد وكذلك الرجل قد يرفع صوته في صلاة الليل لينبه جيرانه واهله
فيقتدى به فكل عمل لا يمكن اسراره كالحج والجهاد والجمعة فالافضل المبادرة اليه واظهار الرغبة فيه
للتحريض بشرط ان لا يكون فيه شوايب الريا واما ما يمكن اسراره كالصلاة والصدقة فان كان اظهار

الصدقة يؤذي المتصدق عليه ويرغب الناس في الصدقة فالسر افضل لان الايذاء حرام وان لم يكن في ذلك
ايذاء فقد اختلف الناس في الافضل فقال قوم السر افضل من العلانية وان كان في العلانية قدوة
وقال قوم السر افضل من علانية لا قدوة فيها والعلانية للقدوة افضل من السر ويدل على ذلك ان الله
سبحانه امر انبياءه صلوات الله عليهم باظهار العمل للاقتداء وخصهم بمنصب النبوة ولا يجوز ان يظن بهم
انهم حرموا افضل العملين ويدل عليه قول النبي صلى الله عليه وسلم اجرها واجر من عمل بها وقد روي ان
عمل السر يضاعف على عمل العلانية سبعين ضعفا ويضاعف عمل العلانية اذا استن بعامله على عمل
السر سبعين ضعفا وهذا لا وجه للخلاف فيه فانه مهما انفك القلب عن شوائب الرياء وتم الاخلاص
على وجه واحد في الحالين فما يقتدى به افضل لا محالة وانما يخاف من الظهور الرياء ومهما حصلت
شائبة الرياء لم ينفعه اقتداء غيره وهلك به فلا خلاف في ان السر افضل منه ولكن على من يظهر العمل
وظيفتان احدهما ان يظهر حيث يعلم انه يقتدى به او يظن ذلك ظنا ورب رجل يقتدي به اهله دون
جيرانه وربما يقتدي به جيرانه دون اهل السوق وربما يقتدي به اهل محلته وانما العالم المعروف هو
الذي يقتدي به الناس كافة وغير العالم اذا اظهر بعض الطاعات ربما نسب الى الرياء والنفاق
وذموه ولم يقتدوا به فليس له الاظهار من غير فائدة وانما يصح الاظهار بنية القدوة ممن هو من اهل القدوة
وعلى من هو في محل الاقتداء به والوظيفة الثانية ان يراقب قلبه فانه ربما يكون فيه حب الرياء الخفي
فيدعوه الى الاظهار بعذر الاقتداء وانما شهوة النفس التجمل بالعمل وبكونه مقتدا به وهذا حال كل
من يظهر اعماله الا الاقوياء المخلصون وقليل ما هم فلا ينبغي ان يخدع الضعيف نفسه بذلك فيهلك
وهو لا يشعر فان الضعيف مثاله مثال الغريق الذي يحسن سباحة ضعيفة فينظر الى جماعة من الغرقاء
فيرحمهم فيقبل عليهم حتى تشبثوا به فيهلك ويهلكون والغرق بالماء في الدنيا ساعة وليت الهلاك بالرياء
كان مثله لا بل عذابه دائم مدة مديدة وهذه مزلة اقدام العباد والعلماء فانهم يتشبهون بالاقوياء
في الاظهار ولا يقوى قلوبهم على الاخلاص فيحبط اجورهم بالرياء والتفطن لذلك غامض ومحك ذلك
ان يعرض على نفسه انه لو قيل له اخف العمل حتى يقتدي الناس بعابد آخر من اقرانك ويكون
لك في السر مثل اجر الاعلان فان مال قلبه الى ان يكون هو المقتدى به والمظهر للعمل فباعثه الرياء
دون طلب الاجر واقتداء الناس ورغبتهم في الخير فانهم قد رغبوا في الخير بالنظر الى غيره واجره
قد توفر عليه مع اسراره فما بال قلبه يميل الى الاظهار لولا ملاحظته لاعين الخلق ومراءاتهم فليحذر العبد
خدع النفس فان النفس خدوع والشيطان مترصد وحب الجاه على القلب غالب وقلما تسلم

الاعمال الظاهرة من الآفات فلا ينبغي ان يعدل بالسلامة شي والسلامة في الاخفا . وفي الاظهار
من الاخطار ما لا نقوا عليها امثالنا فالحذر من الاظهار اولى بنا وبجميع الضعفا . القسم الثاني
ان يحدث بما فعله بعد الفراغ وحكمه حكم اظهار العمل نفسه والخطر في هذا اشد لان مونة النطق
خفيفة علي اللسان وقد تجري في الحكاية زيادة ومبالغة وللنفس لذة في اظهار الدعاوي عظيمة الا
انه لو تطرق اليه الريا لم يوثر في افساد العبادة الماضية بعد الفراغ منها فهو من هذا الوجه
اهون والحكم فيه ان من قوي قلبه وتم اخلاصه وصغر الناس في عينه واستوا عنده مدحهم
وذمهم وذكر ذلك عند من يرجوا الاقتدا به والرغبة في الخير بسببه فهو جايز بل مندوب اليه ان
صفت النية وسلمت من جميع الآفات لانه ترغيب في الخير والترغيب في الخير خير وقد نقل مثل ذلك
عن جماعة من السلف الاقويا . قال سعد بن عبادة ما صليت صلاة منذ اسلمت فحدثت نفسي
بغيرها ولا تبعت جنازة فحدثت نفسي بغير ما هي قايلة وما هو مقول لها ولا سمعت النبي صلى الله عليه وسلم
قولا الا وعلمت انه حق وقال عمر ما ابالي اصبحت على يسر او على عسر لاني لا ادري ايهما خير لي وقال ابن مسعود
ما اصبحت علي حال فتمنيت ان اكون علي غيرها وقال عثمان ما تغنيت ولا تمنيت ولا مسست ذكري
بيميني منذ بايعت بها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال شداد بن اوس ما تكلمت بكلمة منذ اسلمت
حتى ازمها واخطمها الا هذه وكان قد قال لغلامه ايتنا بالسفرة نعبث بها حتى ندرك الغدا . وقال
ابو سفين لاهله حين حضرته الوفاة لا تبكوا علي فاني ما احدثت ذنبا منذ اسلمت وقال عمر بن
عبد العزيز ما قضا الله في بقضا فسرني ان يكون قضا لي بغيره وما اصبح لي هوا الا في مواقع قدر الله
فهذا كله اظهار لاحوال شريفة وفيها غاية المرايا اذا صدرت ممن يرايي بها وفيها غاية الترغيب
اذا صدرت ممن يقتدي به فذلك على قصد الاقتدا جايز للاقويا بالشروط التي ذكرناها فلا ينبغي ان
يسد باب الاظهار والطباع مجبولة علي التشبه والاقتدا بل اظهار المرايي للعبادة اذا لم
يعلم الناس انه ريا فيه خير كثير للناس ولكنه شر للمرايي فكم من مخلص كان سبب اخلاصه الاقتدا
بمن هو مرايي عند الله تعالي وقد روي انه كان يجتاز الانسان في سكك البصرة عند الصبح فيسمع
اصوات المصلين بالقران من البيوت فصنف بعضهم كتابا في دقايق الريا فتركوا ذلك وترك الناس
الرغبة في ذلك فكانوا يقولون ليت ذلك الكتاب لم يصنف فاظهار المرايي فيه خير كثير لغيره اذا لم
يعرف رياه فان الله عز وجل يويد هذا الدين بالرجل الفاجر وباقوام لا اخلاق لهم كما ورد في الاخبار
وبعض المرايين ممن يقتدا بهم منهم بيان الرخصة في كتمان الذنوب وكراهة اطلاع الناس عليها

وكراهة ذمهم لاجلها اعلم ان الاصل في استواء السريرة والعلانية كما قال عمر لرجل عليك بعمل العلانية
قال يا امير المومنين وما عمل العلانية قال ما اذا اطلع عليك لم يستحي منه وقال ابو مسلم الخولاني ما
عملت عملا ابالي ان يطلع الناس عليه الا اتياني اهلي والبول والغايط الا ان هذه درجة عظيمة
لا ينالها كل احد فلا يخلوا الانسان من ذنوب بقلبه او بجوارحه وهو يخفيها ويكره اطلاع الناس
عليها لا سيما ما يختلج به الخواطر من الشهوات والاماني والله تعالى مطلع على جميع ذلك فارادة
العبد لاخفايه عن العبيد ربما يظن انه رياء محظور وليس كذلك بل المحظورات ان يستر ذلك ليرى
الناس انه ورع وانه خايف من الله مع انه ليس كذلك فهذا هو ستر المرائي واما الصادق الذي
لا يرائي فله ستر المعاصي ويصح قصده في ذلك ويصح اغتمامه باطلاع الناس عليه من ثمانية اوجه
الاول هو ان يفرح بستر الله عليه واذا افتضح اغتم بهتك الله ستره وخاف ان يهتك ستره في القيمة
اذ ورد في الخبر ان من ستر الله عليه في الدنيا ستر عليه في الآخرة وهذا غم ينشأ من قوة الايمان
والثاني انه قد علم ان الله تعالى يكره ظهور المعاصي ويحب سترها كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
من ارتكب شيئا من هذه القاذورات فليستتر بستر الله فهو وان عصى الله تعالى بالذنب فلم يخل
قلبه عن محبة ما يحبه الله وهذا ايضا ينشأ من قوة الايمان بكراهة الله ظهور المعاصي واثر الصدق فيه
ان يكره ظهور الذنب من غيره ايضا ويغتم بسببه الثالث ان يكره ذم الناس له به من حيث ان ذلك
يغمه ويشغل قلبه وعقله عن طاعة الله تعالى فان الطبع يتأذى بالذم وينازع العقل ويشغل
عن طاعة الله تعالى ولهذه العلة ايضا ينبغي ان يكره الحمد الذي يشغله عن الله ويستغرق قلبه
ويصرفه عن الذكر وهذا ايضا من قوة الايمان اذ صدق الرغبة في فراغ القلب لاجل الطاعة من
الايمان الرابع والخامس ان يكون ستره ورغبته في الكراهية ذم الناس من حيث تأذي طبعه
فان الذم مولم للقلب كما ان الضرب مولم للبدن وتألم القلب بالذم ليس بحرام ولا الانسان به
عاصي وانما يعصى اذا اجزعت نفسه من ذم الناس ودعته الى ما لا يجوز حذرا من ذمهم وليس يجب
على الانسان ان لا يغتم بذم الخلق ولا يتألم به نعم كمال الصدق في ان يزول عن رؤية الخلق
فيستوي ذامه ومادحه لعلمه ان الضار والنافع هو الله تعالى وان العباد كلهم عاجزون وذلك
قليل جدا واكثر الطباع تتألم بالذم لما فيه من الشعور بالنقصان ورب تألم بالذم محمود اذا كان
الذام من اهل البصيرة في الدين فانهم شهداء الله تعالى وذمهم يدل على ذم الله تعالى وعلى نقصانه
في الدين فكيف لا يغتم به نعم الغم المذموم هو ان يغتم لفوات الحمد بالورع كانه يحب ان يحمد بالورع

ولا يجوز ان يحب ان يحمد بطاعة الله تعالى فيكون قد طلب بطاعة الله تعالى ثوابا من غيره فان وجد ذلك
من نفسه وجب عليه ان يقابله بالكراهة والرد واما كراهته للذم بالمعصية من حيث الطبع فليس
بمذموم فله الستر حذرا من ذلك ويتصور ان يكون بحيث لا يحب الحمد ولكن يكره الذم وانما مراده ان
يتركه الناس حمدا وذما فكم من صابر عن لذة الحمد ولا يصبر على الم الذم اذ الحمد يطلب اللذة وعدم اللذة
لا يولم واما الذم فانه مولم فحب الحمد على الطاعة طلب ثواب على الطاعة في الحال واما كراهة الذم على
المعصية فلا محذور فيه الا امر واحد وهو ان يشغله غمه باطلاع الخلق على ذنبه عن اطلاع الله تعالى فان
ذلك غاية النقصان في الدين بل ينبغي ان يكون غمه باطلاع الله وذمه له اكثر وقد يكره الذم من حيث
ان الذام قد عصى الله به وهذا من الايمان وعلامته ان يكره ذمه لغيره ايضا فهو التوجع لا يفرق بين
نفسه وبين غيره بخلاف التوجع من جهة الطبع السادس ان يستر كيلا يقصد بشر اذا عرف ذنبه وهذا
وراء الذم فان الذم مولم من حيث يشعر القلب بنقصانه وخسته وان كان ممن يؤمن شره وقد يخاف
شر من يطلع على ذنبه بسبب من الاسباب فله ان يستر ذلك حذرا منه السابع مجرد الحياء فانه نوع
الم وراء الم الذم والقصد بالشر وهو خلق كريم يحدث في اول الصبى مهما اشرق عليه نور العقل فيستحي من
القبائح اذا شوهدت منه وهو وصف محمود قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الحياء خير كله وقال صلعم
الحياء شعبة من الايمان وقال صلى الله عليه وسلم الحياء لا ياتي الا بخير وقال صلى الله عليه وسلم ان الله يحب
الحيي الحليم فالذي يفسق ولا يبالي بان يظهر فسقه للناس جمع الى الفسق التهتك والوقاحة
وفقد الحياء وهو اشد حالا ممن يستر ويستحي الا ان الحياء ممتزج بالرياء ومشتبه به اشتباها عظيما
قل من يتفطن له ويدعي كل مراي انه مستحي وان سبب تحسينه العبادات هو الحياء من الناس
وذلك كذب بل الحياء خلق ينبعث من الطبع الكريم ويهيج عقيبه داعية الرياء وداعية الاخلاص ويتصور
ان يخلص معه ويتصور ان يرائي معه وبيان ذلك ان الرجل يطلب من صديق له قرضا ونفسه لا تسخو
باقراضه الا انه يستحي من رده ويعلم انه لو راسله على لسان غيره لكان لا يستحي ولا يقرض رياء ولا
لطلب ثواب فله عند ذلك احوال احدها ان يشافهه بالرد الصريح ولا يبالي فينسب الى قلة الحياء
وهذا فعل من لا حياء له فان المستحي اما ان يتعلل او يقرض فان اعطى فيتصور له ثلاثة احوال
احدها ان يمتزج الرياء بالحياء بان يهيج الحياء فيقبح عنده الرد فيهيج خاطر الرياء ويقول ينبغي ان يعطي
حتى يثني عليك ويحمدك وينتشر اسمك بالسخاء وينبغي ان يعطي حتى لا يذمك ولا ينسبك الى البخل
فان اعطى على هذه الصورة فقد اعطى بالرياء وكان المحرك للرياء هو هيجان الحياء الثاني ان يتعذر

عليه الرد بالحياء، ويتحي في نفسه البخل فيتعذر الاعطاء، فيهيج باعث الاخلاص ويقول ان الصدقة
بواحدة والقرض بثمانية عشر ففيه اجر عظيم وادخال سرور على قلب صديق وذلك محمود عند الله تعالى
فتسخو النفس بالاعطاء لذلك فهذا مخلص هيج الحياء اخلاصه. الثالث ان لا يكون له رغبة في الثواب
ولا خوف من مذمته ولا حب لمحمدته ولانه لو طلبه مراسلة لكان لا يعطيه فاعطاه بمحض الحياء
وهو ما يجده في قلبه من الم الحياء، ولولا الحياء لرده ولو جاءه من لا يستحي منه من الاجانب او الاراذل
لكان يرده وان كثر الحمد او الثواب فيه وهذا مجرد الحياء، ولا يكون هذا الا في القبائح كالبخل ومقارفة
الذنوب والمرائي يستحي من المباحات ايضا حتى انه يرى مستعجلا في المشي فيعود الى الهدو او
ضاحكا فيرجع الى الانقباض ويزعم ان ذلك حياء وذلك عين الرياء، وقد قيل ان بعض الحياء ضعف
وهو صحيح والمراد منه الحياء مما ليس بقبيح كالحياء من وعظ الناس وامامة الصلوة وهو في النساء
والصبيان محمود وفي العقلاء غير محمود وقد يشاهد معصية من شيخ فيستحي من شيبته ان
ينكر عليه لان من اجلال الله اجلال ذي الشيبة وهذا الحياء حسن واحسن منه ان يستحي من الله
فلا يضيع الامر بالمعروف فالقوي يؤثر الحياء من الله عز وجل على الحياء من الناس والضعيف
قد لا يقدر على ذلك فهذه هي الاسباب التي يجوز لاجلها ستر القبائح والذنوب الثامن ان يخاف
من ظهور ذنبه ان يستجرى على مثل ذلك الذنب غيره ويقتدي به فيه وهذه العلة الواحدة
فقط هي الجارية في اظهار الطاعة وهو القدوة ويختص ذلك بالائمة او بمن يقتدى به ولهذه
العلة ينبغي ان يخفي العاصي ايضا معصيته من اهله وولده لانهم يتعلمون منه ففي ستر الذنب
هذه الاعذار الثمانية وليس في اظهار الطاعة عذر الا هذا العذر الواحد ومهما قصد ستر المعصية
ان يخيل الى الناس انه ورع كان مرائيا كما اذا قصد ذلك باظهار الطاعة فان قلت فهل يجوز
للعبد ان يحب حمد الناس له بالصلاح وحبهم اياه بسببه وقد قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم
دلني على عمل يحبني الله عليه ويحبني الناس قال ازهد في الدنيا يحبك الله وانبذ اليهم هذا الحطام
يحبوك فنقول حبك لحب الناس لك قد يكون مباحا وقد يكون محمودا وقد يكون مذموما فالمحمود ان
تحب ذلك لتعرف به حب الله لك فانه اذا احب عبدا حببه الى قلوب عباده والمذموم ان تحب
حمدهم وحبهم على حجك وغزوك وصلاتك وعلى طاعة بعينها فان ذلك طلب عوض على طاعة الله
عاجلا سوى ثواب الله والمباح ان تحب ان يحبوك لصفات محمودة سوى الطاعات المحدودة المعينة
فحبك ذلك كحبك المال فان ملك القلوب وسيلة الى الاغراض كملك الاموال ولا فرق بينهما

ترك الطاعات خوفا من الريا، ودخول الآفات اعلم ان من الناس من ترك العمل خوفا من ان يكون مرائيا وذلك غلط وموافقة للشيطان بل الحق فيما يترك من الاعمال وما لا يترك لخوف الآفات ما نذكره وهو ان الطاعات تنقسم الى ما لا لذة في عينها كالصلاة والصوم والحج فانها مقاساة ومجاهدات وانما تصير لذيذة من حيث انها توصل الى حمد الناس وحمد الناس لذيذ ولذلك عند اطلاع الناس عليه والى ما هو لذيذ وهو الاكثر مما لا يقتصر على البدن بل يتعلق بالخلق كالخلافة والقضاء والولايات والحسبة وامامة الصلاة والتذكير والتدريس وانفاق المال على الخلق وغير ذلك مما تعظم الآفة فيه لتعلقه بالخلق ولما فيه من اللذة القسم الاول الطاعات اللازمة للبدن التي لا يتعلق بالغير ولا لذة في عينها كالصلوة والصوم والحج فخطرات الريا فيها ثلاثة احديها ما يدخل قبل العمل فيبعث على الابتدا لرؤية الناس وليس معه باعث الدين فهذا ينبغي ان يترك لانه معصية لا طاعة فانه تدرع بصورة الطاعة الى طلب المنزلة فان قدر الانسان على ان يدفع عن نفسه باعث الريا ويقول لها الا تستحيي من مولاك الا تسخين بالعمل لاجله وتسخين بالعمل لاجل عباده حتى يندفع باعث الريا وتسخوا النفس بالعمل لاجل الله عقوبة للنفس على خاطر الريا وكفارة له فليشتغل بالعمل الثانية ان ينبعث لاجل الله ولكن يعترض الريا مع عقد العبادة واولها فلا ينبغي ان يترك العمل لانه وجد باعثا دينيا فليشرع في العمل وليجاهد نفسه في دفع الريا وتحصيل الاخلاص بالمعالجة التي ذكرناها من الزام النفس كراهة الريا والاباء عن القبول الثالثة ان يعقد على الاخلاص ثم يطرأ الريا ودواعيه فينبغي ان يجاهد في الدفع ولا يترك العمل لكن يرجع الى عقد الاخلاص ويرد نفسه اليه قهرا حتى يتم العمل لان الشيطان يدعوك اولا الى ترك العمل فاذا لم تجبه واشتغلت دعاك الى الريا فاذا لم تجبه ودفعت الريا بقي يقول لك هذا العمل ليس بخالص وانت مرائي وتعبك ضايع واي فايدة لك في عمل لا اخلاص فيه حتى يحملك بذلك على ترك العمل فاذا تركته فقد حصلت غرضه ومثال من ترك العمل لخوفه ان يكون مرائيا مثال عبد سلم اليه مولاه حنطة فيها تراب وقال له خلصها من التراب ونقها منه تنقية بالغة فيترك اصل العمل ويقول اخاف ان اشتغلت به لم يخلص خالصا صافيا فترك العمل من اصله فهو ترك الاخلاص مع اصل العمل ولا معنى له ومن هذا القبيل ان يترك العمل خوفا على الناس ان يقولوا انه مرائي فيعصون الله تعالى فيه وهذا من مكايد الشيطان لانه اولا اساء الظن بالمسلمين وما كان من حقه ان يظن بهم ذلك ثم ان كان فلا يضره قولهم ويفوته ثواب العبادة وترك العمل خوفا من قولهم انه مرائي هو عين الريا فلولا حبه لمحمدتهم وخوفه من ذمهم لما ترك العمل من اجلهم فما له ولقولهم قالوا انه مرائي او قالوا انه مخلص واي فرق بين ان يترك

العمل خوفا من ان يقال انه مرائي وبين ان يحسن العمل خوفا من ان يقال انه غافل مقصر بل ترك العمل
اشد من ذلك فهذه كلها مكايد الشيطان علي العباد الجهال ثم كيف يطمع في ان يتخلص من
الشيطان بان يترك العمل والشيطان لا يخليه بل يقول له الآن يقول الناس انك تركت العمل ليقال
انك مخلص لا تشتهي الشهرة فيضطرك بذلك الي ان تهرب فلو هربت ودخلت سربا تحت الارض
القي في قلبك حلاوة معرفة الناس لزهدك وهربك منهم وتعظيمهم لك بقلوبهم علي ذلك فكيف
تتخلص بل لا نجاة منه الا ان يلزم قلبك معرفة آفة الرياء وهو انه ضرر في الآخرة ولا نفع فيه في الدنيا
لتلزم الكراهة والاباء قلبك وتستمر مع ذلك علي العمل ولا تبالي وان نزغ الشيطان ونازع الطبع
فان ذلك لا ينقطع وترك العمل لاجل ذلك يجر الي البطالة وترك الخيرات فما دمت تجد باعثا دينيا
علي العمل فلا تترك العمل وجاهد خاطر الرياء والزم قلبك الحياء من الله تعالي اذ دعتك نفسك الي ان
تستبدل بحمده حمد المخلوقين وهو مطلع علي قلبك ولو اطلع الخلق علي قلبك وانك تريد حمدهم
لمقتوك بل ان قدرت علي ان تزيد في العمل حياء من ربك وعقوبة لنفسك فافعل فان قال لك الشيطان
انت مرائي فاعلم كذبه بما تصادف في قلبك من كراهة الرياء وابائه وخوفك منه وحيائك من الله
وان لم تجد في قلبك له كراهية ومنه خوفا ولم يبق باعث ديني بل تجرد باعث الرياء فاترك العمل عند
ذلك وهو بعيد ممن شرع في العمل لله تعالي فانه لا بد ان يبقي معه اصل قصد الثواب فان قلت
فقد نقل عن قوم ترك العمل مخافة الشهرة روي عن ابرهيم النخعي انه دخل عليه انسان فاطبق
المصحف وترك القراءة وقال لا يري هذا انا نقرأ كل ساعة وقال ابرهيم التيمي اذا اعجبك الكلام
فاسكت واذا اعجبك السكوت فتكلم وقال الحسن ان كان احدهم ليمر بالاذي ما يمنعه من رفعه
الا كراهة الشهرة وكان احدهم يأتيه البكاء فيصرفه الي الضحك مخافة الشهرة وقد وردت في ذلك
آثار كثيرة قلنا هذا يعارضه ما ورد من اظهار الطاعة مما لا يحصي واظهار الحسن البصري هذا
الكلام في معرض الوعظ اقرب الي خوف الشهرة من البكاء واماطة الاذي عن الطريق ثم لم يتركه
وبالجملة ترك النوافل جائز والكلام في الافضل والافضل انما يقدر عليه الاقوياء دون الضعفاء
فالافضل ان يتم العمل ويجتهد في الاخلاص ولا يتركه وارباب الاعمال قد يعالجون انفسهم بخلاف
الافضل لشدة الخوف والاقتداء ينبغي ان يكون بالاقوياء واما اطباق ابرهيم النخعي المصحف فيمكن
ان يكون لعلمه بانه سيحتاج الي ترك القراءة عند دخوله واستئنافها بعد خروجه للاشتغال به
حتي يعود اليها بعد ذلك واما ترك رفع الاذي فذلك ممن يخاف علي نفسه الشهرة واجتماع الناس

عليه ويشغلهم اياه عن عبادات هي اكثر من رفع خشبة عن الطريق فتكون تركه ذلك للمخافة على عبادات
اكثر من ذلك لا لمجرد خوف الرياء . واما قول الشبلي اذا اعجبك الكلام فاسكت يجوز ان يكون اراد به
مباحات الكلام كالفصاحة من الحكايات ونحوها فان ذلك يورث العجب وكذلك العجب بالسكوت
المباح محذور فهو عدول عن مباح الى مباح حذرا من العجب فاما الكلام الحق المندوب اليه فلم ينص
عليه على ان الآفة مما تعظم في الكلام فهو واقع من القسم الثاني واما كلامنا في العبادات الخاصة
ببدن العبد مما لا يتعلق بالناس ولا تعظم فيه الآفات ثم كلام الحسن في تركهم البكاء واماطة الاذى
لخوف الشهرة وربما كان حكاية احوال الضعفاء الذين لا يعرفون الافضل ولا يدركون هذه الدقائق
وانما ذكره تخويفا للناس من آفة الشهرة وزجرا عن طلبها القسم الثاني ما يتعلق بالخلق وتعظم
فيه الآفات والاخطار واعظمها الخلافة ثم القضاء ثم التذكير ثم التدريس والفتوى ثم انفاق
المال اما الخلافة والامارة فهي من افضل العبادات اذا كانت مع العدل والاخلاص وقد قال النبي
صلى الله عليه وسلم ليوم من امام عادل خير من عبادة الرجل وحده ستين عاما فاعظم بعبادة يوازي
يوم منها عبادة ستين عاما وقال النبي صلى الله عليه وسلم اول من يدخل الجنة ثلاث الامام المقسط
الحديث وقال ابو هريرة قال صلى الله عليه وسلم ثلاث لا ترد دعوتهم الامام العادل احدهم وقال صلى الله
عليه وسلم اقرب الناس مني مجلسا يوم القيمة امام عادل رواه ابو سعيد الخدري والامارة والخلافة
من اعظم العبادات ولم يزل المتقون يحترزون منها ويتركونها ويهربون من تقلدها وذلك لما فيها
من عظم الخطر اذ تتحرك بها الصفات الباطنة ويغلب على النفس حب الجاه ولذة الاستيلاء ونفاذ
الامر وهو اعظم ملاذ الدنيا واذا صارت الولاية محبوبة كان الوالي ساعيا في حظ نفسه ويوشك ان
يتبع هواه فيمتنع من كل ما يقدح في جاهه وولايته وان كان حقا ويقدم على ما يزيد في مكانته
وان كان باطلا وعند ذلك يهلك ويكون يوم من سلطان جائر شرا من فسق ستين سنة بمفهوم
الحديث الذي ذكرناه ولهذا الخطر العظيم كان عمر رضي الله عنه يقول من ياخذها بما فيها وكيف لا
وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم ما من والي عشرة الا جاء يوم القيمة مغلولة يده الى عنقه اطلقه عدله او اوبقه
جوره وفي رواية لا يفكها الا عدله رواه معقل بن يسار وولاه عمر رضي الله عنه ولاية فقال يا امير المومنين
اشر علي فقال اجلس واكتم علي وروي الحسن ان رجلا ولاه النبي صلى الله عليه وسلم فقال للنبي صلى الله
عليه وسلم خر لي قال اجلس وكذلك حديث عبد الرحمن بن سمرة اذ قال له النبي صلى الله عليه وسلم يا عبد
الرحمن لا تسال الامارة فانك ان اعطيتها من غير مسالة اعنت عليها وان اوتيتها عن مسالة وكلت اليها

وقال ابو بكر الصديق رضي الله عنه لرافع بن عمر لا تامرن على اثنين ثم ولي هو الخلافة فقام بها فقال له رافع الم تقل
لي لا تامرن على اثنين وانت قد وليت امر امة محمد صلى الله عليه وسلم فقال بلى وانا اقول لك ذلك فمن لم يعدل فيها
فعليه بهلة الله اي لعنة الله ولعل القليل البصيرة يرى ما ورد من فضل الامارة مع ما ورد من النهي عنها متناقضا
وليس كذلك بل الحق فيه ان الخواص الاقوياء في الدين لا ينبغي ان يمتنعوا من تقلد الولايات وان الضعفاء
لا ينبغي ان يدوروا بها فيهلكوا واعني بالقوي الذي لا تميله الدنيا ولا يستفزه الطمع ولا تاخذه في الله تعالى
لومة لائم وهم الذين سقط الناس من اعينهم وزهدوا في الدنيا وتبرموا بها وبمخالطة الخلق وقهروا انفسهم
وملكوها وقمعوا الشيطان فايس منهم وهولاء لا يحركهم الا الحق ولا يسكنهم الا الحق ولو زهقت فيه ذلك
ارواحهم فهم اهل نيل الفضل في الامارة والخلافة ومن علم انه ليس كذلك وبعزل من هذه الصفة حرم
عليه الخوض في الولايات ومن جرب نفسه فوجدها صابرة على الحق كافة عن الشهوات في غير الولاية ولكن
خاف عليها ان تتغير اذا ذاقت لذة الولاية وان تستحلي الجاه وتستلذ نفاذ الامر فتكره العزل فيداهن
خيفة من العزل فهذا قد اختلف الفقهاء في انه هل يلزمه الهرب من تقلد الولاية ام لا فقال قائلون
لا يجب لان هذا خوف امر في المستقبل وهو في الحال لم يعهد نفسه الا قوية في ملازمة الحق وترك
لذات النفس والصحيح ان عليه الاحتراز لان النفس خداعة مدعية للحق واعدة بالخير فلو وعدت
بالخير جزما لكان يخاف عليها ان تتغير عند الولاية فكيف اذا اظهرت التردد والامتناع من قبول
الولاية والامتناع من الولاية اهون من العزل بعد الشروع والعزل مولم وهو كما قال طلاق الرجال
فاذا شرع فيها فلا تسمح نفسه بالعزل وتميل الى المداهنة واهمال الحق وتهوي به في قعر جهنم ولا يستطيع
النزوع منه الى الموت الا ان يعزل قهرا وكان في ذلك عذاب عاجل لكل محب للولاية ومهما مالت
النفس الى طلب الولاية وحملته على السوال والطلب فتلك امارة الشر ولذلك قال صلى الله عليه وسلم
لا نولي امرنا من سالنا فاذا فهمت اختلاف حكم القوي والضعيف عرفت ان نهي ابي بكر رافع بن
عمر عن الولاية ثم تقلده لها ليس متناقضا اما القضاء فهو وان كان دون الخلافة والامارة فهو في
معناها فان كل ذي ولاية امير اي له امر نافذ والامارة محبوبة بالطبع والثواب في القضاء عظيم مع
اتباع الحق والعقاب فيه ايضا عظيم مع العدول عن الحق وقد قال صلى الله عليه وسلم القضاة ثلاثة
واحد في الجنة واثنان في النار وقال صلى الله عليه وسلم من استقضي فقد ذبح بغير سكين فحكمه حكم
الامارة ينبغي ان يتركه الضعفاء وكل من للدنيا ولذاتها وزن في عينه وليتقلده الاقوياء في الدين الذين
لا تاخذهم في الله لومة لائم ومهما كان السلاطين ظلمة ولم يقدر القاضي على القضاء الا بمداهنتهم واهمال

بعض الحقوق لاجلهم ولاجل المتعلقين بهم او يعلم انه لو حكم عليهم بالحق لعزلوه او لم يطيعوه فليس له
ان يتقلد القضا وان تقلد فعليه ان يطالبهم بالحقوق ولا يكون خوف العزل عذرا مرخصا له في الاهمال
اصلا بل اذا عزل سقطت العهدة عنه فينبغي ان يفرح بالعزل ان كان يتقي الله فان لم تسمح نفسه فهو اذا
يتقي لاتباع الهوى والشيطان فكيف يرتقب عليه ثوابا وهو مع الظلمة في الدرك الاسفل من النار
واما الوعظ والفتوى والتدريس ورواية الحديث وجمع الاسانيد العالية وكل ما يتسع بسببه الجاه
ويعظم به القدر فآفته ايضا عظيمة مثل آفة الولايات وقد كان الخائفون من السلف يتدافعون
الفتوى ما وجدوا الى ذلك سبيلا وكانوا يقولون حدثنا باب من الدنيا ومن قال حدثنا فانما يقول
اوسعوا لي وقال بشر كنا او كنا اضطر من الحديث وقال اني لا اشتهي ان احدث ولو اشتهيت ان لا احدث
لحدثت والواعظ يجد في وعظه وتاثر قلوب الناس وتلاحق بكائهم وزعقاتهم واقبالهم عليه لذة لا توازيها
لذة فاذا اغلب ذلك على قلبه مال طبعه الى كل كلام مزخرف يروج عند العوام وان كان باطلا ويفر عن
كل كلام حق يستثقله العوام وان كان حقا ويصير مصروف الهمة بالكلية الى ما يحرك قلوب العوام
ويعظم منزلته في قلوبهم فلا يسمع حديثا وحكمة الا ويكون فرحه بها من حيث انها تصلح ان يذكرها على
راس المنبر وكان ينبغي ان يكون فرحه بها من حيث انه عرف طريق السعادة وطريق سلوك سبيل الدين
ليعمل بها اولا ثم يقول اذا انعم الله تعالى علي بهذه النعمة ونفعني بهذه الحكمة فاقصها لانفع بها اخواني
في نفعها اخواني المسلمين فهذا ايضا مما يعظم فيه الخوف والفتنة فحكمه حكم الولايات فمن لا باعث له
الا طلب الجاه والمنزلة والاكل بالدين والتفاخر والتكاثر فينبغي ان يترك ذلك ويخالف الهوى فيه الى
ان ترتاض نفسه وتقوى في الدين همته ويامن على نفسه الفتنة فعند ذلك يعود اليه فان قلت فمهما
حكم بذلك على اهل العلم تعطلت العلوم واندرست وعم الجهل كافة الخلق فنقول قد نهى رسول الله صلعم
عن طلب الامارة وتوعد عليها حتى قال انكم تحرصون على الامارة وانها حسرة يوم القيمة وندامة الا من
اخذها بحقها وقال نعم المرضعة وبئست الفاطمة ومعلوم ان السلطنة والامارة لو تعطلت لبطل امر
الدين والدنيا جميعا وثار القتال بين الخلق وزال الامن وخربت البلاد وتعطلت المعايش فلم نهى
عنه مع ذلك وضرب عمر رضي الله عنه ابي بن كعب حين رأى قوما يتبعونه وهو مع ذلك يقول ابي سيد
المسلمين وكان يقرأ عليه القرآن فمنع من ان يتبعوه وقال هذا فتنة للمتبوع ومذلة على التابع وعمر
كان بنفسه يخطب ويعظ ولا يمتنع من ذلك واستاذن عمر رجل ان يعظ الناس اذا فرغ من صلاة
الصبح فمنعه فقال اتمنعني من نصح المسلمين فقال اخشى ان تنتفخ بل
الزما اذ راى فيه مخايل

الرغبة في جاه الوعظ وقبول الخلق والقضاء والخلافة مما يحتاج الناس اليهما في ذكره وكالوعظ والتدريس
والفتوى وفي كل واحد منهما فتنة ولذة ولا فرق بينهما واما قول القائل نهيك عن ذلك يؤدي الى اندراس العلم
وهو غلط اذ نهي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القضاء لم يؤد الى تعطيل القضاء بل الرياسة وحبها
يضطر الخلق الى طلبها وكذلك حب الرياسة لا يترك العلوم تندرس بل لو حبس الناس وقيدوا بالسلاسل
والاغلال عن طلب العلوم التي فيها القبول والرياسة لافلتوا من الحبس وكسروا السلاسل وطلبوها وقد
وعد الله تعالى ان يؤيد هذا الدين بقوم لاخلاق لهم فلا تشغل قلبك بامر الناس فان الله تعالى لا يضيعهم
وانظر لنفسك ثم اني اقول مع هذا اذا كان في البلد جماعة يقومون بالوعظ مثلا فليس في النهي عنه الخوف الا
امتناع بعضهم والا فمعلوم ان كلهم لا يمتنعون ولا يتركون لذة الرياسة فان لم يكن في البلد الا واحد وكان
وعظه نافعا للناس من حيث حسن كلامه وحسن سمته في الظاهر وتخيل الى العوام انه انما يريد الله بوعظه وانه
تارك للدنيا ومعرض عنها فلا نمنعه من الوعظ ونقول له اشتغل وجاهد نفسك فان قال لست اقدر على نفسي فنقول
اشتغل وجاهد لانا نعلم انه لو ترك ذلك لهلك الناس كلهم اذ لا قائم به غيره ولو واظب وغرضه الجاه فهو الهالك
وحده وسلامة دين الجميع احب الينا من سلامة دينه وحده فنجعله فداء للقوم ونقول لعل هذا هو الذي قال فيه
رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله يؤيد هذا الدين باقوام لاخلاق لهم ثم الواعظ هو الذي يرغب في الآخرة
ويزهد في الدنيا بكلامه وبظاهر سيرته فاما ما احدثه الوعاظ في هذه الاعصار من الطامات المزخرفة
والالفاظ المسجعة الموزونة بالاشعار مما ليس فيه تعظيم لامر الدين وتخويف للمسلمين بل فيه الترجية
والتجرئة على المعاصي بطيارات النكت فيجب اخلاء البلاد منهم فانهم نواب الدجال وخلفاء الشيطان
وانما كلامنا في واعظ حسن الوعظ جميل الظاهر يبطن في نفسه حب القبول ولا يقصد غيره وفيما
اوردناه في كتاب العلم من الوعيد الوارد في حق علماء السوء ما يبين لزوم الحذر من فتن العلم
وغوائله ولقد قال عيسى عليه السلام يا علماء السوء تصومون وتصلون وتصدقون ولا تفعلون ما تؤمرون
وتدرسون ما لا تعملون فيا سوء ما تحكمون تتوبون بالقول والاماني وتعملون بالهوى وما يغني عنكم ان
تنقوا جلودكم وقلوبكم دنسة بحق اقول لكم لا تكونوا كالمنخل يخرج الدقيق الطيب ويبقى فيه النخالة كذلك
انتم تخرجون الحكمة من افواهكم ويبقى الغل في صدوركم يا عبيد الدنيا كيف يدرك الآخرة من لا تنقضي من
الدنيا شهوته ولا تنقطع منها رغبته بحق اقول لكم ان قلوبكم تبكي من اعمالكم جعلتم الدنيا تحت السنتكم
والعمل تحت اقدامكم بحق اقول لكم افسدتم آخرتكم وصلاح الدنيا احب اليكم من صلاح الآخرة فاي الناس
اخسر منكم لو تعلمون ويلكم حتى متى تصفون الطريق للمدلجين وتقيمون في محلة المتحيرين كانكم تدعون

اهل الدنيا ليدعوها لكم مهلا مهلا ويلكم ماذا يغني عن البيت المظلم ان يوضع السراج فوق ظهره وجوفه
وحش مظلم كذلك لا يغني عنكم ان يكون نور العلم بافواهكم واجوافكم منه وحشة معطلة يا عبيد الدنيا لا
كعبيد اتقياء ولا كاحرار كرام يوشك الدنيا ان تقلعكم عن اصولكم فيلقيكم على وجوهكم ثم يكبكم على مناخركم
ثم ياخذ خطاياكم بنواصيكم ثم يدفعكم العلم من خلفكم ثم يسلمكم الى الملك الديان عراة فرادى فيوقفكم على سوايكم
ثم يجزيكم بسوء اعمالكم وقد روى الحرث المحاسبي هذا الحديث في بعض كتبه ثم قال هولاء علماء السوء شياطين
الانس وفتنة على الناس رغبوا في عرض الدنيا ورفعتها واثروها على الاخرة واذلوا الدين للدنيا فهم في العاجل
عار وشين وفي الاخرة هم الاخسرون فان قلت فهذه الافات ظاهرة ولكن ورد في العلم والوعظ
رغايب كثيرة حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لان يهدي الله بك رجلا خير لك من الدنيا وما فيها وقال صلعم
انما داع دعى الى هدى واتبع عليه كان له اجره واجر من اتبعه الى غير ذلك من فضايل العلم فينبغي ان يقال
للعالم اشتغل بالعلم واترك مراياة الخلق كما يقال لمن خالجه الرياء في الصلوة لا تترك العمل ولكن اتمم
العمل وجاهد فاعلم ان فضل العلم كبير وخطره عظيم كفضل الخلافة والامارة ولا يقول لاحد من عباد الله
اترك العلم اذ ليس في نفس العلم آفة انما الافة في اظهاره بالتصدي للوعظ والدرس ورواية الاحاديث
ولا يقول له ايضا اتركه ما دام يجد في نفسه باعثا دينيا ممزوجا بباعث الرياء فاما اذا لم يحركه الا الرياء فترك
الاظهار انفع له واسلم وكذلك نوافل الصلوات اذا تجرد فيها باعث الرياء وجب تركها اما اذا خطرت
له وساوس الرياء في اثناء الصلوة وهو له كاره فلا يترك الصلاة لان آفة الرياء في العبادات ضعيفة وانما
تعظم في الولايات وفي التصدي للمناصب الكبرة في العلم وبالجملة فالمراتب ثلاثة الاولى الولايات
والافة فيها عظيمة وقد تركها جماعة من السلف خوفا من الافة الثانية الصلاة والصوم والحج والغزو
وقد تعرض لها اقوياء السلف وضعفاؤهم ولم يؤثر عنهم الترك لخوف الافة وذلك لضعف الافات الداخلة
فيها والقدرة على نفيها مع اتمام العمل لله عز وجل بادنى قوة الثالثة وهي متوسطة بين الرتبتين وهي
التصدي للمنصب الوعظ والفتوى والرواية والتدريس والافات فيها اقل مما في الولايات واكثر مما في
الصلوات فالصلاة ينبغي ان لا يتركها الضعيف والقوي ولكن يدفع خاطر الرياء والولايات ينبغي ان يتركها
الضعفاء راسا دون الاقوياء ومناصب العلم بينهما ومن جرب آفات مناصب العلم علم انها بالولايات
اشبه وان الحذر منها في حق الضعيف اسلم والله اعلم وههنا رتبة رابعة وهي في جمع المال واخذه للتفرقة
على المستحقين فان في الانفاق واظهار السخاء استجلابا للثناء وفي ادخال السرور على قلوب الناس
لذة للنفس والافات فيها ايضا كثيرة ولذلك سئل الحسن عن رجل طلب القوت ثم امسك واخر طلب

اعلم ان الرجل قد يبيت في موضع مع القوم فيقومون للتهجد او يقوم بعضهم فيصلون الليل كله او بعضه
وهو ممن يقوم في بيته ساعة قريبة فاذا رآهم انبعث نشاطه للموافقة حتى يزيد على ما كان يعتاده
او يصلي مع انه كان لا يعتادها اصلا وكذلك قد يقع في موضع يصوم فيه اهل الموضع فينبعث نشاطه
في الصوم ولولاهم لما انبعث هذا النشاط وهذا ربما يظن ان هذا رياء وان الواجب ترك الموافقة
وليس كذلك على الاطلاق بل له تفصيل لان كل مؤمن راغب في عبادة الله تعالى وفي قيام الليل وصيام
النهار ولكن قد تعوقه العوائق وتمنعه الاشغال وتغلبه التمكن من الشهوات وتستهويه الغفلة
فربما يكون مشاهدة الغير سبب زوال الغفلة اذ يندفع العوائق والاشغال في بعض المواضع
فينبعث النشاط فقد يكون الرجل في منزله فيقطعه الاشغال والاسباب عن التهجد مثل تمكنه من
النوم على فراش وثير او تمكنه من التمتع بزوجته والمحادثة مع اهله واقاربه والاشتغال باولاده
او مطالعة حساب له مع معامليه فاذا وقع في منزل غريب اندفعت هذه الشواغل التي تفتر الرغبة
في الخير وحصلت اسباب باعثة على الخير كمشاهدة اياهم وقد اقبلوا على الله تعالى واعرضوا عن الدنيا
فانه ينظر اليهم فينافسهم ويشق عليه ان يسبقوه بطاعة الله تعالى فيتحرك داعيته للدين لا للرياء
وربما يفارقه النوم لاستنكاره الموضع او بسبب آخر فيغتنم زوال النوم وفي منزله ربما يغلبه النوم
وينضاف اليه انه في منزله على الدوام والنفس لا تسمح بالتهجد على الدوام وانما تسمح بالتهجد وقتا قليلا
فيكون ذلك سبب هذا النشاط مع اندفاع سائر العوائق وقد يعسر عليه الصوم في منزله ومعه اطايب
الاطعمة ويشق عليه الصبر عنها فاذا اعوزته تلك الاطعمة لم يشق عليه الصوم فينبعث داعية الدين
للصوم فان الشهوات الحاضرة عوائق ودوافع تغلب باعث الدين فاذا سلم منها قوي الباعث فهذا
وامثاله من الاسباب يتصور وقوعه ويكون السبب فيه مشاهدة الناس وكونه معهم والشيطان
عند ذلك ربما يصد عن العمل ويقول لا تعمل فانك تكون مرائيا اذ كنت لا تعمل في بيتك ولا تزيد على
صلاتك المعتادة وقد يكون رغبته في الزيادة لاجل رؤيتهم وخوفا من ذمهم ونسبتهم اياه الى الكسل
لا سيما اذا كانوا يظنون به انه يقوم الليل فان نفسه لا تسمح بان تسقط من اعينهم فيريد ان يحفظ
منزلته وعند ذلك قد يقول الشيطان صل فانك مخلص ولست تصلي لاجلهم بل لله وانما كنت
لا تصلي كل ليلة لكثرة العوائق وانما داعيتك زوال العوائق لا اطلاعهم وهذا امر مشتبه الا على
ذوي البصائر فان عرف ان المحرك هو الرياء فلا ينبغي ان يزيد على ما كان يعتاده ولا ركعة واحدة
لانه يعصي الله تعالى بطلب محمدة الناس بطاعة الله وان كان انبعاثه لدفع العوائق وتحرك الغبطة

والمنافسة بسبب عبادتهم فليوافق وعلامة ذلك ان يعرض على نفسه انه لو راي هولاء يصلون من
حيث لا يرونه بل من وراء حجاب وهو في ذلك الموضع بعينه هل كانت تسخو نفسه بالصلاة وهم
لا يرونه فان سخت بها فليصل فان باعثه الحق وان كان يثقل ذلك على نفسه لو غاب عن اعينهم
فليترك فان باعثه الرياء وكذلك قد يحضر الانسان يوم الجمعة في الجامع من نشاط الصلاة ما لا يحضره
كل يوم ويمكن ان يكون ذلك لحب مدحهم ويمكن ان يكون سببه تحرك نشاطه بسبب نشاطهم
وزوال الغفلة بسبب اقبالهم على الله تعالى وقد يتحرك بذلك باعث الدين ويقارنه نزوع النفس الى
حب المحمدة فمهما علم ان الغالب على قلبه ارادة الدين فلا ينبغي ان يترك العمل لما يجده من حب
الحمد بل ينبغي ان يرد ذلك على نفسه بالكراهة ويشتغل بالعبادة وكذلك قد يبكي جماعة فينظر اليهم
فيحضره البكاء خوفا من الله تعالى لا من الرياء ولو سمع ذلك الكلام وهو وحده لما بكا ولكن بكاء
الناس قد يوثر في ترقيق القلب وقد لا يحضره البكاء فيتباكى تارة رياء وتارة مع الصدق اذ يخشى
على نفسه قساوة القلب حين يبكون ولا تدمع عينه فيتباكى تكلفا وذلك محمود وعلامة الصدق
فيه ان يعرض على نفسه انه لو سمع بكاءهم من حيث لا يرونه هل كان يخاف على نفسه القساوة
فيتباكى ام لا فان لم يجد ذلك عند تقدير الاختفاء عن اعينهم فانما خوفه اذن من ان يقال انه
قاسي القلب فينبغي ان يترك التباكي وقال لقمن لابنه يا بني لا ترى الناس انك تخشى الله ليكرموك وقلبك
فاجر وكذلك الصيحة والتنفس والانين عند القران او الذكر او بعض مجاري الاحوال تارة تكون
من الصدق والحزن والخوف والندم والتاسف وتارة تكون لمشاهدة حزن غيره وقساوة
قلبه فيتكلف التنفس والانين ويتحازن وذلك محمود وقد يقترن بذلك الرغبة فيه لدلالته على انه
كثير الحزن ليعرف بذلك فان تجردت هذه الداعية فهو الرياء وان اقترنت بداعية الحزن فان اباها
ولم يقبلها او كرهها سلم بكاؤه وتباكيه وان قبل ذلك وركن اليه بقلبه حبط اجره وضاع سعيه وتعرض
لسخط الله به وقد يكون اصل الانين عن الحزن ولكن يمده ويزيد في رفع الصوت فتلك الزيادة
رياء وهو محظور لانها في حكم الابتداء المجرد للرياء وقد يهيج من الخوف ما لا يملك العبد معه نفسه
ولكن يسبق خاطر الرياء فيقبله فيدعو الى زيادة تحزين الصوت او رفع له او حفظ الدمعة على
الوجه حتى يبصر بعد ان استرسلت لخشية الله ولكن يحفظ اثرها على الوجه لاجل الرياء وكذلك قد يسمع
الذكر فتضعف قواه من الخوف فيسقط ثم يستحيي ان يقال انه سقط من غير زوال العقل وحالة شديدة
فيزعق ويتواجد تكلفا ليري انه سقط لكونه مغشيا عليه وقد كان ابتداء السقطة عن صدق وقد

يزول عقله فيسقط ولكن سبق سريعا فجزع نفسه ان يقال ان حالته غير ثابتة وانما هي كبرق خاطف
فيستديم الزعقة والرقص ليري دوام حاله وكذلك قد يفيق بعد الصعق ولكن يزول ضعفه سريعا فيجزع
ان يقال لم يكن غشيته صحيحة ولو كان لدام ضعفه فيستديم اظهار الصعق والانين فيتكي على غيره
يري انه يضعف عن القيام ويتمايل في المشي ويقرب الخطا ليظهر انه ضعف عن سرعة المشي فهذه
الامور كلها مكيدة الشيطان ونزعات النفس فاذا خطرت فعلاجها ان يتذكر ان الناس لو عرفوا
نفاقه في الباطن واطلعوا على ضميره لمقتوه وان الله مطلع على ضميره وهو له اشد مقتا كما روي
عن الجنيد انه قام وزعق فقام معه شيخ فرأى فيه اثر التكلف فقال يا شيخ الذي يراك حين تقوم
يجلسك الشيخ وكل ذلك من اعمال المنافقين وقد جاء في الخبر تعوذوا بالله من خشوع النفاق وانما خشوع
النفاق ان تخشع الجوارح والقلب غير خاشع ومن ذلك الاستغفار والاستعاذة بالله من عذابه
وغضبه فان ذلك قد يكون لخاطر خوف وتذكر ذنب وتندم عليه وقد يكون للمراءاة فهذه خواطر
ترد على القلب مترادفة متضادة متقاربة وهي مع تقاربها متشابهة فراقب قلبك في كل ما
يخطر لك وانظر ما هو ومن اين هو فان كان لله فامضه واحذر مع ذلك ان يكون قد خفي عليك
شيء من الرياء الذي هو كدبيب النمل وكن على وجل من عبادتك اهي مقبولة ام لا لخوفك على الاخلاص
فيها واحذر ان يتجدد لك خاطر الركون الى حمدهم بعد الشروع بالاخلاص فان ذلك مما يخطر حدا
فاذا خطر لك فتفكر في اطلاع الله تعالى عليك ومقته لك وتذكر ما قاله احد الثلاثة نفر الذين جاءوا
ايوب عليه السلم اذ قال لايوب اما علمت ان العبد تضل عنه علانيته التي كان يخادع لها عن
نفسه ويجزى بسريرته وقول بعضهم اعوذ بك ان اخشاك وانت لي ماقت وكان من دعاء الحسن بن علي
عليهما السلم اللهم اني اعوذ بك ان تحسن في لامعة العيون علانيتي وتقبح لك فيما اخلو سريرتي
محافظا على رياء الناس من نفسي ومضيعا لما انت مطلع عليه مني ابدي للناس احسن امري وافضي
اليك بسوء عملي تقربا الى الناس بحسناتي وفرارا منهم اليك بسيئاتي فيحل بي مقتك ويجب علي غضبك
اعذني من ذلك يا رب العالمين وقد قال احد الثلاثة نفر لايوب عليه السلم الم تعلم يا ايوب ان
الذين حفظوا علانيتهم واضاعوا سرائرهم عند طلب الحاجات الى الرحمن تسود وجوههم فهذه
جمل آفات الرياء فليراقب العبد قلبه ليقف عليها وفي الخبر ان للرياء سبعون بابا وقد عرفت ان
بعضه اغمض من بعض حتى ان بعضه مثل دبيب النمل وبعضه اخفى من دبيب النمل وكيف يدرك
ما هو اخفى من دبيب النمل الا بشدة التفقد والمراقبة وليتها تدرك بعد بذل المجهود فكيف يطمع

في ادراكه من غير تفقد للقلب وامتحان للنفس وتفتيش عن خدعها بيان ما ينبغي للمريد ان يلزم نفسه قبل العمل وبعده وفيه اعلم ان اول ما ينبغي ان يلزم المريد قلبه في ساير اوقاته القناعة بعلم الله تعالى في جميع طاعاته ولا يقنع بعلم الله الا من لا يخاف الا الله واما من يخاف غيره ويرجاه فما يشتهي اطلاعه على محاسن احواله فمن كان في هذه الرتبة فيلزم قلبه وله كراهة ذلك من جهة العقل والايمان لما فيه من خطر التعرض للمقت وليراقب نفسه عند الطاعات العظيمة الشاقة التي لا يقدر عليها غيره فان النفس عند ذلك تكاد تغلي حرصا على الافشاء وتقول مثل هذا العمل العظيم او الخوف العظيم او البكاء العظيم لو عرفه الخلق منك لسجدوا لك فما في الخلق من يقدر على مثله فكيف ترضى باخفائه فيجهل الناس محلك وينكرون قدرك ويحرمون الاقتداء بك ففي مثل هذا الامر ينبغي ان تثبت قدمه ويتذكر في مقابلة عظيم عمله عظيم ملك الآخرة ونعيم الجنة ودوام نعيمها ابد الآباد وعظيم غضب الله ومقته على من طلب بطاعته ثوابا من عباده ويعلم ان اظهاره لغيره تحبب اليهم وسقوط عند الله واحباط للعمل العظيم فيقول كيف اتبع مثل هذا العمل بحمد الخلق وهم عاجزون لا يقدرون لي على رزق واجل فيلزم ذلك قلبه ولا ينبغي ان يايس منه فيقول انما يقدر على الاخلاص الاقوياء فاما المخلطون فليس ذلك من شانهم فيترك المجاهدة في الاخلاص فالمخلط الى ذلك احوج من المتقي لان المتقي ان فسدت نوافله بقيت فرائضه كاملة تامة والمخلط لا تخلو فرائضه عن النقصان والحاجة الى الجبران بالنوافل فان لم يسلم صار ماخوذا بالفرايض وهلك بذلك والمخلط الى الاخلاص احوج وقد روى تميم الداري عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال يحاسب العبد يوم القيمة فان نقص فرضه قيل انظروا هل له من تطوع فان كان له تطوع اكمل به فرضه وان لم يكن له تطوع اخذ بطرفيه فالقي في النار فياتي المخلط يوم القيمة وفرضه ناقص وعليه ذنوب كثيرة فاجتهاده في جبر الفرايض وتكفير السيئات ولا يمكن ذلك الا بخلوص النوافل واما المتقي فجهده في زيادة الدرجات فان حبط تطوعه بقي من حسناته ما يترجح على السيئات فيدخل الجنة فاذن ينبغي ان يلزم قلبه خوف اطلاع غير الله تعالى عليه لتصح نوافله ثم يلزم قلبه ذلك بعد الفراغ حتى لا يتحدث به ولا يظهره فاذا فعل جميع ذلك فينبغي ان يكون وجلا من عمله خايفا انه ربما دخلت من الرياء الخفي ما لم يقف عليه فيكون شاكا في قبوله ورده فيجوز ان يكون الله عز وجل قد احصى عليه من نيته الخفية ما مقته بها ورد عمله بسببها ويكون هذا الشك وهذا الخوف في دوام عمله وبعده لا في ابتداء العقد بل ينبغي ان يكون متيقنا في الابتداء انه مخلص لا يريد بعمله الا الله حتى يصح عمله فاذا شرع في العمل ومضت لحظة يمكن فيها

الغفلة والنسيان كان الخوف من الغفلة عن شائبة خفية احبطت عمله من رياء او عجب اولي به ولكن
يكون رجاؤه اغلب من خوفه لانا استيقن انه دخل باخلاص وشك في انه هل افسده برياء فيكون
رجاء القبول اغلب ولذلك تعظم لذته في المناجات والطاعات فالاخلاص يقين والرياء شك وخوفه لاجل
ذلك الشك جدير بان يكفر خاطر الرياء ان كان قد سبق وهو غافل عنه والذي يتقرب الي الله تعالي
بالسعي في حوائج الناس وافادة العلم ينبغي ان يلزم نفسه رجاء الثواب علي دخول السرور علي قلب
من قضي حاجته فقط ورجاء الثواب علي عمل المتعلم بعلمه فقط دون شكر ومكافاة وحمد وثناء من
المتعلم والمنعم عليه فان ذلك يحبط الاجر فمهما توقع من المتعلم مساعدة في شغل وخدمة او موافقة في
المشي في الطريق ليستكثر باتباعه او ترددا منه في حاجة فقد اخذ اجره فلا ثواب له غير ذلك نعم ان لم يتوقع
هو ذلك ولم يقصد الا الثواب علي عمله بعلمه ليكون له مثل اجره ولكن خدم التلميذ بنفسه فقبل خدمته
فنرجوا ان لا يحبط ذلك اجره اذا كان لا ينتظره ولا يريده منه ولا يستبعده منه لو قطعه ومع هذا فقد
كان العلماء يحذرون ذلك حتي ان بعضهم وقع في بير فجاء قوم وادلوا الحبل ليأخذوه فحلف عليهم الا
يقف معهم من قرا آية من القرآن عليه وسمع منه حديثا خيفة من ان يحبط ذلك اجره وقال شقيق البلخي
اهديت الي سفين الثوري ثوبا فرده علي قلت له يا ابا عبد الله لست انا ممن يسمع الحديث حتي ترده
علي قال علمت ذلك ولكن اخوك يسمع مني الحديث فاخاف ان يلين قلبي لاخيك اكثر مما يلين لغيره
وجاء رجل الي سفين ببدرة او ببدرتين وكان ابوه صديقا لسفين وكان سفين ياتيه كثيرا
فقال له يا ابا عبد الله في نفسك شي من ابي فقال يرحم الله اباك كان وكان واثنا عليه فقال يا ابا
عبد الله قد عرفت كيف صار الي هذا المال واحب ان تاخذ هذه تستعين بها علي عيالك قال فقبل
سفين ذلك منه فلما خرج قال لولده يا مبارك الحقه فرده عليه فرجع فقال احب ان تاخذ مالك فلم
يزل حتي رده عليه فكانه كانت اخوته مع ابيه في الله فكره ان ياخذ ذلك قال ولده فلما خرج
لم املك نفسي ان جيت اليه فقلت له اي شي قلبك هذا حجارة عد انه ليس لك عيال اما ترحمني اما
ترحم اخوتي اما ترحم عيالنا فاكثرت عليه فقال يا مبارك تاكلها هنيا مريا واسال عنها انا فاذن
يجب علي العالم ان يلزم قلبه طلب الثواب من الله تعالي في اهتداء الناس به فقط ويجب علي المتعلم
ان يلزم قلبه طلب حمد الله تعالي وثوابه ونيل المنزلة عنده لا عند المعلم وعند الخلق ربما يظن انه
راي بطاعته لينال عند المعلم رتبة فيتعلم منه وهذا خطاء لان ارادته غير الله بطاعته
خسران في الحال والعلم ربما يفيد وربما لا يفيد وكيف يخسر في الحال عملا نقدا علي توهم علم وذلك غير

جايز بل ينبغي ان يتعلم لله ويعبد الله ويخدم المعلم لله لا ليكون له في قلبه منزلة ان كان يريد ان يكون
تعلمه طاعة فان العباد امروا بان لا يعبدوا الا الله ولا يريدوا بطاعتهم غيره وكذلك كل من يخدم ابويه
لا ينبغي ان يخدم لطلب المنزلة عندهم الا من حيث ان رضا الله في رضى الوالدين ولا يجوز له ان يرائي
بطاعته لينال بها منزلة عند الوالدين فان ذلك معصية في الحال وسيكشف الله عن ريائه ويسقط
منزلته من قلوب الوالدين ايضا واما الزاهد المعتزل عن الناس فينبغي ان يلزم قلبه ذكر الله عز والقناعة
بعلمه ولا يخطر بقلبه معرفة الناس زهده واستعظامهم محله فان ذلك يغرس الرياء في صدره حتى تتيسر
عليه العبادات في خلوته وانما سكونه معرفة الناس باعتزاله واستعظامهم محله وهو لا يدري ان ذلك
المخفف للعمل عليه قال ابرهيم بن ادهم تعلمت المعرفة من راهب يقال له سمعان دخلت عليه في صومعته
فقلت يا سمعان منذ كم انت في صومعتك قال منذ سبعين سنه قلت وما طعامك قال يا حنيفي
وما دعاك الى هذا قلت احببت ان اعلم ذلك قال في كل ليله حمصة قلت فما الذي يهيج من
قلبك حتى تكفيك هذه الحمصة قال ترى الدير حذائك قلت نعم قال انهم ياتوني في كل سنه يوما
واحدا فيزينون صومعتي ويطوفون حولها ويعظموني فكلما تثاقلت نفسي عن العبادة ذكرتها
عن تلك الساعة فاحتمل جهد سنة لعز ساعة فاحتمل يا حنيفي جهد ساعة لعز الابد فوقرت في قلبي
المعرفة قال احسبك اما زيدك قلت بلى قال انزل عن الصومعة فنزلت فادلى الي ركوة فيها عشرون
حمصة وقال لي ادخل الدير فقد راوا ما دليت اليك فلما دخلت الدير اجتمعت النصارى فقالوا يا حنيفي
ما الذي ادلى اليك الشيخ قلت من قوته قالوا وما تصنع به ونحن احق به قالوا ساوم قلت عشرون
دينارا فاعطوني عشرين دينارا فرجعت الى الشيخ فقال يا حنيفي ما الذي صنعت قلت بعته منهم
قال بكم قلت بعشرين دينارا قال اخطات لو ساومتهم بعشرين الف دينار لاعطوك هذا عز من لا تعبده
فانظر كيف يكون عز من تعبده يا حنيفي اقبل على ربك ودع عنك الذهاب والجية والمقصود
استشعار النفس عز العظمة في القلوب يكون باعثا في الخلوة وقد لا يشعر العبد به فينبغي ان يلزم
نفسه الحذر منه وعلامة سلامته ان تكون الخلق عنده والبهايم بمثابة واحدة فلو تغير والاعن
اعتقادهم لم يجزع ولم يضق به ذرعا الا كراهة ضعيفة ان يجدها في قلبه فيردها في الحال بعقله
وايمانه فانه لو كان في عبادة فاطلع الناس كلهم عليه لم تزده ذلك خشوعا ولم يداخله سرور بسبب
اطلاعهم عليه فان دخل سرور يسير فهو دليل على ضعفه ولكن اذا قدر على رده بكراهة العقل
والايمان وبادر الى ذلك ولم يقبل السرور بالركون اليه فيرجى ان لا يخيب سعيه الا ان يزيد عند

مشاهدتهم في الخشوع والانقباض كيلا ينبسطوا اليه فذلك لا باس به ولكن فيه غرور اذ النفس
قد تكون شهوتها الخفية في اظهار الخشوع وتتعلل بطلب الانقباض فليطالبها في دعواها قصد
الانقباض بموثق من الله عليك وهو انه لو علم ان انقباضهم عنه انما يحصل بان يعدو سريعا او يأكل
كثيرا ويضحك فتسمح نفسه بذلك فاذا لم تسمح به وسمحت بالعبادة فيشبه ان يكون مرادها المنزلة
عندهم ولا ينجو من هذا الا من تقرر في قلبه انه ليس في الوجود احد سوى الله فيعمل عمل من لو كان
على وجه الارض وحده لكان يعمله ولا يلتفت قلبه الى الخلق الا خطرات ضعيفة لا يشق عليه ازالتها
فاذا كان كذلك لم يتغير بمشاهدة الخلق ومن علامة الصدق في ذلك انه لو كان له صاحبان احدهما
غني والآخر فقير فلا يجد عند اقبال الغني زيادة هزة في نفسه لاكرامه الا اذا كان في الغني زيادة علم
وزيادة ورع فيكون مكرما له لذلك الوصف لا بالغنى فمن كان استرواحه الى مشاهدة الاغنياء اكثر
فهو مراء او طماع والا فالنظر الى الفقراء يزيد في رغبته في الآخرة ويحبب الى القلب المسكنة والنظر
الى الاغنياء بخلافه فكيف استروح الى الغني اكثر مما استروح الى الفقير وقد حكي ان الاغنياء لم يروا في مجلس
اذل منهم في مجلس الثوري كان يجلسهم وراء الصف ويقدم الفقراء حتى كانوا يتمنون انهم فقراء في مجلسه
نعم لك زيادة اكرام الغني اذا كان اقرب اليك او كان بينك وبينه حق وصداقة سابقة ولكن يكون
بحيث لو وجدت تلك العلاقة في فقير لكنت لا تقدم الغني عليه في اكرام وتوقير البتة فان الفقير اكرم على
الله من الغني وايثارك للغني لا يكون الا طمعا ورياء ثم اذا سويت بينهما في المجالسة فيخشى عليك ان
تظهر الحكمة والخشوع للغني اكثر مما تظهر للفقير وانما يكون ذلك رياء خفيا او طمعا خفيا كما قال ابن السماك
لجارية له ما لي اذا اتيت بغداد فتحت الي الحكمة قالت الطمع يشحذ لسانك وقد صدقت فان اللسان
ينطلق عند الغني بما لا ينطلق به عند الفقير وكذلك يحضر من الخشوع عنده ما لا يحضر عند الفقير ومكايد
النفس وخباياها في هذا الفن لا تحصر ولا ينجيك منها الا ان تخرج ما سوى الله من قلبك وتتجرد
للشفقة على نفسك بقية عمرك ولا ترضى لها بالنار بسبب شهوات منغصة في ايام متقاربة منقضية
وتكون في الدنيا كملك من ملوك الدنيا قد امكنته الشهوات وساعدته اللذات ولكن في بدنه
سقم وهو يخاف الهلاك على نفسه في كل ساعة منه لو اتسع في الشهوات وعلم انه لو احتمى وجاهد فيه
شهوته عاش ودام ملكه فلما عرف ذلك جالس الاطباء وحارف الصيادلة وعود نفسه شرب الادوية
المرة وصبر على بشاعتها وهجر جميع اللذات وصبر على مفارقتها فبدنه يزداد كل يوم نحولا لقلة
اكله ولكن سقمه كل يوم يزداد نقصانا لشدة احتمائه فمهما نازعته نفسه في شهوة تفكر في توالي

الالام والاوجاع عليه واذا ذلك الي الموت المفرق بينه وبين مملكته الموجب لشماتة اعدايه ومهما اشتد
عليه مر الدوا تفكر فيما يستفيده منه من الشفا الذي هو سبب التمتع بملكه ونعيمه في عيش هني وبدن
صحيح وقلب رخي وامن ما فلم يخفف عليه مهاجرة اللذات ومصابرة المكروهات فكذلك المومن المريد
لملك الاخرة احتما عن كل مهلك له في آخرته وهي لذات الدنيا وزهرتها فاجترا منها بالقليل واختار
الذبول والنحول والوحشه والحزن والخوف وترك المؤانسة بالخلق خوفا من ان يحل عليه
غضب الله فيهلك ورجا ان ينجو من عذابه فخف ذلك كله عليه عند شدة يقينه وايمانه بعاقبة امره
وبما اعد له من النعيم المقيم في رضا الله ابد الاباد ثم علم ان الله تعالى كريم رحيم لم يزل بعباده المريدين
لمرضاته عونا وبهم رؤوفا وعليهم عطوفا ولو شا لاغناهم عن التعب والنصب ولكن اراد ان يبلوهم
ويعرف صدق ارادتهم حكمة منه وعدلا ثم اذا تحمل التعب في بدايته اقبل الله تعالى عليه بالمعونة
والتيسير وحط عنه الاعبا وسهل عليه الصبر وحبب اليه الطاعة ورزقه فيها من لذة المناجاة
ما يلهيه ذلك عن ساير اللذات ويقويه على اماتت الشهوات ويتولى سياسته وتقويته ولمدده بمعونته
فان الكريم لا يضيع اجر الراجي ولا يخيب امل المحب وهو الذي يقول من يتقرب الي شبرا فتقربت اليه
ذراعا ويقول لقد طال شوق الابرار الي لقايي واني الي لقايهم اشد شوقا فليظهر العبد في البداية

جده وصدقه واخلاصه فلا يعوزه من الله تعالى على
القرب ما هو اللايق بجوده وكرمه ورأفته ورحمته
تم كتاب ذم الجاه والريا بحمد الله وعونه

م

كتاب ذم الكبر والعجب

وهو الكتاب التاسع من ربع المهلكات

بسم الله الرحمن الرحيم رب يسر

الحمد لله الخالق البارئ المصور العزيز الجبار المتكبر العلي الذي لا يضعه عن مجده واضع الجبار الذي كل
جبار له ذليل خاضع وكل متكبر في جناب عزه مسكين متواضع فهو القهار الذي لا يدافعه عن مراده
دافع الغني الذي ليس له في ملكه شريك ولا منازع القادر الذي بهر ابصار الخلق بهاؤه وجلاله وقهر
العرش المجيد وارتفع عن حد قدرته احصاؤه واستقصاؤه فاعترف بالعجز عن وصف كنه جلاله
ملائكته وانبياؤه وكسر ظهور الاكاسرة عزه وعلاؤه وقصر ايدي القياصرة عظمته وكبرياؤه فالعظمة
ازاره والكبرياء رداؤه فمن نازعه فيهما قصمه بداء الموت فاعجزه دواؤه جل جلاله وتقدست اسماؤه
والصلوة على محمد النبي الذي انزل معه النور المستنير ضياؤه حتى اشرقت بنوره اكناف العالم وارجاؤه وعلى
آله واصحابه الذين هم احباء الله واولياؤه وخيرته واصفياؤه وسلم كثيرا **اما بعد** فقد قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى العظمة ازاري والكبرياء ردائي فمن نازعني فيهما قصمته
وقال صلى الله عليه وسلم ثلاث مهلكات شح مطاع وهوى متبع واعجاب المرء بنفسه والكبر والعجب
داآن مهلكان والمتكبر والمعجب سقيمان مريضان وهما عند الله ممقوتان بغيضان واذا كان
القصد في هذا الربع من كتاب احياء علوم الدين شرح المهلكات وجب ايضاح الكبر والعجب
فانهما من قبائح المرديات ونحن نستقصي بيانهما من هذا الكتاب في شطرين شطر في الكبر وشطر
في العجب **الشطر الاول من الكتاب في الكبر** وفيه بيان ذم الكبر وبيان ذم الاختيال وبيان
فضل التواضع وبيان حقيقة الكبر وآفته وبيان من يتكبر عليه ودرجات الكبر وبيان ما به التكبر وبيان
البواعث على التكبر وبيان اخلاق المتواضعين وما فيه يظهر التكبر وبيان علاج الكبر وبيان امتحان
النفس في خلق الكبر وبيان المحمود من خلق التواضع والمذموم منه **بيان ذم الكبر** وقد ذم الله تعالى
الكبر في مواضع من كتابه وذم كل جبار متكبر فقال تعالى ساصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الارض بغير
الحق وقال تعالى كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار وقال تعالى واستفتحوا وخاب كل جبار
عنيد وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يدخل الجنة من كان في قلبه حبة من خردل من كبر ولا يدخل
النار من كان في قلبه حبة من الايمان وقال ابو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى الكبرياء
ردائي والعظمة ازاري فمن نازعني واحدا منهما القيته في جهنم وعن ابي سلمة بن عبد الرحمن قال التقى

عبد الله بن عمر وعبد الله بن عمرو على المروة فتوافقا فمضى بن عمرو واقام ابن عمر يبكي فقالوا ما يبكيك يا ابا عبد
الرحمن قال هذا يعني عبد الله بن عمرو زعم انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من كان في قلبه
مثقال ذرة من خردل من كبر اكبه الله تعالى في النار على وجهه وقال النبي صلى الله عليه وسلم لا يزال الرجل
يذهب بنفسه حتى يكتب من الجبارين فيصيبه ما اصابهم من العذاب وقال سليمان بن داود عليه السلام
يوما للطير والجن والانس والبهايم اخرجوا فخرجوا في مائتي الف من الانس ومائتي الف من الجن فرفع حتى
سمع زجل الملائكة بالتسبيح في السموات ثم خفض حتى مست قدميه البحر فسمع صوتا يقول لو كان في قلب
صاحبكم مثقال ذرة من كبر لخسفت به ابعد مما رفعته وقال صلى الله عليه وسلم يخرج من النار عنق له اذنان
يسمعان وعينان تبصران ولسان ينطق يقول وكلت بثلاثة بكل جبار عنيد وبكل من دعى مع الله الها
آخر وبالمصورين وقال عليه السلام لا يدخل الجنة بخيل ولا جبار ولا سئ الملكة وقال صلى الله عليه وسلم
تحاجت الجنة والنار فقالت النار اوثرت بالمتكبرين والمتجبرين وقالت الجنة مالي لا يدخلني الا ضعفا
الناس وسقاطهم وعجزتهم فقال الله تعالى للجنة انما انت رحمتي ارحم بك من اشاء من عبادي وقال
للنار انما انت عذابي اعذب بك من اشاء ولكل واحدة منكما ملؤها وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم
بئس العبد عبد تجبر واعتدى ونسي الجبار الاعلى بئس العبد عبد تجبر واختال ونسي الكبير المتعال بئس
العبد عبد سهى ولها ونسي المقابر والبلى بئس العبد عبد عتا وبغى ونسي المبدا والمنتهى وعن ثابت
قال بلغنا انه قيل يا رسول الله ما اعظم كبر فلان فقال اليس بعده الموت وقال عبد الله بن عمرو ان رسول
الله صلى الله عليه وسلم قال ان نوحا عليه السلم لما حضرته الوفاة دعا ابنيه وقال اني امركما باثنتين وانهاكما
عن اثنتين انهاكما عن الشرك والكبر وامركما بلا اله الا الله فان السموات والارض وما فيهن لو وضعت
في كفة الميزان ووضعت لا اله الا الله في الكفة الاخرى كانت ارجح منها ولو ان السموات والارض وما
فيهن كانتا حلقة فوضعت لا اله الا الله عليها لقصمتها وامركما بسبحان الله وبحمده فانها صلاح كل
شئ وبها يرزق كل شئ وقال عيسى عليه السلم طوبى لمن علمه الله كتابه ثم لم يمت جبارا وقال النبي صلى الله عليه وسلم
اهل النار كل جعظري جواظ مستكبر جماع مناع واهل الجنة الضعفاء المقلون وقال صلى الله عليه وسلم ان احبكم
الينا واقربكم منا في الآخرة احسنكم اخلاقا وان ابغضكم الينا وابعدكم منا الثرثارون المتشدقون
المتفيهقون قالوا يا رسول الله قد علمنا الثرثارون والمتشدقون فما المتفيهقون قال المتكبرون
وقال صلى الله عليه وسلم يحشر المتكبرون يوم القيمة ذرا على مثل صور الرجال يعلوهم كل شئ من الصغار
ثم يساقون الى سجن في جهنم يقال له بولس يعلوهم نار الانيار يسقون من طين الخبال عصارة اهل النار

وقال ابو هريرة قال النبي صلى الله عليه وسلم يحشر الجبارون والمتكبرون يوم القيمة في صور الذر تطاهم
الناس اهوانهم على الله وعن محمد بن واسع قال دخلت على بلال بن ابي بردة فقلت له يا بلال ان اباك حدثني
عن ابيه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ان في جهنم واديا يقال له هبهب حقا على الله ان يسكنه كل جبار
واياك ان تكون يا بلال ممن يسكنه وقال صلى الله عليه وسلم اللهم اني اعوذ بك من نفخة الكبرياء وقال من
فارق روحه جسده وهو بري من ثلاث دخل الجنة من الكبر والدين والغلول **الآثار** قال
ابو بكر الصديق رضي الله عنه لا يحقرن احد من المسلمين فان صغير المسلمين عند الله كبير قال وهب لما
خلق الله تعالى جنة عدن نظر اليها فقال انت حرام على كل متكبر وكان الاحنف بن قيس يجلس مع
مصعب بن الزبير على سريره فجاء يوما ومصعب ماد رجليه فلم يقبضهما وقعد الاحنف بن قيس فزحمه
بعض الزحمة فرأى اثر ذلك فيه فقال عجبا لابن آدم يتكبر وقد خرج من مخرج البول مرتين وقال
الحسن العجب لابن آدم يغسل الخراء بيده كل يوم مرة او مرتين ثم يتكبر يعارض جبار السموات وقد قيل وفي
انفسكم افلا تبصرون وهو سبيل الغائط والبول وقال محمد بن علي الحسين بن علي عليهما السلم ما دخل
قلب امرئ شي من الكبر قط الا نقص من عقله بقدر ما دخل من ذلك قل او كثر وسئل سليمان عن
السيئة التي لا ينفع معها حسنة فقال الكبر قال النعمان بن بشير على المنبر ان للشيطان مصاليا وفخوخا
وان من مصالي الشيطان وفخوخه البطر بانعم الله والفخر بعطاء الله والكبر على عباد الله واتباع
الهوى في غير ذات الله

بيان ذم الاختيال واظهار آثار الكبر في المشي وجر الثياب

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينظر الله الى رجل يجر ازاره بطرا وقال صلى الله عليه وسلم بينما رجل يتبختر
في برديه قد اعجبته نفسه خسف الله به الارض وهو يتجلجل فيها الى يوم القيمة وقال صلى الله عليه وسلم
من جر ثوبه خيلاء لم ينظر الله اليه يوم القيمة وقال زيد بن اسلم دخلت على ابن عمر رضي الله عنهما فمر به
عبد الله بن واقد وعليه ثوب جديد فسمعته يقول اي بني ارفع ازارك فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم
يقول لا ينظر الله تعالى الى من جر ازاره خيلاء وروي ان رسول الله صلى الله عليه وسلم بزق يوما على كفه
ووضع اصبعه عليه وقال يقول الله تعالى ابن آدم اتعجزني وقد خلقتك من مثل هذه حتى اذا سويتك
وعدلتك مشيت بين بردين وللارض منك وئيد جمعت ومنعت حتى اذا بلغت التراقي قلت
اتصدق واني اوان الصدقة وقال النبي صلى الله عليه وسلم اذا مشت امتي المطيطا وخدمتهم فارس
والروم سلط بعضهم على بعض قال ابن الاعرابي هي مشية فيها اختيال وقال صلى الله عليه وسلم من تعظم
في نفسه واختال في مشيته لقي الله تعالى وهو عليه غضبان **الآثار** عن ابي بكر الهذلي قال

بينما نحن مع الحسن اذ مرّ علينا ابن الاهيم يريد المقصورة وعليه جباب خز وقد نضد بعضها فوق بعض على
ساقه وانفرج عنها قباؤه وهو يمشي يتبختر اذ نظر اليه الحسن نظرة فقال اف اف شامخ بانفه ثاني عطفه
مصعر خده ينظر في عطفيه اي حميق ينظر في عطفيه في نعم غير مشكورة ولا مذكورة غير الماخوذ بامر
الله فيها ولا المؤدي حق الله منها والله ان يمشي احدهم طبيعته ان يتخلج تخلج المجنون في كل عضو من
اعضائه لله نعمه وللشيطان لعنة فسمع ابن الاهيم قوله فرجع يعتذر اليه فقال لا تعتذر الي وتب الى ربك
اما سمعت قول الله تعالى ولا تمش في الارض مرحا انك لن تخرق الارض ولن تبلغ الجبال طولا ومرّ بالحسن
شاب له بزة حسنة فدعاه فقال ابن آدم معجب بشبابه معجب بجماله كان القبر قد وارى بدنك وكانك قد
لاقيت عملك ويحك داو قلبك فان حاجة الله الى العباد صلاح قلوبهم وروي ان عمر بن عبد العزيز
حج قبل ان يستخلف فنظر اليه طاوس وهو يختال في مشيته فغمز جنبه باصبعه ثم قال
ليست هذه مشية من في بطنه خرء فقال عمر كالمعتذر يا عم لقد ضرب كل عضو مني على هذه
المشية حتى تعلمتها ورأى محمد بن واسع ولده يختال فدعاه فقال تدري من انت اما امك فاشتريتها
بمائتي درهم واما ابوك فلا كثر الله في المسلمين مثله ورأى عمر رجلا يجر ازاره فقال ان للشيطان اخوانا
كررها مرتين او ثلاثا وروي ان مطرف بن عبد الله بن الشخير رأى المهلب وهو يتبختر في جبة
خز فقال يا ابا عبد الله هذه مشية يبغضها الله ورسوله فقال له المهلب اما تعرفني فقال بلى
اعرفك اولك نطفة مذرة وآخرك جيفة قذرة وتحمل بين جنبيك عذرة فمضى المهلب وترك مشيته
تلك وقال مجاهد في قوله جل اسمه ثم ذهب الى اهله يتمطى اي يتبختر واذ ذكرنا ذم الكبر والاختيال
فلنذكر فضل التواضع **بيان فضيلة التواضع** قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما زاد الله عبدا بعفو
الا عزا وما تواضع احد لله الا رفعه الله وقال صلى الله عليه وسلم ما من احد الا ومعه ملكان وعليه حكمة يمسكانه
فان هو رفع نفسه جبذاها ثم قالا اللهم ضعه فان وضع نفسه قالا اللهم ارفعه وقال صلى الله عليه وسلم
طوبى لمن تواضع في غير مسكنة وانفق مالا جمعه من غير معصية ورحم اهل الذل والمسكنة وخالط
اهل الفقه والحكمة وعن ابي سلمة المديني عن ابيه عن جده قال كان صلى الله عليه وسلم عندنا
بقباء وكان صائما فاتيناه عند افطاره بقدح من لبن وجعلنا فيه شيئا من عسل فلما رفعه وذاقه
وجد حلاوة العسل فقال ما هذا فقلنا يا رسول الله جعلنا فيه شيئا من عسل فوضعه وقال اما
اني لا احرمه ومن تواضع لله رفعه الله ومن تكبر وضعه الله ومن اقتصد اغناه الله ومن بذر افقره الله ومن
اكثر ذكر الله احبه الله وروي ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان في نفر من اصحابه في بيته ياكلون فقام سائل

على الباب ويبرز مانه يكن منها فاذن له فلما دخل اجلسه رسول الله صلى الله عليه وسلم على مجده ثم قال اطعم
وكان رجلا من قريش اشمأز منه وكرهه فما مات ذلك الرجل حتى كانت به زمانة منها فقال عليه السلم
خيرني ربي بين امرين عبدا رسولا او ملكا نبيا فلم ادر ايهما اختار وكان صفيي من الملايكه جبرئيل
فرفعت راسي فقال تواضع لربك فقلت عبدا رسولا واوحى الله تعالى الى موسى بن عمران عليه السلم
انما اقبل صلاة من تواضع لعظمتي ولم يتعظم على خلقي والزم قلبه خوفي وقطع النهار بذكري وكف
نفسه عن الشهوات من اجلي وقال صلى الله عليه وسلم الكرم التقوى والشرف التواضع واليقين الغنى قال
علي عليه السلم طوبى للمتواضعين في الدنيا هم اصحاب المنابر يوم القيمه طوبى للمصلحين بين
الناس في الدنيا هم الذين يرثون الفردوس يوم القيمه طوبى للمطهرة قلوبهم في الدنيا هم الذين ينظرون
الى الله عز وجل يوم القيمه وقال بعضهم بلغني ان النبي صلى الله عليه وسلم قال اذا هدى الله عبدا للاسلام وحسن
صورته وجعله في موضع غير شاين له ورزقه مع ذلك تواضعا فذلك من صفوة الله وقال صلى الله عليه وسلم
اربع لا يعطيهن الله الا من احب الصمت وهو اول العبادة والتوكل على الله والتواضع والزهد في الدنيا
وقال ابن عباس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا تواضع العبد رفعه الله الى السماء السابعة وقال
صلى الله عليه وسلم ان التواضع لا يزيد العبد الا رفعه فتواضعوا يرحمكم الله وروي ان رسول الله صلى الله
عليه وسلم كان يطعم فجاء اسود به جدري قد تقشر فجعل لا يجلس الى احد الا قام من جنبه فاجلسه
النبي صلى الله عليه وسلم الى جنبه وقال انه ليعجبني ان يحمل الرجل الشي في يده يكون مهناة لاهله
يدفع به الكبر عن نفسه وقال صلى الله عليه وسلم لاصحابه مالي لا ارى عليكم حلاوة العبادة قالوا وما
حلاوة العبادة قال التواضع وقال صلى الله عليه وسلم اذا رايتم المتواضعين من امتي فتواضعوا لهم
واذا رايتم المتكبرين فتكبروا عليهم فان ذلك لهم مذلة وصغار الآثار قال عمر رضي الله عنه ان
العبد اذا تواضع لله رفع الله حكمته وقال انتعش رفعك الله واذا تكبر وعدا طوره رهصه الله الى الارض
وقال اخشع خشعك الله وهو في نفسه كبير وفي اعين الناس حقير حتى انه لاحقر عندهم من الخنزير
وقال جرير بن عبد الله انتهيت مرة الى شجرة تحتها رجل نايم قد استظل بنطع له وقد جاوزت الشمس
النطع فسويته عليه ثم ان الرجل استيقظ فاذا هو سلمان الفارسي فذكرت له ما صنعت فقال
يا جرير تواضع لله في الدنيا فانه من تواضع لله في الدنيا رفعه الله يوم القيمه يا جرير اتدري ما ظلمة
النار يوم القيمه قلت لا قال فانه ظلم الناس بعضهم بعضا في الدنيا وقالت عايشه رضي الله عنها
انكم لتغفلون عن افضل العبادة التواضع وقال يوسف بن اسباط يجزي قليل الورع من كثير العمل

ويجزي قليل التواضع من كثير الاجتهاد وقال الفضيل وقد سئل عن التواضع هو ان تخضع للحق وتنقاد
له ولو سمعته من صبي قبلته منه ولو سمعته من اجهل الناس قبلته وقال ابن المبارك راس
التواضع ان تضع نفسك عند من دونك في نعمة الدنيا حتى تعلمه ان ليس لك بدنياك عليه فضلا
وان ترفع نفسك على من هو فوقك في الدنيا حتى تعلمه ان ليس له بدنياه عليك فضلا وقال قتادة
من اعطي مالا او جمالا او ثيابا او علما ثم لم يتواضع فيه كان عليه وبالا يوم القيمة وقيل اوحى الله
الى عيسى عليه السلم اذا انعمت عليك بنعمة فاستقبلها بالاستكانة اتممها عليك وقال كعب ما
انعم الله على عبد من نعمة في الدنيا فشكرها الله وتواضع بها لله الا اعطاه الله نفعها في الدنيا ورفع
له بها درجة في الآخرة طبقا وما انعم الله على عبد من نعمة في الدنيا فلم يشكرها الله ولم يتواضع بها لله الا
منعه الله نفعها في الدنيا وفتح له طبقا من النار يعذبه ان شاء او يتجاوز عنه وقيل لعبد الملك بن
مروان اي الرجال افضل قال من تواضع عن قدرة وزهد عن قدرة وترك النصرة عن قدرة ودخل
ابن السماك على هرون الرشيد فقال يا امير المؤمنين ان امرا اتاه الله جمالا في خلقته وموضعا في
حسبه وبسط له في ذات يده فعف في جماله وواسا في ماله وتواضع في حسبه كتب في ديوان الله
تعالى من خالص اولياء الله فدعى هرون بدواة وقرطاس وكتبه بيده وكان سليمان بن داود عليهما
السلم اذا اصبح تصفح وجوه الاغنياء والاشراف حتى يجي الى المساكين فيقعد عندهم ويقول
مسكين مع مساكين وقال بعضهم كما تكره ان يراك الاغنياء في الثياب الدون فكذلك
الفقراء في الثياب الرفيعة ويروي انه خرج يونس وايوب والحسن يتذاكرون التواضع فقال لهم
الحسن اتدرون ما التواضع التواضع ان تخرج من منزلك ولا تلقى مسلما الا رايت له عليك فضلا
وقال مجاهد ان الله تعالى لما اغرق قوم نوح شمخت الجبال وتطاولت وتواضع الجودي فرفعه الله
تعالى فوق الجبال وجعل قرار السفينة عليه وقال ابو سليمان ان الله عز وجل اطلع على قلوب
الآدميين فلم يجد قلبا اشد تواضعا من قلب موسى عليه السلام فخصه منه بالكلام وقال
يونس بن عبيد وقد انصرف من عرفات لم اشك في الرحمة لولا اني كنت معهم اني اخشى انهم حرموا بسببي
وقيل ارفع ما يكون المؤمن عند الله اوضع ما يكون عند نفسه واوضع ما يكون عند الله تعالى ارفع
ما يكون عند نفسه وقال زياد النميري الزاهد بغير تواضع كالشجرة التي لا تثمر وقال مالك بن دينار لو
ان مناديا ينادي بباب المسجد ليخرج شركم رجلا ما لله ما كان يسبقني احد الى الباب الا رجل بفضل
قوة او سعي قال فلما بلغ ابن المبارك قوله قال بهذا صار مالك مالكا وقال الفضيل من احب الرياسة

لم يفلح ابدا وقال موسي بن القسم كانت عندنا زلزلة وريح حمرا فذهبت الي محمد بن مقاتل فقلت يا
باعبد الله انت امامنا فادع الله لنا فبكا ثم قال ليتني لم اكن سبب هلاككم قال فرايت النبي صلعم
في النوم فقال ان الله عز وجل دفع عنكم بدعاء محمد بن مقاتل وجاء رجل الي الشبلي فقال له ما انت
وكان هذا دابه وعادته فقال له انا النقطة التي تحت البا فقال له الشبلي اباد الله شاهدك
او تجعل لنفسك مكانا وقال الشبلي في بعض كلامه ذلي عطل ذل اليهود ومن راي لنفسه قيمة
فليس له من التواضع نصيب وعن الفتح بن شخرف قال رايت علي ابن ابي طالب رضه في المنام فقلت له
يا ابا الحسن عظني فقال ما احسن التواضع بالاغنياء في مجالس الفقراء رغبة منهم في ثواب الله تعالى
واحسن من ذلك تيه الفقراء علي الاغنياء ثقة منهم بما عند الله تعالي وقال ابو سليمان لا يتواضع
العبد حتي يعرف نفسه وقال ابو يزيد ما دام العبد يظن ان في الخلق من هو شر منه وهو متكبر وقيل
متي يكون متواضعا قال اذا لم ير لنفسه مقاما ولا حالا وتواضع كل انسان علي قدر معرفته بربه عز وجل
ومعرفته بنفسه وقال ابو سليمان لو اجتمع الخلق علي ان يضعوني كاتضاعي في نفسي ما قدروا
عليه وقال عروة بن الورد التواضع احد مصايد الشرف وكل نعمة محسود عليها صاحبها الا التواضع
وقال يحيى بن خالد البرمكي الشريف اذا تنسك تواضع والسفيه اذا تنسك تعاظم وقال يحيى بن معاذ
التكبر علي ذي التكبر عليك بماله تواضع ويقال التواضع في الخلق كلهم حسن وفي الاغنياء
احسن والتكبر في الخلق كلهم قبيح وفي الفقراء اقبح ويقال لا عز الا لمن يذلل لله عز وجل ولا رفعة
الا لمن تواضع لله عز وجل ولا امن الا لمن يخاف الله عز وجل ولا ربح الا لمن ابتاع نفسه من الله عز وجل
وقال ابو علي الجوزجاني النفس معجونة بالكبر والحرص والحسد فمن اراد الله تعالى هلاكه منع منه
التواضع والنصيحة والقناعة واذا اراد الله تعالي به خيرا فاذا هاجت في نفسه نار الكبر ادركها التواضع
مع نصرة الله تعالي فاذا هاجت نار الحسد ادركها النصيحة مع توفيق الله عز وجل فاذا هاجت في
نفسه نار الحرص ادركتها القناعة مع عون الله عز وجل وعن الجنيد انه كان يقول يوم الجمعة
في مجلسه لولا انه روي عن النبي صلي الله عليه وسلم انه قال يكون في آخر الزمان زعيم القوم ارذلهم
ما تكلمت عليكم وقال الجنيد التواضع عند اهل التوحيد تكبر ولعل مراده ان المتواضع يثبت نفسه
ثم يضعها والموحد لا يثبت نفسه ولا يراها شيا حتي يضعها او يرفعها وعن عمرو بن شيبه قال
بمكة بين الصفا والمروة فرايت رجلا بغلة وبين يديه غلمان واذا هم يعنفون الناس قال ثم عدت
بعد حين فدخلت بغداد فكنت علي الجسر فاذا انا برجل حاف حاسر طويل الشعر قال فجعلت انظر

اليه وانا معه فقال لي مالك انظر الي فقلت له شبهتك برجل رايت صفته و وصفت له الصفة فقال
انا ذلك الرجل فقلت ما فعل الله بك فقال اني ترفعت في موضع يتواضع فيه الناس فوضعني الله حيث
يرتفع فيه الناس وقال المغيرة كنا نهاب ابرهيم النخعي هيبة الامير وكان يقول زمانا صرت فيه فقيه الكوفة
لزمان سوء وكان عطاء السلمي اذا سمع صوت الرعد قام وقعد واخذ بطنه كانه امراة ماخض ويقول
هذا من اجلي يصيبكم لو مات عطاء لاستراح الناس وكان بشر الحافي يقول سلموا على ابناء الدنيا
بترك السلام عليهم ودعا رجل لعبد الله بن المبارك فقال اعطاك الله ما ترجوه فقال ان الرجاء يكون
بعد المعرفة فاين المعرفة وتفاخرت قريش عند سلمان رضي الله عنه يوما فقال سلمان لكني خلقت
من نطفة قذرة ثم اعود جيفة منتنة ثم الي الميزان فان ثقل فاني كريم فان خف فانا ليم وقال
ابو بكر رضي الله عنه وجدنا الكرم في التقوي والغني في اليقين والشرف في التواضع بيان حقيقة
الكبر وآفته اعلم ان الكبر ينقسم الي باطن وظاهر فالباطن هو خلق في النفس والظاهر هو اعمال
تصدر عن الجوارح واسم الكبر بالخلق الباطن احق واما الاعمال فانها ثمرات لذلك الخلق وخلق
الكبر هو موجب للاعمال ولذلك اذا ظهر علي الجوارح يقال تكبر واذا لم يظهر يقال في نفسه كبر فالاصل
هو الخلق الذي في النفس وهو الاسترواح والركون الي روية النفس فوق المتكبر عليه فان الكبر
يستدعي متكبرا عليه ومتكبرا به وبه ينفصل الكبر عن العجب كما سياتي فان العجب لا يستدعي غير
المعجب بل لو لم يخلق الانسان الا وحده تصور ان يكون معجبا ولا يتصور ان يكون متكبرا وهو ان يري
نفسه فوق ذلك الغير في صفات الكمال فعند ذلك يكون متكبرا ولا يكفي ان يستعظم نفسه ليكون
متكبرا فانه قد يستعظم نفسه ولكن يري غيره افضل من نفسه او مثل نفسه فلا يتكبر عليه ولا يكفي
ان يستحقر غيره فانه مع ذلك لو راي نفسه احقر لم يتكبر ولو راي غيره مثل نفسه لم يتكبر بل ينبغي
ان يري لنفسه مرتبة ولغيره مرتبة ثم يري مرتبة نفسه فوق مرتبة غيره فعند هذه الاعتقادات
الثلاث يحصل فيه خلق الكبر لا ان هذه الروية هي الكبر بل هذه الروية وهذه العقيدة تنفخ فيه
فيحصل في قلبه اعتداد وهزة وفرح وركون الي ما اعتقده وعز في نفسه بسبب ذلك فتلك العزة
والهزة والركون الي المعتقد هو خلق الكبر فلذلك قال صلى الله عليه وسلم اعوذ بك من نفخة الكبرياء
ولذلك قال عمر رضي الله عنه اخشي ان تنتفخ حتي تبلغ الثريا للذي استاذنه ان يعظ بعد صلاة
الصبح فكان الانسان مهما راي نفسه بهذه العين وهو الاستعظام تكبر وانتفخ وتعزز فالكبر عبارة
عن الحالة الحاصلة في النفس من هذه الاعتقادات وتسمي ايضا عزة وتعظما ولذلك قال ابن

عباس في قوله تعالى ان في صدورهم الا كبر ما هم ببالغيه قال عظمة لم يبلغوها ففسر الكبر بتلك العظمة
ثم هذه العزة تقتضي اعمالا في الظاهر والباطن هي ثمرات ويسمى ذلك تكبرا فانه مهما عظم عنده قدره
بالاضافة الي غيره حقر من دونه وازدراه واقصاه عن نفسه وابعده وترفع عن مجالسته ومواكلته
ورأى ان حقه ان يقوم ماثلا بين يديه ولا الحرمة عينه فان ذلك دون ذلك فيانف من مساواته
وتقدم عليه في مضايق الطرق وارتفع عليه في المجالس وانتظر ان يبدأه بالكلام واستبعد ان
قصر في قضاء حوائجه وتعجب منه وان حاج او ناظر انف ان يرد عليه وان وعظ استنكف من
القبول وان وعظ عنف في النصح وان رد عليه شي من قوله غضب وان علم لم يرفق بالمتعلمين
واستذلهم وانتهرهم وامتن عليهم واستخدمهم وينظر الي العامة كانه ينظر الي الحمير استجهالا لهم
واستحقارا والاعمال الصادرة من خلق الكبر كثيرة وهي اكثر من ان تحصى فلا حاجة الي احصائها
فانها مشهورة فهذا هو الكبر وآفته عظيمة وغائلته هائلة وفيه تهلك الخواص من الخلق وقل
ما ينفك عنه العباد والزهاد والعلماء فضلا من عوام الناس وكيف لا تعظم آفته وقد قال
عليه السلام لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر وانما صار حجابا عن الجنة لانه يحول بين
العبد وبين اخلاق المومنين كلها وتلك الاخلاق هي ابواب الجنة والكبر وعزة النفس يغلق تلك
الابواب كلها لانه لا يقدر على ان يحب للمومنين ما يحبه لنفسه وفيه شي من العز ولا يقدر على
التواضع وهو راس اخلاق المتقين وفيه العز ولا يقدر على ترك الحقد وفيه العز ولا يقدر على
ان يدوم على الصدق وفيه العز ولا يقدر على ترك الحسد وفيه العز ولا يقدر على ترك الغضب
وفيه العز ولا يقدر على كظم الغيظ وفيه العز ولا يقدر على النصح اللطيف وفيه العز ولا يقدر
على قبول النصح وفيه العز ولا يسلم من الازدراء بالناس ومن اغتيابهم وفيه العز ولا معنى
للتطويل فما من خلق ذميم الا وصاحب الكبر والعز مضطر اليه ليحفظ به عزه وما من خلق محمود الا
وهو عاجز عنه خوفا من ان يفوته عزه فمن هذا لم يدخل الجنة من في قلبه مثقال حبة منه
والاخلاق الذميمة متلازمة والبعض منها داع الي البعض لا محالة وشر انواع الكبر ما يمنع من
استفادة العلم وقبول الحق والانقياد له وفيه وردت الآيات التي فيها ذم المتكبرين قال
الله تعالى ادخلوا ابواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين ثم اخبر ان اشد اهل النار
عذابا اشدهم عتيا على الله فقال تعالى ثم لننزعن من كل شيعة ايهم اشد على الرحمن عتيا
وقال تعالى والذين لا يومنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون وقال تعالى فقال الله

استضعفوا للذين استكبروا لولا انتم لكنا مومنين وقال تعالي ان الذين يستكبرون عن عبادي
سيدخلون جهنم داخرين وقال تعالي ساصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الارض بغير الحق
قيل في التفسير سارفع فهم القرآن عن قلوبهم وفي بعض التفاسير ساحجب قلوبهم
عن الملكوت قال ابن جريج ساصرفهم عن ان يتفكروا فيها ويعتبروا بها ولذلك قال عيسى عليه
ان الزرع ينبت في السهل ولا ينبت علي الصفى كذلك الحكمة يعمر في قلب المتواضع ولا يعمر
في قلب المتكبر الا ترون انه من شمخ براسه الي السقف شجه ومن طاطا اظله واكنه وهذا
مثل ضربه للمتكبرين وانهم كيف يحرمون الحكمة ولذلك ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم جحود
الحق في حد الكبر والكشف عن حقيقته وقال من سفه الحق وغمص الناس بيان
المتكبر عليه واقسامه ودرجاته وثمرات التكبر فيه اعلم ان المتكبر عليه هو الله او رسوله او
ساير الخلق وقد خلق الانسان ظلوما جهولا فتارة يتكبر على الخلق وتارة علي الخالق فاذن
التكبر باعتبار المتكبر عليه ثلاثة اقسام القسم الاول التكبر على الله تعالي وذلك هو
افحش انواع التكبر ولا مثار له الا الجهل المحض والطغيان مثل ما كان من نمرود بن كنعان
فانه كان يحدث نفسه بان يقاتل رب السماء وكما يحكى عن جماعة من الجهلة بل ما يحكى
عن كل من ادعا الربوبية مثل فرعون وغيره فانه لتكبره قال انا ربكم الاعلى اذ استنكف
ان يكون عبدا لله ولذلك قال تعالى ان الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم
داخرين وقال تعالي لن يستنكف المسيح ان يكون عبدا لله ولا الملايكة المقربين ومن يستنكف
عن عبادته ويستكبر الآية وقال تعالي واذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن انسجد
لما تامرنا وزادهم نفورا القسم الثاني التكبر على الرسل من حيث تعزز النفس وترفعها
عن الانقياد لبشر مثل ساير الناس وذلك تارة يصرف عن الفكر والاستبصار فيبقى في ظلمة
الجهل بكبره فيمتنع عن الانقياد وهو ظان انه محق فيه وتارة يمتنع مع المعرفة ولكن لا تطاوعه
نفسه الانقياد للحق والتواضع للرسول كما حكى الله تعالي عن قولهم انومن لبشرين مثلنا اي
ان انتم الا بشر مثلنا ولين اطعتم بشرا مثلكم انكم اذا لخاسرون وقالوا لولا انزل علينا الملايكة
او نرى ربنا لقد استكبروا في انفسهم وقالوا لولا انزل عليه ملك وقال فرعون او جا معه الملايكة
مقترنين قال الله تعالي فاستكبر هو وجنوده في الارض بغير الحق فتكبر هو على الله وعلى رسله جميعا
قال وهب قال له موسى عليه السلام آمن ولك ملكك قال حتى اشاور هامان فشاور هامان

فقال ربنا انت رب بعد اذ صرت عبدا تعبد فاستنكف من عبودية الله ومن اتباع موسى عليه
وقالت قريش لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم قال قتادة الوليد بن المغيرة
وابو مسعود الثقفي طلبوا من هو اعظم رياسة من النبي صلى الله عليه وسلم اذ قالوا غلام
يتيم كيف بعثه الله تعالى الينا فقال تعالى اهم يقسمون رحمة ربك وقال تعالى اهؤلاء من الله
عليهم من بيننا اي استحقارا لهم واستبعادا لتقدمهم وقالت قريش كيف نجلس عندك
وعندك هؤلاء اشاروا الى فقراء المسلمين فازدروهم باعينهم وتكبروا عن مجالستهم فانزل الله تعالى
ولا تطرد الذين يدعون ربهم الآية ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحيوة الدنيا واخبر الله تعالى
عن تعجبهم حين دخلوا جهنم اذ لم يروا الذين ازدروهم فقالوا ما لنا لا نرى رجالا كنا نعدهم
من الاشرار قيل يعني عمارا وبلالا وصهيبا والمقداد رضي الله عنهم ثم كان منهم من منعه الكبر
عن الفكر والمعرفة فجهل كونه صلى الله عليه وسلم محقا ومنهم من عرف ومنعه الكبر عن الاعتراف
قال تعالى فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به وقال تعالى وجحدوا بها واستيقنتها انفسهم ظلما وعلوا
وهذا الكبر قريب من التكبر على الله وان كان دونه ولكنه تكبر على قبول امر الله والتواضع لرسوله
القسم الثالث التكبر على العباد وذلك بان يستعظم نفسه ويستحقر غيره فتابى نفسه
عن الانقياد لهم وتدعوه الى الترفع عليهم فيزدريهم ويستصغرهم ويانف من مساواتهم وهذا وان
كان دون الاول والثاني فهو ايضا عظيم من وجهين احدهما ان الكبر والعز والعظمة والعلاء
لا يليق الا بالملك القادر فاما العبد المملوك الضعيف العاجز الذي لا يقدر على شيء فمن اين
يليق به الكبر فمهما تكبر العبد فقد نازع الله تعالى في صفة لا تليق الا بجلاله ومثاله ان ياخذ
الغلام قلنسوة الملك فيضعها على راسه ويجلس على سريره فما اعظم استحقاقه للمقت وما اعظم
تهدفه للنكال والخزي وما اشد استجراءه على مولاه وما اقبح ما تعاطاه والى هذا المعنى الاشارة
بقوله تعالى العظمة ازاري والكبرياء ردائي فمن نازعني فيهما قصمته اي انه خاص صفتي ولا يليق
الا بي والمنازع فيه منازع في صفة من صفاتي واذا كان المتكبر على عباده لا يليق الا به فمن
تكبر على عباده فقد جنى عليه اذ الذي يسترذل خواص غلمان الملك ويستخدمهم ويترفع عليهم ويستاثر بما
حق الملك ان يستاثر به منهم فهو منازع له في بعض امره وان لم يبلغ درجته درجة من اراد
الجلوس على سريره والاستبداد بملكه والخلق كلهم عباد الله وله العظمة والكبرياء عليهم فمن تكبر
على عبد من عباده فقد نازع الله نعم الفرق بين هذه المنازعة وبين منازعة نمرود وفرعون

ماهو الفرق بين منازعة الملك في استصغار بعض عبيده واستخدامهم وبين منازعته في اصل الملك
الوجه الثاني الذي يعظم به رذيلة الكبر انه يدعوا الي مخالفة الله تعالي في اوامره لان المتكبر اذا سمع
الحق من عبد من عباد الله تعالي استنكف من قبوله وتشمر لجحده ولذلك تري المناظرين في مسايل
الدين يزعمون انهم يتباحثون في اسرار الدين ثم انهم يتجاحدون تجاحد المتكبرين ومهما اتضح الحق
علي لسان واحد منهم انف الاخر من قبوله وتشمر لجحده واحتال لدفعه بما يقدر عليه من التلبيس وذلك
من اخلاق الكافرين والمنافقين اذ وصفهم الله تعالي فقال وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القران
والغوا فيه لعلكم تغلبون فكل من يناظر للغلبة والافحام لا ليغتنم الحق اذا ظفر به فقد شاركهم
في جحد الحق وكذلك يحمل ذلك علي الانفة من قبول الواعظ كما قال تعالي واذا قيل له اتق الله اخذته
العزة بالاثم وروي عن عمر رحمه الله انه قراها فقال انا لله وانا اليه راجعون قال رجل فامر بالمعروف
فقتل فقام اخر وقال يقتلون الذين يامرون بالقسط من الناس فقتل المتكبر الذي خالفه
والذي امره كبرا وقال ابن مسعود كفي بالرجل اثما اذا قيل له اتق الله قال عليك نفسك وقال صلي
الله عليه وسلم لرجل كل بيمينك فقال لا استطيع فقال النبي صلي الله عليه وسلم لا استطعت فما منعه
الا الكبر فقيل ما رفعها بعد ذلك اي اعتلت يده فاذا تكبره علي الخلق عظيم لانه سيدعوه الي التكبر
علي امر الله تعالي وانما ضرب ابليس مثلا لهذا وما حكي احواله الا ليعتبر به فانه قال انا خير منه
وهذا الكبر بالنسب لانه قال خلقتني من نار وخلقته من طين فحمله ذلك علي ان يمتنع من السجود
الذي امره الله تعالي وكان ذلك سبب هلاكه ابد الاباد فكان مبداه الكبر علي ادم والحسد له
فجره ذلك علي التكبر علي امر الله تع فهذه افة من افات الكبر علي العباد عظيمه ولذلك شرح رسول
الله صلي الله عليه وسلم بهما بين الاسين اذ ساله ثابت بن قيس بن شماس فقال يا رسول الله اني
امرء قد حبب الي من الجمال ما تري افمن الكبر قال صلي الله عليه وسلم لا ولكن الكبر من بطر الحق وغمص
الناس وفي حديث اخر من سفه الحق وقوله غمص الناس اي ازدراهم واستحقرهم وهم
عباد الله امثاله او خير منه وهذه الافة الاولي وسفه الحق هو رده وهي الافة الثانيه فكل
من راي انه خير من اخيه واحتقر اخاه وازدراه ونظر اليه بعين الاستصغار او رد الحق وهو
يعرفه فقد تكبر فيما بينه وبين الخلق ومن انف ان يخضع لله ويتواضع له بطاعته واتباع
رسله فقد تكبر بينه وبين الله والرسل **بيان ما به التكبر** اعلم انه لا يتكبر الا من استعظم
نفسه ولا يستعظمها الا وهو يعتقد لها صفة من صفات الكمال ومجامع ذلك ترجع الي كمال ديني

او دنياوي والديني هو العلم والعمل والدنيوي هو النسب والجمال والقوة والمال وكثرة الانصا د
وهذه سبعة اسباب السبب الاول العلم وما اسرع الكبر الي العلماء ولذلك قال عليه السلم
آفة العلم الخيلاء فلا يلبث العالم ان يتعزز بعز العلم ويستشعر في نفسه جمال العلم وكماله ويستعظم
نفسه ويستحقر الناس وينظر اليهم نظره الي البهايم ويستجهلهم ويتوقع ان يبداوه بالسلام فان
بدا احدا منهم بالسلام او رد عليه ببشر او قام له او اجاب له دعوة راي ذلك صنيعه عنده ويدا
عليه يلزمه شكرها واعتقد انه اكرمهم وفعل بهم ما لا يستحقون من مثله وانه ينبغي ان يرقون
له ويخدمونه شكرا له علي صنيعه بل الغالب انهم يبرونه ويزورونه ولا يزورهم ويعودونه ولا
يعودهم ويستخدم من خالطه منهم ويستسخره في حوايجه فان قصر فيه استنكره كانهم
عبيده او اجراوه وكان تعليمه العلم صنيعه منه لذته ومعروف اليه او استحقاق حق عليهم هذا
فيما يتعلق بالدنيا اما في امر الآخرة فتكبره عليهم بان يري نفسه عند الله اعلا وافضل منهم فيخاف
عليهم اكثر مما يخاف علي نفسه ويرجو لنفسه اكثر مما يرجو لهم وهذا بان يسمي جاهلا اولي من
ان يسمي عالما بل العلم الحقيقي هو الذي يعرف به الانسان نفسه وربه وخطر الخاتمة وحجة الله
تعالي علي العلماء وعظم خطر العلم فيه كما سياتي في طريق معالجة الكبرياء بالعلم وهذه العلوم
يزيد خوفا متواضعا وتخشعا ويقتضي ان يري الناس خيرا منه بعظم حجة الله عليه بالعلم وتقصيره
في القيام بشكر نعمة العلم ولهذا قال ابو الدرداء من ازداد علما ازداد وجعا وهو كما قال فان قلت
فما بال بعض الناس يزداد بالعلم كبرا وامنا فاعلم ان له سببين احدهما ان يكون اشتغاله بما يسمي
علما وليس بعلم حقيقي وانما العلم الحقيقي ما يعرف العبد نفسه وربه وخطر امره في لقاء الله والحجاب
منه وهذا يورث الخشية والتواضع دون الكبر والامن قال الله انما يخشي الله من عباده العلماء فاما
ما وراء ذلك كعلم الطب والحساب واللغة والشعر والنحو وفصل الخصومات وطرق المجادلات
فاذا تجرد الانسان لها حتى امتلا بها كبرا ونفاقا وهذه بان تسمي صناعات اولي بان تسمي علوما
بل العلم هو معرفة العبودية والربوبية وطريق العبادة وهذا يورث التواضع غالبا السبب الثاني
ان يخوض العبد في العلم وهو خبيث الدخلة ردي النفس سيء الخلق فلم يشتغل اولا بتهذيب
نفسه وتزكية قلبه بانواع المجاهدات ولم يرض نفسه في عبادة ربه فبقي خبيث الجوهر فاذا خاض
في العلم اي علم كان صادف العلم من قلبه منزلا خبيثا فلم يطب ثمره ولم يظهر في الخير اثره وقد
ضرب وهب رحمه الله عليه لهذا مثلا فقال العلم كالغيث ينزل من السماء حلوا صافيا فتشربه الاشجا د

بعروقها فتحوله على قدر طعومها فيزداد المر مرارة والحلو حلاوة وكذلك العلم تحفظه الرجال فتحوله على قدر
هممها واهوائها فيزيد المتكبر كبرا وهذا لان من كانت همته الكبر وهو جاهل فاذا حفظ العلم وجد ما يتكبر
به فازداد كبرا واذا كان الرجل خايفا مع جهله فاذا ازداد علما علم ان الحجة قد تاكدت عليه وازداد خوفا
واشفاقا وذلا وتواضعا والعلم من اعظم ما يتكبر به ولاجل ذلك قال الله تعالى لنبيه عليه السلم واخفض
جناحك لمن اتبعك من المومنين وقال ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ووصف اولياءه
فقال تعالى اذلة على المومنين اعزة على الكافرين ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه العباس
يكون قوم يقرءون القران لا يجاوز حناجرهم يقولون قد قرانا القران فمن اقرا منا ومن اعلم منا ثم التفت الى
اصحابه فقال اوليك منكم ايها الامة اوليك هم وقود النار ولذلك قال عمر رضي الله عنه لا تكونوا جبابرة العلما
فلا يفي علمكم بجهلكم ولذلك استاذن تميم الداري عمر رضي الله عنهما في القصص فابى ان ياذن له وقال
انه الذبح واستاذنه رجل كان امام قومه ان اذا سلم من صلاته ذكرهم فقال اني اخاف ان تنتفخ
فتبلغ الثريا وصلى حذيفة بقوم فلما سلم قال لتلتمسن اماما غيري او لتصلن وحدانا اني رايت
في نفسي انه ليس في القوم افضل مني فاذا كان مثله لا يسلم فكيف يسلم الضعفاء من متاخري
هذه الامة فما اعز على بسيط الارض عالم يستحق ان يقال انه عالم ثم انه لا يحركه عز العلم وخيلاوه
فان وجد ذلك فهو صديق زمانه فلا ينبغي ان يفارق بل يكون النظر اليه عبادة فضلا عن الاستفادة
من انفاسه واحواله ولو عرفنا ذلك ولو في اقصى الصين لسعينا اليه رجاء ان تشملنا بركته
وتسري الينا سيرته وسجيته وهيهات فانى يسمح اخر الزمان بمثلهم فهم ارباب الاقبال واصحاب
الدول وقد انقرضوا في القرن الاول ومن يليهم بل يعز في زماننا عالم يختلج في نفسه الاسف
والحزن على فوات هذه الخصلة فذلك ايضا اما معدوم واما عزيز ولولا بشارة رسول الله صلى الله
عليه وسلم بقوله سياتي على الناس زمان من تمسك بعشر ما انتم عليه نجا لكان جديرا بنا ان نقتحم
والعياذ بالله ورطة الياس والقنوط مع ما نحن عليه من سوء اعمالنا ومن لنا ايضا بالتمسك بعشر
ما كانوا عليه وليتنا تمسكنا بعشر عشيره فنسال الله تعالى ان يعاملنا بما هو اهله وان يستر علينا
قبايح اعمالنا كما يقتضيه كرمه وفضله الثاني العمل والعبادة وليس يخلو عن رذيلة العز والكبر واستمالة
قلوب الناس الزهاد والعباد ويترشح الكبر عندهم في الدين والدنيا اما الدنيا فهو انهم يرون غيرهم
بزيارتهم اولى منهم بزيارة غيرهم ويتوقعون قيام الناس بقضاء حوايجهم وتوقيرهم والتوسع
لهم في المجالس وذكرهم بالورع والتقوى وتقديمهم على ساير الناس في الحظوظ الى جميع ما ذكرنا في حق

العلماء وكانهم يرون عبادتهم منة علي الخلق واما في الدين فهو انه يري الناس هالكين ويري نفسه ناجيا
وهو الهالك تحقيقا مهما راي ذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم اذا سمعتم الرجل يقول هلك الناس فهو اهلكهم
وانما قال ذلك لان هذا القول يدل على انه مزدري بخلق الله مغتر بالله امن من مكره غير خايف من
سطوته وكيف لا يخاف ويكفيه شرا احتقاره لغيره قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمرء شرا ان يحقر
اخاه المسلم وكم من الفرق بينه وبين من يحبه لله ويعظمه لعبادته ويستعظمه ويرجو له ما لا يرجو
لنفسه فالخلق يدركون النجاة بتعظيمهم اياه لله فهم يتقربون الي الله بالدنو منه وهو يتمقت الى الله بالتنزه
والتباعد منهم كانه مترفع عن مجالستهم فما اجدرهم اذا احبوه لصلاحه ان ينقلهم الله الي درجته في
العمل وما اجدره اذا ازدراهم بعينه ان ينقله الله الي حد الاهمال كما روي ان رجلا في بني اسرايل
يقال له خليع بني اسرايل لكثرة فساده مر برجل يقال له عابد بني اسرايل وكان على راس العابد غمامة
تظله فلما مر الخليع به قال الخليع في نفسه انا خليع بني اسرايل وهذا عابد بني اسرايل فلو جلست
اليه لعل الله يرحمني فجلس اليه فقال العابد انا عابد بني اسرايل وهذا خليع بني اسرايل كيف يجلس الي
فانف منه فقال له قم عني فاوحى الله تع الى نبي ذلك الزمان مرهما فليستانفا العمل فقد غفرت للخليع واحبطت
عمل العابد وفي الحديث الاخر فتحولت الغمامة الي راس الخليع وهذا يعرفك ان الله تعالي انما يريد من العباد
قلوبهم فالجاهل والعاصي اذا تواضع وذل هيبة لله وخوفا منه فقد اطاع الله بقلبه فهو اطوع لله من
العالم المتكبر والعابد المتعجب وكذلك روي ان رجلا في بني اسرايل اتي عابدا من بني اسرايل فوطي
علي رقبته وهو ساجد فقال ارفع فوالله لا يغفر الله لك فاوحى الله تع اليه ايها المتالي علي بل انت لا
يغفر الله لك ولذلك قال الحسن والحسين ان صاحب الصوف اشد كبرا من صاحب المطرف الخز
اي ان صاحب الخز يذل لصاحب الصوف ويري الفضل له وصاحب الصوف يري الفضل لنفسه وهذه
الافة ايضا قل ما ينفك عنه العباد وهو انه لو استخف به مستخف او اذاه موذي استبعد ان يغفر الله له
ولا يشك في انه صار ممقوتا عند الله تع ولو اذا مسلما اخر لم يستنكر ذلك الاستنكار وذلك لعظم قدر نفسه
عنده وهو جهل وجمع بين العجب والكبر واغترار بالله وقد ينتهي الحمق والغباوة ببعضهم الي ان
يتحدى ويقول سترون ما يجري عليه واذا اصيب بنكبة زعم ان ذلك من كراماته وان الله ما اراد به
الا شفاء غليله والانتقام منه مع انه يري طبقات من الكفار يسبون الله ورسوله وعرف جماعة اذوا
الانبياء صلوات الله عليهم فمنهم من ضربهم ومنهم من قتلهم ثم ان الله تعالى امهل اكثرهم ولم يعاقبهم
في الدنيا بل ربما اسلم بعضهم فلم يصبه مكروه في الدنيا والاخرة ثم ان الجاهل والمغرور يظن انه

اكرم على الله من انبيائه وانه قد استقام له ما لم يستقم لانبيائه ولعله في مقت الله باعجابه وكبره وهو
غافل عن هلاك نفسه فهذه عقيدة المغترين واما الاكياس من العباد فيقولون ما كان يقوله عطا
السلمي حين كان تهب ريح او صاعقة ما يصيب الناس الا بسببي ولو مات عطا لتخلصوا وما قاله الآخر
بعد انصرافه من عرفات كنت ارجوا الرحمة لجميعهم لولا كوني فيهم فانظر الى الفرق بين الرجلين هذا
يتقي الله ظاهرا وباطنا وهو وجل على نفسه مزدر لعمله وسعيه وذاك ربما يضمر الريا والكبر والحسد
والغل ما هو ضحكة للشيطان ثم انه يمتن على الله بعمله ومن اعتقد جزما انه فوق احد من عباد الله
فقد احبط بجهله جميع عمله فان الجهل افحش المعاصي واعظم شي يبعد العبد عن الله وحكمه لنفسه
بانه خير من غيره جهل محض وامن من مكر الله تعالى ولا يامن مكر الله الا القوم الخاسرون ولذلك
روي ان رجلا ذكر بخير للنبي عليه السلام فاقبل ذات يوم فقالوا يا رسول الله هذا الذي ذكرناه لك فقال
عليه السلم اني ارى في وجهه سفعة من الشيطان فسلم ووقف على النبي واصحابه فقال له النبي
عليه السلام اسئلك بالله حدثتك نفسك ان ليس في القوم افضل منك قال اللهم نعم فراى رسول الله
صلى الله عليه وسلم بنور النبوة ما استكن في قلبه سفعة في وجهه وهذه آفة لا ينفك عنها احد من
العباد الا من عصمه الله تعالى لكن العلماء والعباد في آفة الكبر على ثلث درجات الدرجة الاولى
ان يكون الكبر مستقرا في قلبه يرى نفسه خيرا من غيره الا انه يجتهد ويتواضع ويفعل فعل من يرى
غيره خيرا من نفسه وهذا قد رسخ في قلبه شجرة الكبر ولكنه قطع اغصانها بالكلية الثانية ان يظهر ذلك
من افعاله بالترفع في المجالس والتقدم على الاقران واظهار الانكار على من يقصر في حقه وادنا
ذلك في العالم ان يصعر خده للناس كانه معرض عنهم او غضبان عليهم وفي العابد ان يعبس وجهه
ويقطب جبينه كانه متنزه عن الناس مستقذر لهم او غضبان عليهم وليس يعلم المسكين ان الورع ليس
في الجبهة حتى تقطب ولا في الوجه حتى يعبس ولا في الخد حتى يصعر ولا في الرقبة حتى تطاطا ولا في
الذيل حتى يضم انما الورع في القلوب قال صلى الله عليه وسلم انما الورع ههنا فقد كان رسول الله اكرم
الخلق واتقاهم وكان اوسعهم خلقا واكثرهم بشرا وتبسما وانبساطا ولذلك قال الحارث بن جزء الزبيدي
صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم يعجبني من القراء كل طليق مضحاك فاما الذي تلقاه ببشر ويلقاك بعبوس
يمن عليك بعمله فلا اكثر الله في المسلمين مثله ولو كان الله يرضى بذلك لما قال لنبيه صلى الله عليه وسلم
واخفض جناحك لمن اتبعك من المومنين وهولاء الذين يظهر اثر الكبر على شمايلهم واحوالهم اخف
حالا ممن هو في الرتبة الثالثة وهو الذي يظهر الكبر على لسانه حتى يدعوه الى الدعوى والمفاخرة والمباهاة

وتزكية النفس وحكايات الاحوال والمقامات والتشمر لغلبة العز في العلم والعمل اما العابد فانه يقول
في معرض التفاخر لغيره من العباد من هو وما عمله ومن اين زهده فيطول اللسان فيهم بالتنقص ثم يثني
علي نفسه ويقول اني لم افطر منذ كذا ولا انام بالليل واختم القرآن في كل يوم وفلان ينام سحرا ولا يكثر
القراءة وما يجري مجراه وقد يزكي نفسه ضمنا فيقول قصدني فلان فهلك ولده او اخذ ماله او مرض
او ما يجري مجراه تدعي الكرامة لنفسه واما مباهاته فهو ان يقول لو وقع مع قوم يصلون بالليل
قام وصلى اكثر مما كان يصلي وان كانوا يصبرون على الجوع فيكلف النفس الصبر ليغلبهم ويظهر لهم
قوته وعجزهم وكذلك يشتد في العبادة خوفا ان يقال غيره اعبد منه او اقوى منه في دين الله تعالى
اما العالم فانه يتفاخر ويقول انا متفنن في العلوم ومطلع على الحقائق ورايت من الشيوخ فلان
وفلان ومن انت وما فضلك ومالقيت وما الذي سمعت من الحديث كل ذلك ليصغره ويعظم نفسه
واما مباهاته فهو ان مجتهد في المناظرة ان يغلب ولا يغلب ويسهر طول الليل والنهار في تحصيل
علوم يتجمل بها في المحافل كالمناظرة والجدل وتحسين العبارة وتسجيع الالفاظ وحفظ العلوم
الغريبة ليغرب بها على الاقران ويتعظم عليهم ويحفظ الاحاديث والفاظها واسانيدها
حتى يرد على من اخطا فيها فيظهر فضله ونقصان غيره ويفرح مهما اخطا واحد ليرد عليه
ويسوء اذا اصاب واحسن خيفة من ان يرى انه اعظم منه فهذا كله اخلاق الكبر وآثارها
التي يثمرها التعزز بالعلم والعمل واين من يخلو عن جميع ذلك او عن بعضه فليت شعري من
عرف هذه الاخلاق من نفسه وسمع قول النبي صلى الله عليه وسلم لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال
حبة من كبر كيف يستعظم نفسه ويتكبر على غيره فهو يقول فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم من اهل
النار وانما العظيم من خلا عن هذه ومن خلا عنه لم يكن فيه تعظم وتكبر والعالم هو الذي فهم
ان الله عز وجل قال له ان لك عندنا قدرا ما لم تر لنفسك قدرا فان رايت لها قدرا فلا قدر لك عندنا
ومن لم يعلم هذا من الدين فاسم العالم عليه كذب ومن علم لزمه ان لا يتكبر ولا يرى لنفسه قدرا فهذا
هو الكبر بالعلم والعمل الثالث التكبر بالحسب والنسب فالذي له نسب شريف يستحقر من ليس له ذلك
النسب وان كان ارفع منه علما وعملا وقد يتكبر بعضهم فيرى ان الناس لهم موالي وعبيد ويانف من
مخالطتهم ومجالستهم وثمرته على اللسان التفاخر به فيقول لغيره يا نبطي ويا هندي ويا ارمني من
انت ومن ابوك وانا فلان بن فلان واين لمثلك ان يكلمني او ينظر الي ومع مثلي تتكلم وما يجري
مجراه وذلك عرق دفين في النفس لا ينفك عنه نسيب وان كان صالحا وعاقلا الا انه قد لا يترشح منه

عند اعتدال الاحوال فان غلبه غضب اطفا ذلك نور بصيرته ويترشح منه كما روي عن ابي ذر انه قال قاولت
رجلا عند النبي صلى الله عليه وسلم فقلت له يا ابن السودا فقال النبي صلى الله عليه وسلم يا ابا ذر طف الصاع
طف الصاع ليس لابن بيضا على ابن سودا فضل قال ابو ذر فاضطجعت وقلت للرجل قم فطا على خدي
فانظر كيف نبه رسول الله صلى الله عليه وسلم انه راي لنفسه فضلا لكونه ابن بيضا وان ذلك خطا
وجهل وانظر كيف تاب وكيف قلع من نفسه شجرة الكبر باخمص قدم من تكبر عليه اذ عرف ان العز
لا يقمعه الا الذل ومن ذلك ما روي ان رجلين تفاخرا عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال احدهما
للاخر انا فلان بن فلان فمن انت لا ام لك فقال النبي صلى الله عليه وسلم افتخر رجلان عند موسى
عليه الصلاة والسلام فقال احدهما انا فلان بن فلان حتى عد تسعة فاوحى الله تعالى الى موسى
عليه السلم قل للذي افتخر باباية التسعة بل التسعة من اهل النار وانت عاشرهم وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم
ليدعن قوما الفخر باابايهم وقد صاروا فحما في جهنم او لتكونن اهون على الله تعالى من الجعلان
التي تدوف بانافها القذرة الرابع التفاخر بالجمال وذلك يجري اكثره بين النسا ويدعوا ذلك
الى التنقص والثلب والغيبة وذكر عيوب الناس ومن ذلك ما روى عن عايشة رضي الله عنها
انها قالت دخلت امراة على النبي صلى الله عليه وسلم فقلت بيدي هكذا اي انها صغيرة فقال
النبي صلى الله عليه وسلم قد اغتبتيها وهذا منشاه خفي الكبر لانها لو كانت ايضا صغيرة لما ذكرتها
بالصغر فكانها اعجبت بقامتها واستقصرت المراة في جنب نفسها فقالت ما قالت الخامس
الكبر بالمال وذلك يجري بين الملوك في الخزاين وبين التجار في بضايعهم وبين الدهاقين في
اراضيهم وبين المتجملين في لباسهم وخيولهم ومراكبهم فيستحقر الغني الفقير ويتكبر عليه ويقول له
انت مكدي ومسكين وانا لو اردت لاشتريت مثلك واستخدمت من هو فوقك ومن انت وما
معك واثاث بيتي يسوا اكثر من جميع مالك وانا انفق في اليوم ما لا تاكله في السنة وكل ذلك
لاستعظامه الغنا واستحقاره الفقر وكل ذلك جهل منه بافة الغنا وفضيلة الفقر واليه
الاشارة بقوله تعالى فقال لصاحبه وهو يحاوره انا اكثر منك مالا واعز نفرا حتى اجابه وقال
ان ترن انا اقل منك مالا وولدا فعسى ربي ان يوتين خيرا من جنتك ويرسل عليها حسبانا من
السما فتصبح صعيدا زلقا او يصبح ماوها غورا فلن تستطيع له طلبا وكان ذلك تكبرا منه
بالمال والولد ثم بين الله عاقبة امره وقوله يا ليتني لم اشرك بربي احدا ومن ذلك تكبر قارون اذ
قال الله تعالى فخرج على قومه في زينته حتى قال قوم يا ليت لنا مثل ما اوتي قارون انه لذو حظ عظيم

السادس التكبر بالقوة وشدة البطش والتكبر به على اهل الضعف السابع التكبر بالاتباع والانصار والتلاميذ والغلمان والعشيرة والاقارب والبنين ويجري ذلك بين الملوك في المكاثرة والجنود والمكاثرة بالمستفيدين وبين العلماء في المكاثرة بالمستفيدين وبالجملة فكل ما هو نعمة وامكن ان يعتقد كمالا وان لم يكن في نفسه كمالا امكن ان يتكبر به حتى ان المخنث ليتكبر على اقرانه بزيادة معرفته وقدرته في صنعة المخنثين لانه يرى ذلك كمالا فيفتخر به وان لم يكن فعله الا نكالا وكذلك الفاسق قد يفتخر بكثرة الشرب وكثرة الفجور بالنسوان والغلمان ويتكبر به لظنه ان ذلك كمال وان كان مخطئا فيه فهذه مجامع ما يتكبر به العباد بعضهم على بعض فيتكبر من يدلي بشيء منه على من لا يدلي به او على من يدلي بما هو دونه في اعتقاده وربما كان مثله او فوقه عند الله كالعالم الذي يتكبر بعلمه على من هو اعلم منه لظنه انه الاعلم ولحسن الاعتقاد في نفسه

بيان البواعث على الكبر واسبابه المهيجة له

اعلم ان الكبر خلق باطن فاما ما يظهر من الاخلاق والافعال فهي ثمرتها ونتيجتها وينبغي ان يسمى تكبرا ويخص اسم الكبر بالمعنى الباطن الذي هو استعظام النفس ورؤية قدرها فوق قدر الغير وهذا الباطن له موجب واحد وهو العجب كما سيأتي معناه فانه اذا اعجب بنفسه وبعلمه او بشيء من اسبابه استعظم نفسه وتكبر واما الكبر الظاهر فاسبابه ثلاثة سبب في المتكبر وسبب في المتكبر عليه وسبب يتعلق بغيرهما اما السبب الذي في المتكبر فهو العجب والذي يتعلق بالمتكبر عليه هو الحقد والحسد والذي يتعلق بغيرهما هو الرياء فتصير الاسباب بهذا الاعتبار اربعة العجب والحقد والحسد والرياء اما العجب فقد ذكرنا انه يورث الكبر الباطن والكبر الباطن يثمر التكبر الظاهر في الاعمال والاقوال والاحوال واما الحقد فانه قد يحمل على التكبر من غير عجب كالذي يتكبر على من يرى انه مثله او فوقه ولكن قد غضب بسبب سبق منه فاورثه الغضب حقدا ورسخ في قلبه بغضه فهو لذلك ولا تطاوعه نفسه ان يتواضع له وان كان عنده مستحقا للتواضع فكم من رجل لا تطاوعه النفس على التواضع لواحد من الاكابر لحقده عليه او بغضه له ويحمله ذلك على رد الحق اذا جاء من جهته وعلى الانفة من قبول نصحه وعلى ان يجتهد في التقدم عليه وان علم انه لا يستحق ذلك وعلى ان لا يستحله وان ظلمه ولا يعتذر اليه وان جنى عليه ولا يسأله عما هو جاهل به واما الحسد فانه ايضا يوجب البغض للمحسود وان لم يكن من جهته ايذاء وسبب يقتضي الغضب والحقد ويدعو الحسد ايضا الى جحد الحق حتى يمنع من قبول النصح وتعلم العلم فكم من جاهل يشتاق الى العلم وقد بقي في رذيلة الجهل لاستنكافه ان

يستفيد من واحد من اهل بلده او اقاربه حسدا او بغيا عليه فهو يعرض عنه ويتكبر عليه مع ما هو
مهم فيه بانه يستحق التواضع بفضل علمه ولكن الحسد يبعثه على ان يعامله باخلاق الكبر
وان كان في باطنه ليس يرى نفسه فوقه واما الرياء فهو ايضا يدعوا الى اخلاق المتكبرين حتى
ان الرجل ليناظر من يعلم انه افضل منه وليس بينه وبينه معرفة ولا محاسدة ولا حقد ولكن يمتنع
من قبول الحق منه ولا يتواضع له في الاستفادة خيفة من ان يقول الناس انه افضل منه فيكون
باعثه على التكبر عليه الرياء المجرد ولو خلا معه بنفسه لكان لا يتكبر عليه واما الذي يتكبر بالعجب
او الحسد او الحقد فانه يتكبر ايضا عند الخلوة به مهما لم يكن معهما ثالث وكذلك قد ينتمي الى نسب
شريف كاذبا وهو يعلم انه كاذب ثم يتكبر به على من ليس ينتسب الى ذلك النسب ويترفع عليه في
المجالس ويتقدم عليه في الطريق ولا يرضى بمساواته في الكرامة والتوقير وهو عالم باطنا بانه لا
يستحق ذلك ولا كبر في باطنه لمعرفته بانه كاذب في دعوى النسب ولكن يحمله الرياء على افعال المتكبرين
وكان اسم المتكبر انما يطلق في الاكثر على من يفعل هذه الافعال عن كبر في الباطن صادر عن
العجب والنظر الى الغير بعين الاستحقار وهو ان سمي متكبرا فلاجل التشبه بافعال الكبر بيان
اخلاق المتواضعين ومجامع ما يظهر فيه اثر التواضع والتكبر اعلم ان الكبر يظهر في شمايل
الرجل كصعر في وجهه ونظره شزرا واطراقه راسه وجلوسه متربعا او متكيا وفي اقواله حتى في
صوته ونغمته وصيغته في الايراد ويظهر في مشيته وتبختره وقيامه وجلوسه وفي حركاته
وسكناته وفي تعاطيه لافعاله وفي ساير تقلباته في احواله واقواله فمن المتكبرين من يجمع ذلك
كله ومنهم من يتكبر في بعض ويتواضع في بعض فمنها التكبر بان يحب قيام الناس له او بين يديه
وقد قال علي رضي الله عنه من اراد ان ينظر الى رجل من اهل النار فلينظر الى رجل قاعد
وبين يديه قوم قيام وقال انس لم يكن شخص احب الينا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا اذا
راوه لم يقوموا له لما يعلمون من كراهيته ومنها ان لا يمشي الا ومعه غيره يمشي خلفه قال ابو الدرداء
لا يزال العبد يزداد من الله تعالى بعدا ما مشي خلفه وكان عبد الرحمن بن عوف لا يعرف من عبيده
اذ كان لا يتميز عنهم في صورة ظاهرة ومشى قوم خلف الحسن البصري فمنعهم وقال ما يبقي هذا من قلب
العبد وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض الاوقات يمشي مع الاصحاب فيامرهم بالتقدم
ويمشي في الغمار اما لتعليم غيره واما لينفي عن نفسه وسواس الشيطان بالكبر والعجب كما اخرج الثوب
الجديد في الصلوة وابدله بالخليع لاحد هذين المعنيين ومنها ان لا يزور غيره وان كان يحصل من زيارته

خير العز في الدين وهو ضد التواضع روي ان سفين الثوري قدم الرملة فبعث ابرهيم بن ادهم ان
تعال فحدثنا فجاء ثم سفيان فقيل له يا ابا اسحق يبعث اليه بمثل هذا فقال اردت ان انظر
كيف تواضعه ومنها ان يستنكف من جلوس غيره بالقرب منه الا ان يجلس بين يديه والتواضع
خلافه قال ابن وهب جلست الي عبد العزيز بن ابي رواد فمس فخذي فخذه فنحيت نفسي عنه فاخذ
بثيابي فجرني الي نفسه وقال لي لم تفعلون بي ما تفعلون بالجبابرة واني لا اعرف منكم رجلا
شرا مني وقال انس كانت الوليدة من ولايد المدينة تاخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا ينزع
يده منها حتى تذهب به حيث شاءت ومنها ان يتوقى مجالسة المرضى والمعلولين ويتحاشا عنه
وهو كبر دخل رجل وعليه جدري وقد تقشر علي رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده اصحابه ياكلون
فما جلس عند احد الا قاموا من جنبه فاجلسه رسول الله صلى الله عليه وسلم الي جنبه وكان عبد الله بن
عمر لا يحبس عن طعامه مجذوما ولا ابرص ولا مبتلي الا اقعدهم علي مايدته ومنها ان لا يتعاطى
بيده شغلا في بيته والتواضع خلافه روي ان عمر بن عبد العزيز اتاه ليلة ضيف وكان يكتب
فكاد السراج يطفئ فقال الضيف اقوم الي المصباح فاصلحه فقال ليس من كرم الرجل ان يستعمل
ضيفه قال فانبه الغلام قال هي اول نومة نامها فقام واخذ البطة وملا المصباح زيتا فقال
الضيف قمت انت بنفسك يا امير المومنين فقال ذهبت وانا عمر ورجعت وانا عمر وخير الناس
من كان عند الله متواضعا ومنها الا يا اخذ متاعه ويحمله الي بيته وهو خلاف عادة المتواضعين
كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك وقال علي كرم الله وجهه لا ينقص الرجل من كماله
ما حمل من شئ الي عياله وكان ابو عبيدة بن الجراح وهو امير يحمل سطلا له من خشب الي الحمام
وقال ثابت بن ابي مالك رايت ابا هريرة اقبل من السوق يحمل حزمة حطب وهو يومئذ خليفة
لمروان فقال اوسع الطريق للامير يا ابن ابي مالك وعن الاصبغ بن نباتة قال كاني انظر الي عمر
معلقا لحما في يده اليسرى وفي يده اليمنى الدرة يدور في الاسواق حتى دخل رحله وقال بعضهم
رايت عليا اشتري لحما بدرهم فحمله في ملحفته فقلت له احمل عنك يا امير المومنين قال لا ابو العيال
احق ان يحمل ومنها اللباس اذ يظهر به التكبر والتواضع وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم البذاذة
من الايمان قال هرون سالت معنا عن البذاذة قال هو الدون من اللباس وقال وهب رايت
عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج الي السوق وبيده الدرة وعليه ازار فيه اربعة عشر رقعة
بعضها من ادم وعوتب علي رضي الله عنه في ازار مرقوع فقال يقتدي به المومن ويخشع له القلب

وقال عيسى عليه السلم جودة الثياب خيلاء في القلب وقال طاوس اني لاغسل ثوبي هذين فانكر
قلبي ما داما نقيين ويروى ان عمر بن عبد العزيز كان قبل ان يستخلف يشتري له الحلة بالف
دينار فيقول لما اجودها لولا خشونة فيها فلما استخلف كان يشترى له الثوب بخمسة دراهم فيقول
ما اجوده لولا لينه فقيل له اين لباسك ومركبك وعطرك فقال ان لي نفسا تواقة ذواقة وانها لم
تذق من الدنيا طبقة الا تاقت الى الطبقة التي فوقها حتى اذا ذاقت الخلافة وهي ارفع الطبقات
تاقت الى ما عند الله عز وجل وقال سعيد بن سويد صلى بنا عمر بن عبد العزيز الجمعة ثم جلس وعليه
قميص مرقوع الجيب من بين يديه ومن خلفه فقال له رجل يا امير المؤمنين ان الله تعالى اعطاك
فلو لبست فنكس راسه مليا ثم رفع راسه فقال ان افضل القصد عند الجدة وان افضل العفو
عند القدرة وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من ترك زينة لله ووضع ثيابا حسنة تواضعا لله
وابتغاء وجهه كان حقا على الله ان يدخره عبقري الجنة فان قلت فقد قال عيسى عليه السلم
جودة الثياب خيلاء القلب وقد سئل نبينا صلى الله عليه وسلم عن الجمال بالثياب هل هو
من الكبر فقال لا ولكن من سفه الحق وغمص الناس فكيف طريق الجمع بينهما فاعلم ان الثوب
الجيد ليس من ضرورته ان يكون من التكبر في حق كل احد في كل حال وهو الذي اشار اليه رسول
الله صلى الله عليه وسلم وهو الذي عرفه رسول الله صلى الله عليه وسلم من حال ثابت بن قيس اذ قال
اني امرء حبب الي الجمال فعرفه ان ميله الى النظافة وجودة الثياب لا ليتكبر على غيره فانه ليس من
ضرورته ان يكون من الكبر وقد يكون ذلك من الكبر كما ان الرضا بالثوب الدون قد يكون من
التواضع وعلامة التكبر ان يطلب التجمل اذا رآه الناس ولم يبال اذا انفرد بنفسه كيف يكون
وعلامة طالب الجمال ان يحب الجمال في كل شيء ولو في خلوته وحتى في ستور داره فذلك ليس من
الكبر فاذا انقسمت الاحوال نزل قول عيسى عليه السلم على بعض الاحوال على ان قوله هو خيلاء
القلب يعني مورث خيلاء في القلب يعني قد يورث خيلاء في القلب وقول نبينا صلى الله عليه وسلم
انه ليس من الكبر يعني ان الكبر لا يوجبه ويجوز ان لا يوجبه الكبر ثم يكون هو مورثا للكبر وبالجملة
فالاحوال تختلف في مثل هذا والمحبوب الوسط في اللباس الذي لا يوجب شهرة بالجودة ولا
بالرداءة وقد قال صلى الله عليه وسلم كلوا واشربوا وتصدقوا في غير سرف ولا مخيلة ان الله يحب
ان يرى اثر نعمته على عبده وقال بكر بن عبد الله المزني البسوا ثياب الملوك واميتوا قلوبكم بالخشية
وانما خاطب هذا يطلبون التكبر بثياب اهل الصلاح وقد قال عيسى عليه السلم ما لكم تاتوني

وعليكم بثياب الرهبان وقلوبكم قلوب الذئاب الضواري البسوا ثياب الملوك والينوا قلوبكم بالخشية
ومنها ان يتواضع بالاحتمال اذا سب واوذي واخذ حقه فذلك هو الاصل وقد اوردنا ما نقل عن
السلف من احتمال الاذى في كتاب الغضب والحسد وبالجملة فمجامع حسن الاخلاق والتواضع
سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه فينبغي ان يقتدى به ومنه ينبغي ان يتعلم وقد قال ابو سلمة
قلت لابي سعيد الخدري ما ترى فيما احدث الناس من الملبس والمشرب والمركب والمطعم فقال
يا ابن اخي كل لله واشرب لله والبس لله وكل شيء من ذلك دخله زهو او مباهاة او رياء او سمعة
فهو معصية وسرف وعالج في بيتك من الخدمة ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعالج في بيته
كان يعلف الناضح ويعقل البعير ويقم البيت ويحلب الشاة ويخصف النعل ويرقع الثوب
وياكل مع خادمه ويطحن عنه اذا اعيا ويشتري الشيء من السوق ولا يمنعه الحياء ان يعلقه بيده
او يجعله في طرف ثوبه فينقلب الى اهله يصافح الغني والفقير والصغير والكبير ويسلم مبتديا
على كل من استقبله من صغير او كبير اسود او احمر حر او عبد من اهل الصلاة ليست له حلة لمدخله
ومحله لمخرجه لا يستحي من ان يجيب اذا دعي وان كان اشعث اغبر ولا يحقر ما دعي اليه وان لم يجد
الا حشف الدقل لا يرفع غداء لعشاء ولا عشاء لغداء هين المؤنة لين الخلق كريم الطبيعة جميل
المعاشرة طليق الوجه بسام من غير ضحك محزون من غير عبوس شديد في غير عنف متواضع في
غير مذلة جواد من غير سرف رحيم لكل ذي قربى ومسلم رقيق القلب دائم الاطراق لم يتبشم قط من
شبع ولم يمد يده الى طمع قال ابو سلمة فدخلت على عائشة رضي الله عنها فحدثتها بكل ذلك عن ابي سعيد
فقالت ما اخطا حرفا ولقد قصر اذ ما اخبرك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يمتلئ قط شبعا ولم
يبث الى احد شكوى وان كانت الفاقة لاحب اليه من اليسار والغنى وان كان ليظل جائعا يلتوي
ليلته حتى يصبح فما يمنعه ذلك من صيام يومه ولو شاء ان يسال ربه فيؤتى بكنوز الارض وثمارها ورغد
عيشها من مشارقها ومغاربها لفعل وربما بكيت رحمة له مما ارى به من الجوع فامسح بطنه بيدي واقول
نفسي لك الفداء لو تبلغت من الدنيا بقدر ما يقوتك ويمنعك من الجوع فيقول يا عائشة اخواني من اولي
العزم من الرسل قد صبروا على ما هو اشد من هذا فمضوا على حالهم فقدموا على ربهم فاكرم مابهم
واجزل ثوابهم فاجدني استحيي ان ترفهت في معيشتي ان يقصر بي دونهم فاصبر اياما يسيرة احب الي من ان
ينقص حظي غدا في الآخرة وما من شيء احب الي من اللحوق باخواني واخلائي قالت عائشة فوالله ما
استكمل جمعة حتى قبضه الله تعالى صلى الله عليه وسلم فما نقل من احواله يجمع جملة اخلاق المتواضعين

فمن طلب التواضع فليقتد به ومن راي نفسه فوق محله ولم يرض لنفسه بما رضي هو به فما اشد جهله
فلقد كان اعظم خلق الله منصبا في الدنيا والدين فلا عز ولا رفعة الا في الاقتدا به صلى الله عليه وسلم
ولذلك قال عمر رضي الله عنه انا قوم اعزنا الله بالاسلام فلا نطلب العز في غيره لما عوتب في بذاذة
هيئته عند دخوله الي الشام وقال ابو الدردا اعلم ان لله عبادا يقال لهم الابدال خلف من
الانبيا يقال لهم اوتاد الارض فلما انقضت النبوة ابدل الله مكانهم قوما من امة محمد صلى الله عليه وسلم
لم يفضلوا الناس بكثرة صوم ولا صلاة ولا حسن حلية ولكن بصدق الورع وحسن النية وسلامة
الصدر لجميع المسلمين والنصيحة لهم ابتغاء مرضات الله تعالى بصبر بحسن متواضع من غير مذلة هم
قوم اصطفاهم الله واستخلصهم لنفسه وهم اربعون صديقا ثلاثون رجلا قلوبهم على مثل نفس
ابرهيم خليل الرحمن صلى الله عليه وسلم لا يموت الرجل منهم حتى يكون الله عز وجل قد انشا من يخلفه
واعلم يا اخي انهم لا يلعنون شيا ولا يوذونه ولا يحقرونه ولا يتطاولون عليه ولا يحسدون احدا
ولا يحرصون على الدنيا هم اطيب الناس خيرا والينهم عريكة واسخاهم نفسا علامتهم السخا وسجيتهم
الشجاعة وصفتهم السلامة ليسوا اليوم في خشية وغدا في غفلة ولكن مداومين على حالهم
الظاهر وهم فيما بينهم وبين ربهم لا تدركهم الرياح العواصف ولا الخيل المجراة قلوبهم تصعد ارتياحا
الى الله واشتياقا اليه وقدما في استباق الخيرات اوليك حزب الله الا ان حزب الله هم المفلحون
قال الراوي فقلت يا ابا الدردا ما سمعت بصفة اشد علي من هذه الصفة فكيف لي ان ابلغها
قال ما بينك وبين ان تكون في وسعه حب الا ان تبغض الدنيا فانك اذا ابغضت الدنيا
اقبلت على حب الاخرة وبقدر حبك الاخرة تزهد في الدنيا وبقدر ذلك تبصر ما ينفعك واذا
علم الله من عبد حسن الطلب افرغ عليه السداد واكتنفه بالعصمة واعلم يا ابن اخي ان
ذلك في كتاب الله المنزل ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون قال يحيى بن كثير فنظرنا
في ذلك فما تلذذ المتلذذون بمثل حب الله وطلب مرضاته بيان الطريق في معالجة الكبر
واكتساب التواضع اعلم ان الكبر من المهلكات فلا يخلو احد من الخلق عن شي منه وازالته
فرض عين ولا يزول بمجرد التمني بل بالمعالجة واستعمال الادوية القامعة له وفي معالجته
مقامان احدهما استيصال اصله من سنخه وقلع شجرته من مغرسه في القلب والثاني دفع
العارض منه بالاسباب الخاصة التي بها يتكبر الانسان على غيره المقام الاول في
استيصال اصله وعلاجه علمي وعملي ولا يتم الشفا الا بمجموعها اما العلمي فهو ان يعرف الانسا

نفسه ويعرف ربه ويكفيه ذلك في ازالة الكبر فانه مهما عرف نفسه حق المعرفة علم انه اذل من كل ذليل
واقل من كل قليل وانه لا يليق به الا التواضع والذلة والمهانة واذا عرف ربه علم انه لا يليق العظمة
والكبرياء الا بالله تعالى اما معرفة ربه وعظمته ومجده فالقول فيه يطول وهو منتهى علم المكاشفة
واما معرفة نفسه وهو ايضا يطول ولكنا نذكر منه ما ينفع في اثارة التواضع والمذلة ويكفيه ان
يعرف معنى آية واحدة في كتاب الله عز وجل فان في القرآن علم الاولين والآخرين لمن فتحت بصيرته
وقد قال تعالى قتل الانسان ما اكفره من اي شيء خلقه من نطفة خلقه فقدره ثم السبيل يسره ثم
اماته فاقبره ثم اذا شاء انشره فقد اشارت الآية الى اول خلق الانسان والى آخره والى وسطه فلينظر
الانسان ذلك ليفهم معنى هذه الآية اما اول الانسان فهو انه لم يكن شيئا مذكورا وقد كان في حكم
العدم دهورا بل لم يكن لعدمه اول واي شيء واخس من المحو والعدم وقد كان كذلك في القدم ثم
خلقه الله تعالى من اذل الاشياء ثم من اقذرها اذ خلقه من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من
مضغة ثم جعله عظاما ثم كسا العظم لحما فقد كان هذا بداية وجوده حيث صار شيئا مذكورا
فما صار مذكورا الا وهو على اخس الاوصاف والنعوت اذ لم يخلق في بدايته كاملا بل خلقه جمادا
ميتا لا يسمع ولا يبصر ولا يحس ولا يتحرك ولا ينطق ولا يبطش ولا يدرك ولا يعلم فبدأ بموته قبل
حياته وبضعفه قبل قوته وبجهله قبل علمه وبعماه قبل بصره وبصممه قبل سمعه وببكمه قبل
نطقه وبضلالته قبل هداه وبفقره قبل غناه وبعجزه قبل قدرته وهذا معنى قوله تعالى من اي
شيء خلقه من نطفة خلقه فقدره ومعنى قوله تعالى هل اتى على الانسان حين من الدهر لم يكن
شيئا مذكورا انا خلقنا الانسان من نطفة امشاج نبتليه كذلك خلقه اولا ثم امتن عليه
فقال ثم السبيل يسره وهذه اشارة الى ما تيسر له في مدة حياته الى الموت ولذلك قال تعالى
من نطفة امشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا انا هديناه السبيل ومعناه انه احياه بعد ان
كان جمادا ميتا ترابا اولا ثم من نطفة ثانيا واسمعه بعد ان كان اصم وابصره بعد ما كان فاقدا
للبصر وقواه بعد الضعف وعلمه بعد الجهل وخلق الاعضاء بما فيها من العجائب والآيات بعد
الفقد لها فاغناه بعد الفقر واشبعه بعد الجوع وكساه بعد العري وهداه بعد الضلال
فانظر كيف دبره وصوره والى السبيل كيف يسره والى طغيان الانسان ما اكفره والى جهل
الانسان كيف اظهره فقال تعالى اولم ير الانسان انا خلقناه من نطفة فاذا هو خصيم مبين
ومن آياته ان خلقكم من تراب ثم اذا انتم بشر تنتشرون فانظر الى نعمة الله عليه كيف نقله من تلك

الذلة والقلة والخسة والقذارة الي هذه الرفعة والكرامة فصار موجودا بعد العدم وحيا بعد الموت
وناطقا بعد البكم وبصيرا بعد العمى وقويا بعد الضعف وعالما بعد الجهل وهاديا بعد الضلال
وقادرا بعد العجز وغنيا بعد الفقر فكان في ذاته لا شيء واي شيء اخس من لا شيء واي قلة اقل
من العدم المحض ثم صار بالله شيئا وانما خلقه من التراب الذليل والنطفة القذرة بعد العدم المحض
ليعرفه خسة ذاته فيعرف به نفسه وانما اكمل النعم عليه ليعرف به ربه ويعلم به عظمته وجلاله
وانه لا يليق الكبر الا به ولذلك امتن عليه فقال تعالي الم نجعل له عينين ولسانا وشفتين وهديناه
النجدين وعرفه خسته اولا فقال الم يك نطفة من مني يمنى ثم كان علقة ثم ذكر منته فخلق فسوى
فجعل منه الزوجين الذكر والانثى ليدوم وجوده بالتناسل كما حصل وجوده ابتداء بالاختراع
فمن كان هذا بدوه وهذا احواله فمن اين له البطر والكبرياء والفخر والخيلاء وهو على التحقيق
اخس الاخساء واضعف الضعفاء نعم لو اكمله وفوض اليه امره وادام له الوجود باختيار
لجاز ان يطغى وينسا المبدا والمنتهى لكنه سلط عليه في دوام وجوده الامراض الهائلة
والاسقام العظيمة والآفات المختلفة والطبايع المتضادة من المرة والبلغم والريح والدم
يهدم البعض من اجزائه البعض شاء ام ابى رضي ام سخط فيجوع كرها ويعطش كرها ويمرض
كرها ويموت كرها لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا ولا خيرا ولا شرا يريد ان يعلم الشيء فيجهله ويريد
ان يذكر الشيء فينساه ويريد ان ينسى الشيء ويغفل عنه فلا يغفل ويريد ان يصرف قلبه الي ما
يهمه فيجول في اودية الوسواس والافكار بالاضطرار فلا يملك قلبه قلبه ولا نفسه نفسه
يشتهي الشيء وربما يكون هلاكه فيه ويكره الشيء ويكون حياته فيه يستلذ الاطعمة فتهلكه
وترديه ويستبشع الدواء وهي تنفعه وتحييه لا يامن في لحظة من ليل او نهار ان تسلب سمعه
وبصره وتفلج اعضاؤه ويختلس عقله ويختطف روحه ويسلب جميع ما يهواه في دنياه فهو
مضطر ذليل ان ترك بقي وان اختطف فني عبد مملوك لا يقدر على شيء من نفسه وغيره
اي شيء اذل منه لو عرف نفسه وانا يليق الكبر به لولا جهله فهذا وسط احواله فليتامل اول
امره ومورده فهو الموت المشار اليه بقوله تعالي اماته فاقبره ثم اذا شاء انشره ومعناه انه
يسلب روحه وسمعه وبصره وعلمه وقدرته وحسه وادراكه وحركته فيكون جمادا كما كان
اول مرة لا يبقى الا بوضع شكل اعضائه وصورته لا حس فيها ولا حركة ثم يوضع في التراب فيصير
جيفة منتنة قذرة كما كان في الاول نطفة مذرة ثم تبلى اعضاؤه وتتفتت اجزاؤه

وتنخر عظامه فتصير رميما ورفاتا وياكل الدود اجزاوه فتبتدي بحدقتيه فيقلعهما وبخديه
فيقطعهما وبساير اجزايه فيصير روثا في اجواف الديدان ويكون جيفة يهرب منه الحيوان
ويستقذره كل انسان ويهرب منه لشدة الانتان واحسن احواله ان يعود الى ما كان
فيصير ترابا يعمل منه الكيزان او يعمر منه البنيان ويصير مفقودا بعد ما كان موجودا وصار كان لم
يغن بالامس حصيدا كما كان في اول امره امدا مديدا وليته بقي كذلك فما احسنه لو ترك
ترابا بل يحييه بعد طول البلى ليقاسي شدايد البلى فيخرج من قبره بعد جمع اجزايه المتفرقة
ويخرج الى اهوال القيمة فينظر الى قيامة قايمة وسماء ممزقة ومشققة وارض مبدلة وجبال مسيرة
ونجوم منكدرة وشمس منكسفة واحوال مظلمة وملايكة غلاظ شداد وجحيم تزفر وجنة ينظر
اليها المجرم فيتحسر ويرى صحايف منشورة فيقال له اقرا كتابك فيقول وما هو فيقال قد كان
وكل بك في حياتك التي كنت تفرح بها وتتكبر بنعيمها وتفتخر باسبابها ملكان رقيبان يكتبان
عليك ما تنطق به وتعمله من قليل وكثير ونقير وقطمير واكل وشرب وقيام وقعود قد نسيت ذلك
واحصاه الله وهلم الى الحساب واستعد للجواب او تساق الى دار العذاب فينقطع قلبه فزعا
من هول هذا الخطاب قبل ان تنتشر الصحيفة ويشاهد ما فيها من مخازيه فاذا شاهده قال
يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا احصيها فهذا آخر امره وهو معنى قوله تعالى
ثم اذا شاء انشره فما لمن هذه حالته والتكبر بل ما له وللفرح في لحظة فضلا عن البطر والتجبر فقد ظهر
له اول حاله ووسطه ولو ظهر آخره والعياذ بالله ربما اختار ان يكون كلبا او خنزيرا ليصير مع البهايم
ترابا ولا يكون انسانا يسمع خطابا ويلقى عذابا وان كان عند الله مستحقا للعذاب فالخنزير اشرف منه
واطيب وارفع اذ اوله التراب وآخره التراب وهو بمعزل عن الحساب والعذاب والكلب والخنزير
لا يهرب منه الخلق ولو راوا العبد المذنب في النار لصعقوا من وحشة خلقته وقبح صورته
ولو وجدوا ريحه لماتوا من نتنه ولو وقعت قطرة من شرابه الذي يسقى به في بحار الدنيا لصارت
انتن من الجيف فمن هذه حالته في العاقبة الا ان يعفى عنه وهو على شك من العفو به الا
ان يعفو الكريم بفضله ارايت من جنا على بعض الملوك بما استحق به الف سوط فحبس في السجن
وهو ينتظر الى ان يخرج الى العرض ويقام عليه العقوبة على ملا من الخلق وليس يدري ايعفى عنه
ام لا كيف يكون ذله في السجن افترى انه يتكبر على من في السجن وما من عبد مذنب الا والدنيا سجنه وقد
استحق العقوبة من الله تعالى ولا يدري كيف يكون امره فيكفيه ذلك حزنا وخوفا واشفاقا ومهانة

وذلك لان هذا هو العلاج العملي القالع لاصل الكبر واما العلاج العملي فهو التواضع بالفعل لله تعالى ولساير الخلق
بالمواظبة على اخلاق المتواضعين كما وصفنا وحكينا من احوال الصالحين ومن احوال رسول الله صلى الله
عليه وسلم حتى انه كان ياكل على الارض ويقول انما انا عبد اكل كما ياكل العبد وقيل لسلمان لم لا تلبس ثوبا
جديدا فقال انما انا عبد فاذا اعتقت يوما لبست اشارة الى العتق في الاخرة ولا يتم التواضع بعد المعرفة
الا بالعمل ولذلك امر العرب الذين تكبروا على الله وعلى رسول الله بالايمان وبالصلاة جميعا وقيل الصلاة
عماد الدين وفي الصلاة اسرار لاجلها كانت عمادا ومن جملة ما فيها من التواضع بالمثول قائما وبالركوع
والسجود وقد كانت العرب قديما يانفون من الانحناء فكان يسقط السوط من يد الواحد فلا ينحني
لاخذه وينقطع شراك نعله فلا ينكس راسه لاصلاحه حتى قال حكيم بن حزام بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم
على ان لا اخر الا قائما فبايعه النبي عليه السلام ثم فقه وكمل ايمانه بعد فلما كان السجود عندهم هو منتهى
المذلة والضعة امروا به لتنكسر بذلك خيلاؤهم وتزول كبرهم ويستقر التواضع في قلوبهم وبه امر سائر
الخلق فان الركوع والسجود والمثول قائما هو العمل الذي تقتضيه التواضع فكذلك من عرف نفسه فلينظر
كل ما يتقاضاه الكبر من الافعال فليواظب على نقيضها حتى يصير التواضع له خلقا فان القلوب لا تتخلق
بالاخلاق المحمودة الا بالعلم والعمل جميعا وذلك لخفي العلاقة بين القلب والجوارح وسر الارتباط
الذي بين عالم الملك وعالم الملكوت والقلب من عالم الملكوت المقام الثاني فيما يعرض من
التكبر بالاسباب السبعة المذكورة وقد ذكرنا في كتاب ذم الجاه ان الكمال الحقيقي هو العلم والعمل فاما
ما عداه مما يفنى بالموت فكمال وهمي فمن هذا يعسر على العالم ان لا يتكبر ولكنا نذكر طريق العلاج
من العلم والعمل في جميع الاسباب السبعة الاول النسب فمن يعتريه الكبر من جهة النسب فليداو
قلبه بمعرفة امرين احدهما ان هذا جهل من حيث انه تعزز بكمال الغير ولذلك قيل لئن فخرت بآبا
ذوي شرف لقد صدقت ولكن بئس ما ولدوا فالمتكبر بالنسب ان كان خسيسا في صفات ذاته
فمن اين يجبر خسته كمال غيره بل لو كان الذي ينتسب اليه حيا لكان له ان يقول الفضل لي ومن انت
وانما انت دودة خلقت من بولي افترى ان الدودة التي من بول الانسان اشرف من الدودة التي
من بول فرس هيهات فهما متساويان والشرف للانسان لا للدودة الثاني هو ان يعرف
نسبه الحقيقي فيعرف اباه وجده فان اباه القريب نطفة قذرة وجده البعيد تراب ذليل وقد
عرفه الله تعالى نسبه فقال الذي احسن كل شيء خلقه وبدا خلق الانسان من طين ثم جعل نسله
من سلالة من ماء مهين فاصله التراب المهين الذي يداس بالاقدام ثم خمر طينه حتى صار حما

مسني كيف يتكبر واخس الاشياء ما اليه نسبه اذ يقال يا اذل من التراب ويا انتن من الحماة ويا اقذر
من المضغة فان كان كونه من ابيه اقرب من كونه من التراب فيقول افتخر بالقريب دون البعيد فالنطفة
والمضغة اقرب اليه من الاب فليحقر نفسه به ثم ان كان يوجب رفعة لقربه فالاب الاعلى من التراب
فمن اين رفعته واذا لم يكن له رفعة فمن اين جاءت الرفعة لولده فاذا اصله من التراب وفصله من
النطفة فلا اصل له ولا فصل وهذا غاية خسة النسب فالاصل يوطاء بالاقدام والفصل يغسل
منه الابدان وهذا هو النسب الحقيقي للانسان ومن عرفه لم يتكبر بالنسب ويكون مثاله بعد هذه
المعرفة وانكشاف الغطاء له عن حقيقة اصله كرجل لم يزل عند نفسه من بني هاشم وقد اخبره بذلك
والداه فلم يزل فيه نخوة الشرف فبينما هو كذلك اذ اخبره عدول لا يشك في قولهم انه ابن هندي حجام
يتعاطى القذر وكشفوا له وجه التلبيس عليه فلم يبق له شك في صدقهم افترى ان ذلك يبقى شيئا
من كبره لا بل يصير نفسه احقر الناس واذلهم فهو من استشعار الخزي لخسته في شغل عن ان يتكبر
على غيره فهذا حال البصير اذا تفكر في اصله وعلم انه من النطفة والمضغة والتراب اذ لو كان ابوه
ممن يتعاطى نقل التراب او يتعاطى الدم بالحجامة او غيرها لكان يعلم به خسة نفسه لمماسة اعضاء
ابيه التراب والدم فكيف اذا عرف انه في نفسه من التراب والدم والاشياء القذرة التي يتنزه منها
هو في نفسه السبب الثاني الكبر بالجمال ودواؤه ان ينظر الى باطنه نظر العقلاء ولا ينظر الى الظاهر
نظر البهائم ومهما نظر الى باطنه راى من القبائح ما يكدر عليه تعززه بجماله فانه وكل به الاقذار في جميع
اجزائه الرجيع في امعائه والبول في مثانته والمخاط في انفه والبزاق في فيه والوسخ في اذنيه والدم
في عروقه والصديد تحت بشرته والصنان تحت ابطيه يغسل الغائط كل يوم دفعتين يتردد الى
الخلاء كل يوم مرتين ليخرج من باطنه ما لو رآه بعينه لاستقذره فضلا من ان يمسه او يشمه كل ذلك
ليعرف قذارته وذلته هذا في حاله وفي اول امره خلق من الاقذار الشنيعة الصور من النطفة ودم
الحيض واخرج في مجرى الاقذار اذ خرج من صلب ثم من الذكر مجرى البول ثم الى رحم مغيض دم
الحيض ثم خرج من مجرى القذر قال انس كان ابو بكر الصديق رضي الله عنه يخطبنا فيقذر الينا انفسنا
ويقول خرج احدكم من مجرى البول مرتين ولذلك قال طاوس لعمر بن عبد العزيز ما هذه مشية من في
بطنه خرء ادراه بعجز قبل خلافته هذا اوله ووسطه ولو ترك نفسه في حياته يوما لم يتعهدها بالتنظيف
والغسل لثارت منه الانتان والاقذار وصار اقذر وانتن من الدواب المهملة التي لا يتعهد نفسها
قط فاذا نظر انه خلق من اقذار واسكن في اقذار وسيموت فيصير جيفة اقذر من سائر الاقذار لم

يفتخر بجماله الذي هو كخضراء الدمن وكلون الازهار في البوادي بينما هو كذلك اذ صار هشيما تذروه الرياح
ولو كان جماله باقيا وعن هذه الخبائث خاليا لكان يجب ان لا يتكبر به على القبيح اذ لم يكن قبح القبيح
اليه فينفيه ولا كان جماله اليه حتى يحمد عليه كيف ولا بقاء له بل هو في كل حال قد يتصور ان يزول بمرض
او جدري وقرحة وسبب من الاسباب فكم من وجوه جميلة قد شمخت بهذه الاسباب فمعرفة هذه
الامور تنزع من القلب داء الكبر بالجمال لمن اكثر تاملها السبب الثالث التكبر بالقوة وما ايد
يمنعه من ذلك ان يعلم ان ما سلط عليه من العلل والامراض وانه لو توجع عرق واحد على بدنه لصار
اعجز من كل عاجز واذل من كل ذليل وانه لو يسلبه الذباب شيئا لم يستنقذه منه وان بقة لو دخلت انفه
او نملة دخلت اذنه لقتلته وان شوكة لو دخلت رجله لاعجزته وان حم يوما تحلل من قوته ما لم
ينجبر في مدة فمن لا يطيق شوكة ولا يقاوم بقة ولا يقدر على ان يدفع ذبابة عن نفسه فلا ينبغي ان
يفتخر بقوته ثم ان قوي انسان فلا يكون اقوى من حمار او بقرة او فيل او جمل واي افتخار في سبب
يسبقك البهائم بها السبب الرابع والخامس الغنى وكثرة المال وفي معناه كثرة الاتباع والانصار
والتكبر بولاية السلاطين والتمكن من جهتهم وكل ذلك تكبر بمعنى خارج من ذات الانسان لا كالجمال
والقوة والعلم وهذا اقبح انواع التكبر فان المتكبر بماله كانه متكبر بفرسه وداره ولو مات فرسه وانهدمت
داره لعاد ذليلا والمتكبر بتمكين السلطان وولايته لا بصفة في نفسه بنى امره على قلب هو اشد غليانا
من القدر فان تغير عليه كان اذل الخلق وكل متكبر بامر خارج من ذاته فهو ظاهر الجهل كيف والمتكبر
بالغنى لو تامل لراى في اليهود من يزيد عليه في الغنى والثروة والتجمل فاف لشرف يسبقك اليهود اليه
واف لشرف ياخذه السارق في لحظة فيعود صاحبه ذليلا مفلسا فهذه اسباب ليست في ذاته وما هو في
ذاته ليس اليه دوام وجوده وهو في الآخرة وبال ونكال فالتفاخر به غاية الجهل وكل ما ليس اليك
فليس لك وشيء من هذه الامور ليس اليك بل الى واهبه ان ابقاه بقي وان استرجعه زال وما انت
الا عبد مملوك لا تقدر على شيء فمن عرف ذلك لا بد وان يزول كبره ومثاله ان يفتخر الغافل بقوته وجماله
وخزانته واستقلاله وسعة منازله وكثرة خيوله وغلمانه اذ شهد عليه شاهدان عدلان عند
حاكم منصف بانه رقيق لفلان وان ابويه كانا مملوكين له فعلم ذلك وحكم به الحاكم فجاء مالكه واخذه
واخذ جميع ما في يده وهو يخشى مع ذلك ان يعاقبه وينكل به لافراطه في امواله وتقصيره في طلب مالكه
ليعرف ان له مالكا ثم نظر العبد فرأى نفسه محبوسا في منزل احدقت به الحيات والعقارب والهوام
وهو في كل حال على وجل من واحدة منها ولا يبقى لا يملك لنفسه ولا ماله ولا يعرف طريقا في الخلاص البتة

افتري ان من هذا حاله اهل يفتخر بقدرته وثروته وقوته وكماله ام يذل في نفسه ويخضع وهذا
حال كل عاقل بصير فانه يرى نفسه كذلك فانه لا يملك نفسه وماله وبدنه واعضاؤه وهو مع ذلك
بين آفات وشهوات وامراض واسقام هي كالعقارب والحيات يخاف منها الهلاك فمن هذا
حاله لا يتكبر بقدرته وقوته اذ يعلم انه لا قدرة له ولا قوة وهذا طريق علاج التكبر بالاسباب
وهو اهون من علاج التكبر بالعلم والعمل فانهما كمالان في النفس جديران يفرح بهما ولكن في
التكبر بهما ايضا نوع من الجهل خفي كما سنذكره **السبب السادس** التكبر بالعلم وهو
اعظم الآفات واغلب الادواء وابعدها عن قبول العلاج الا بشدة شديدة وجهد جهيد
وذلك لان قدر العلم عظيم عند الله عظيم عند الناس وهو اعظم من قدر المال والجمال وغيرهما
بل لا قدر لهما اصلا الا اذا كان معهما علم وعمل ولذلك قال كعب ان للعالم طغيانا كطغيان المال
ولذلك قال عمر رضي الله عنه العالم اذا زل زلت بزلته عالم كثير فيعجز العالم على ان لا يستعظم
نفسه بالاضافة الى الجاهل لكثرة ما نطق به الشرع بفضايل العلم ولن يقدر العالم على دفع
الكبر الا بمعرفة امرين احدهما ان يعلم ان حجة الله تعالى على اهل العلم اوكد وانه يحتمل من الجاهل
ما لا يحتمل عشره من العالم وانه من عصى الله تعالى عن معرفة وعلم فجنايته افحش اذ لم يقض حق نعمة
الله تعالى عليه في العلم ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم صلى الله عليه وسلم يؤتى بالعالم يوم
القيمة فيلقى في النار فيندلق اقتابه فيدور بها كما يدور الحمار بالرحا فيطيف به اهل النار
فيقولون ما لك فيقول كنت امر بالخير ولا آتيه وانها عن الشر وآتيه وقد مثل الله سبحانه
وتعالى من يعلم ولا يعمل بالحمار والكلب فقال تعالى مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها
كمثل الحمار يحمل اسفارا اراد علماء اليهود وقال في بلعم ابن باعورا واتل عليهم نبأ الذي
آتيناه آياتنا فانسلخ منها حتى بلغ فمثله كمثل الكلب قال ابن عباس اوتي بلعم كتابا فاخلد
الى شهوات الارض ان تحمل عليه يلهث او تتركه يلهث اي سواء اوتيه الحكمة او لم اوته فلا
يدع شهوته ويكفي العالم هذا الخطر فاي عالم لم يتبع شهوته واي عالم لم يامر بالخير الذي لا يأتيه
فمهما خطر للعالم عظم قدره بالاضافة الى الجاهل فليتفكر في الخطر العظيم الذي هو بصدده
فان خطره اعظم من خطر غيره كما ان قدره اعظم من قدر غيره فهذا بذاك وهو كالملك المخاطر
بروحه في ملكه لكثرة اعدائه فانه اذا اخذ وقهر اشتهى ان يكون لو كان فقيرا فكم من عالم يشتهي
في الآخرة سلامة الجهال والعياذ بالله منه فهذا القدر يمنع من التكبر لانه ان كان من اهل

النار فالخنزير افضل منه فكيف يتكبر فلا ينبغي ان يكون العالم اكبر عند الله من الصحابة وقد كان بعضهم
يقول يا ليت امي لم تلدني ويأخذ الآخر تبنة من الارض ويقول يا ليتني كنت هذه التبنة ويقول
الآخر يا ليتني كنت طيرا كل ذلك خوفا من خطر الآخرة فكانوا يرون انفسهم اسوء حالا من الطير
ومن التراب ومهما اطال فكره في الخطر الذي هو بصدده زال بالكلية كبره ورأى نفسه كانه
شر الخلق ومثاله عبد امره سيده باموره فشرع فيها فترك بعضها وادخل النقصان في بعضها
وشك في بعضها انه هل اداها كما يرضيه مولاه ام لا فأخبره مخبر ان مولاه مرسل اليه رسولا يخرجه
من كل ما هو فيه عريانا ذليلا ويلقيه على بابه في الشمس والحر زمانا طويلا حتى اذا ضاق عليه الامر
وبلغ به المجهود امر برفع حسابه وفتش عن جميع اعماله قليلها وكثيرها ثم امر به الى سجن ضيق
وعذاب دائم لا يروح عنه ساعة وقد علم ان سيده قد فعل ذلك بطوائف من عبيده مثل ذلك
وعفى عن بعضهم وهو لا يدري انه من اي الفريق يكون فاذا تفكر في ذلك انكسرت نفسه وذل
وبطل عزه وكبره وظهر حزنه وخوفه ولم يتكبر على احد من الخلق بل رجا ان يكون هو من شفعائه
عند نزول العذاب به فكذلك العالم اذا تفكر في ما ضيعه من اوامر ربه وبجنايات على جوارحه
وبذنوب في باطنه من الرياء والحسد والعجب والنفاق وغيره وعلم ما هو بصدده من الخطر
العظيم فارقه كبره لا محالة الامر الثاني ان العالم يعرف ان الكبر لا يليق الا بالله وحده وانه اذا
تكبر صار ممقوتا عند الله تعالى بغيضا وقد احب الله تعالى منه ان يتواضع فقال ان لك عندي قدرا
ما لم تر لنفسك قدرا فان رأيت لنفسك قدرا فلا قدر لك فلا بد ان يكلف نفسه ما يحب مولاه
وهذا يزيل التكبر عن قلبه وان كان ليستيقن ان لا ذنب له مثلا او تصور ذلك وبهذا زال
الكبر عن الانبياء اذ علموا ان من نازع الله في رداء الكبرياء قصمه وقد امرهم الله تعالى ان يستصغروا
انفسهم حتى يعظم عند الله محلهم فهذا ايضا مما يبعثه على التواضع لا محالة فان قلت فكيف
يتواضع للفاسق الظاهر الفسق وللمبتدع وكيف يرى نفسه دونهم وهو عالم عابد وكيف يجهل
فضل العلم والعبادة عند الله تعالى وكيف يمكنه ان يخطر بباله خطر العلم وهو يعلم ان
خطر الفاسق والمبتدع اكبر فاعلم ان ذلك انما يمكن بالتفكر في خطر الخاتمة بل لو نظر الى الكافر
لم يمكنه ان يتكبر عليه اذ يتصور ان يسلم الكافر فيختم له بالايمان ويضل هذا العالم ويختم له بالكفر
والكبير من هو كبير عند الله تعالى في الآخرة والكلب والخنزير اعلى رتبة ممن هو عند الله من اهل النار
وهو لا يدري ذلك فكم من مسلم نظر الى عمر رضي الله عنه قبل اسلامه فاستحقره وازدراه

لكفر وقد رزقه الله الاسلام ووفاق جميع المسلمين الا ابا بكر وحده فالعواقب مطوية عن العباد ولا
ينظر العاقل الا الي العاقبة وجميع الفضايل في الدنيا تراد للعاقبة فاذا حق العبد الا يتكبر علي احد
بل ان نظر الي جاهل قال انه عصي الله بجهل وانا عصيت الله تعالي بعلم فهو اعذر مني وان نظر الي عالم
فيقول انه قد علم ما لم اعلم فكيف اكون مثله وان نظر الي كبير هو اكبر منه قال انه اطاع الله قبلي فكيف
اكون مثله وان نظر الي صغير قال اني عصيت الله قبله فكيف اكون مثله وان نظر الي مبتدع او كافر
قال ما يدريني لعل الحتم له بالاسلام ويختم لي بما هو عليه فليس دوام الهداية الي كما لم يكن ابتداؤها الي
فبملاحظة الخاتمة يقدر علي ان ينفي الكبر عن نفسه وكل ذلك بان يعلم ان الكمال في سعادة الاخرة والقرب
من الله تعالي لا فيما يظهر في الدنيا مما لا بقاء له ولعمري هذا الخطر مشترك بين المتكبر والمتكبر عليه ولكن حق
علي كل واحد ان يكون مصروف الهم الي نفسه مشغول القلب بخوفه لعاقبته لا ان يشتغل بخوف غيره
فان الشفيق بسوء الظن مولع وشفقة كل انسان علي نفسه فاذا حبس جماعة في جناية ووعدوا بان
يضرب رقابهم لم يتفرغوا للكبر بعضهم علي بعض وان عمهم الخطر اذ شغل كل واحد منهم نفسه عن الالتفات
الي هم غيره حتى كان كل واحد هو وحده في مصيبته وخطره فان قلت فكيف ابغض المبتدع في الله
والفاسق وقد امرت ببغضهما ثم مع ذلك اتواضع لهما والجمع بينهما متناقض فاعلم ان هذا الامر مشتبه
يلتبس علي اكثر الخلق اذ يمتزج غضبك لله في انكار البدعة والفسق بكبر النفس والادلال بالعلم
والورع فكم من عابد جاهل وعالم مغرور اذا راي فاسقا جلس بجنبه انزعج من عنده وتنزه منه بكبر
باطن في نفسه وهو ظان انه قد غضب لله تعالي كما وقع لعابد بني اسرائيل مع خليعهم وذلك لان
الكبر علي المطيع ظاهر كونه شرا فالحذر عنه ممكن والكبر علي الفاسق والمبتدع يشبه الغضب لله تعالي
وهو خير فان الغضبان يتكبر ايضا علي من غضب عليه والمتكبر يغضب واحدهما يثمر الاخر ويوجبه وهما
ممتزجان ملتبسان لا يميز بينهما الا الموفقون والذي يخلصك من هذا ان يكون الحاضر علي قلبك
عند مشاهدة المبتدع او الفاسق او امرهما بالمعروف ونهيهما عن المنكر ثلاثة امور احدها التفاتك
الي ما سبق من ذنوبك وخطاياك ليصغر عند ذلك قدرك في عينه والثاني ان تكون ملاحظتك
لما انت به متميز من العلم واعتقاد الحق والعمل الصالح من حيث انها نعمة من الله تعالي عليك فله المنة
فيه لا لك فتري ذلك منه حتى لا تعجب بنفسك واذا لم تعجب لم تتكبر والثالث ملاحظة ابهام عاقبتك
وعاقبته انه ربما يختم له بالخير ويختم لك بالسوء حتى يشغلك الخوف من التكبر عليه فان قلت فكيف
اغضب مع هذه الاحوال فاقول تغضب لمولاك وسيدك اذ امرك بان تغضب لا لنفسك وانت في غضبك

لا ترى نفسك ناجيا وصاحبك هالكا بل يكون خوفك على نفسك بما علم الله من خفايا ذنوبك
اكثر من خوفك عليه مع الجهل بالخاتمة واعرفك ذلك بمثال لتعلم انه ليس من ضرورة الغضب لله
عز وجل ان يتكبر للمغضوب عليه وترى قدرك فوق قدره فاقول اذا كان للملك غلام وولد هو في
رعايته وقد وكل الغلام بالولد ليراقبه وامره بضربه مهما اساء ادبه واشتغل بما لا يليق به ويغضب
عليه فان كان الغلام مطيعا محبا لمولاه فلا يجد بدا من ان يغضب مهما راى ولده قد اساء
الادب وانما يغضب عليه لمولاه ولانه امره به ولانه يريد التقرب بامتثال امره اليه ولانه جرى من
ولده ما يكره مولاه فيضرب ولده ويغضب من غير تكبر عليه بل هو متواضع له يرى قدره عند مولاه
فوق قدر نفسه لان الولد اعز لا محالة من الغلام فاذا ليس من ضرورة الغضب التكبر وعدم
التواضع فكذلك يمكنك ان تنظر الى المبتدع والفاسق وتظن انه ربما قدرهما عند الله في
الآخرة اعظم لما سبق لهما من الحسنى في الازل ولما سبق لك من سوء القضاء في الازل
وانت غافل عنه ومع ذلك تغضب بحكم الامر محبة لمولاك اذ جرى ما يكرهه مع التواضع لمن تجوز
ان يكون عنده اقرب منك في الآخرة فهكذا يكون بغض العلماء الاكياس فينضم اليه الخوف
والتواضع واما المغرور فانه يتكبر ويرجو لنفسه اكثر مما يرجو لغيره مع جهله بالعاقبة وذلك غاية
الغرور فهذا سبيل التواضع لمن عصى الله او اعتقد البدعة مع الغضب عليه ومجانبته بحكم الامر
السبب السابع التكبر بالورع والعبادة وذلك ايضا فتنة عظيمة على العباد وسبيله في
ان يلزم قلبه التواضع لسائر العباد وهو ان يعلم ان من يتقدم عليه بالعلم لا ينبغي ان يتكبر
عليه كيف ما كان لما عرفه من فضيلة العلم وقد قال الله تعالى هل يستوي الذين يعلمون والذين
لا يعلمون وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فضل العالم على العابد كفضلي على ادنى رجل
من اصحابي الى غير ذلك مما ورد في فضل العلم فان قال العابد ذلك العالم عالم بعلمه وهذا
عالم فاجر فيقال له اما عرفت ان الحسنات يذهبن السيئات وكما ان العلم يمكن ان يكون
حجة على العالم يمكن ان يكون وسيلة له وكفارة لذنوبه وكل واحد منهما ممكن وقد وردت الاخبار
بالشهادة لذلك واذا كان هذا امرا غائبا عنه لم يجز له ان يحتقر عالما بل يجب عليه ان يتواضع
له فان قلت فان صح هذا فينبغي للعالم ان يرى نفسه فوق العابد لقوله عليه السلام فضل
العالم على العابد كفضلي على ادنى رجل من اصحابي فاعلم ان ذلك كان ممكنا لو علم العالم
خاتمة امره وخاتمة الامر مشكوك فيه فيحتمل ان يموت بحيث يكون حالته عند الله اشد من حال

الجاهل الفاسق لذنب واحد كان يحسبه هينا وهو عند الله عظيم وقد مقته به واذا كان هذا ممكنا
كان على نفسه خايفا فاذا كل واحد من العالم والعابد خايف على نفسه وقد كلف امر نفسه لا امر غيره
فينبغي ان يكون الغالب عليه في حق نفسه الخوف وفي حق غيره الرجاء وذلك يمنعه من التكبر بكل حال
وهذا حال العالم مع العابد فاما مع غير العالم فهم منقسمون في حقه الى مستورين والى مكشوفين فينبغي
ان لا يتكبر على المستور فلعله اقل منه ذنبا واكثر منه عبادة واشد منه حبا لله واما المكشوف حاله ان لم
يظهر لك من الذنوب الا ما تزيد عليه ذنوبك في طول عمرك فلا ينبغي ان يتكبر عليه ولا يمكن ان يقول هو اكبر
مني ذنبا لان عدد ذنوبك وذنوب غيرك في طول العمر لا يقدر على احصاء حتى تعلم الكثرة نعم يمكن ان يعلم
ان ذنوبه اشد كما لو رايت منه القتل والشرب والزنا ومع ذلك فلا ينبغي ان يتكبر اذ ذنوب القلوب
من الكبر والحسد والرياء والغل واعتقاد الباطل والوسوسة في صفات الله تعالى وتخيل الخطاء فيه
كل ذلك شديد عند الله فربما جرى عليك في باطنك من خفايا الذنوب ما صرت به عند الله ممقوتا وقد
جرى للفاسق الظاهر الفسق من طاعات القلوب من حب الله والاخلاص والخوف والتعظيم ما انت خال عنه
ويكفر ذلك سيئاته فينكشف الغطاء يوم القيمة فتراه فوق نفسك بدرجات وهذا ممكن والامكان
البعيد فيما عليك ينبغي ان يكون قريبا عندك ان كنت مشفقا على نفسك فلا تتفكر فيما هو ممكن لغيرك بل
ما هو مخوف في حقك فانه لا تزر وازرة وزر اخرى وعذاب غيرك لا يخفف شيئا من عذابك فاذا
تفكرت في هذا الخطر كان عندك شغل شاغل عن التكبر وعن ان ترى نفسك فوق غيرك وقد قال
وهب بن منبه ما تم عقل عبد حتى يكون فيه عشر خصال فعد تسعة حتى بلغ العاشرة فقال العاشرة
وما العاشرة بها ساد مجده وعلا ذكره ان يرى الناس كلهم خيرا منه وانما الناس عنده فرقتان فرقة
هي افضل منه وارفع وفرقة هي شر منه وادنى وهو يتواضع للفرقتين جميعا بقلبه ان راى من هو خير منه
سره وتمنا ان يلحق به وان راى من هو شر منه قال لعل هذا ينجو واهلك انا ولا يراه الا خايفا من
العاقبة ويقول لعل بر هذا باطن فذلك خير له ولا ادري لعل فيه خلق كريم بينه وبين الله تعالى فيرحمه
ويتوب عليه ويختم له باحسن الاعمال وبري ظاهر فذلك شر لي لا يامن فيما اظهر من الطاعة ان يكون
دخلها الافات فاحبطها ثم قال فحينئذ كمل عقله وساد اهل زمانه فهذا كلامه وبالجملة من جوز
ان يكون عند الله شقيا وقد سبق القضاء الازلي بشقوته فما له سبيل ان يتكبر بحال من الاحوال نعم
اذا غلب عليه الخوف راى كل احد خيرا من نفسه وذلك هو الفضيلة كما روي ان عابدا اوى الى جبل
فقيل له في النوم ايت فلانا الاسكاف فاساله ان يدعو لك فاتاه فساله عن عمله فاخبره انه يصوم النهار

ويكتب فيتصدق ببعضه ويطعم عياله بعضه فرجع وهو يقول ان هذا الحسن ولكن ليس كالتفرغ
لطاعة الله فاتى في النوم ثانيا وقيل له ايت الاسكاف فقل له ما هذا الصفار بوجهك فاتاه فساله
فقال ما رايت احدا من الناس الا وقع لي انه سينجو واهلك انا فقال العابد بهذه والذي يدل على
فضيلة هذه الخصلة قوله تعالى يؤتون ما اتوا وقلوبهم وجلة اي يؤتون الطاعة وهم على وجل
عظيم من قبولها وقال تعالى ان الذين هم من خشية ربهم مشفقون وقال انا كنا قبل في اهلنا
مشفقين وقد وصف الله تعالى الملائكة مع تقديسهم عن الذنوب ومواظبتهم على العبادة على الدوام
بالاشفاق فقال يسبحون الليل والنهار لا يفترون وانهم من خشية ربهم مشفقون فمن زال
الاشفاق والحذر مما سبق به القضاء في الازل وينكشف عند خاتمة الاجل غاية الامن من مكر الله وذلك
يوجب الكبر وهو سبب الهلاك فالكبر دليل الامن والامن مهلك والتواضع دليل الخوف وهو مسعد
فاذا ما يفسده العابد باضمار الكبر واحتقار الخلق والنظر اليهم بعين الاستصغار اكثر مما يصلحه
بظاهر الاعمال فهذه معارف بها يزال داء الكبر عن القلب لا غير الا ان القلب بعد هذه المعرفة
قد يضمر التواضع وتدعي البراءة من الكبر وهي كاذبة فاذا وقعت الواقعة عادت الى طبعها ونسيت
وعدها ففي هذا لا ينبغي ان يكتفى بالمداواة بمجرد المعرفة بل ينبغي ان يكمل بالعمل ويجرب بافعال
المتواضعين في مواقع هيجان الكبر من النفس وبيانه ان يمتحن النفس بخمس امتحانات هي ادلة على
استخراج ما في الباطن وان كانت الامتحانات كثيرة الامتحان الاول ان يناظر في مسئلة
مع واحد من اقرانه فان ظهر شيء من الحق على لسان صاحبه فثقل عليه قبوله والانقياد له
والاعتراف به والشكر له على تنبيهه وتعريفه واخراجه الحق فذلك يدل على ان فيه كبرا دفينا فليتق
الله فيه وليشتغل بعلاجه اما من حيث العلم فبان يذكر نفسه خسة نفسه وخطر عاقبته وان
الكبر لا يليق الا بالله تعالى واما بالعمل فان تكلف نفسه ما ثقل عليه من الاعتراف بالحق فيطلق
اللسان بالحمد والثناء ويقر على نفسه بالعجز ويشكره على الاستفادة ويقول ما احسن ما فطنت
له وقد كنت غافلا عنه فجزاك الله خيرا عما نبهتني له فالحكمة ضالة المؤمن فاذا وجدها ينبغي ان
يشكر من دله عليها فاذا واظب على ذلك مرات متوالية صار ذلك له طبعا وسقط ثقل الحق عن
قلبه وطاب له قبوله ومهما ثقل عليه الثناء على اقرانه بما فيهم ففيه كبر فان كان ذلك لا يثقل
عليه في الخلوة ويثقل في الملا فليس فيه كبر وانما فيه رياء فليعالج الرياء بما ذكرناه من قطع الطمع
عن الناس وتذكير القلب بان منفعته في كماله في ذاته عند الله لا عند الخلق الى غير ذلك من ادوية

الرياء وان ثقل عليه في الخلوة والملاء جميعا ففيه الكبر والرياء جميعا ولا ينفعه الخلاص من احدهما ما لم
يتخلص من الثاني فليعالج كلا الدائين فانهما جميعا مهلكان **الامتحان الثاني** ان يجتمع مع الاقران
والامثال في المحافل ويقدمهم على نفسه ويمشي خلفهم ويجلس في الصدور تحتهم فان ثقل عليه ذلك
فهو متكبر فليواظب عليه تكلفا حتى يسقط عنه ثقله فبذلك يزايله الكبر وههنا للشيطان مكيدة وهو
ان يجلس في صف النعال ويجعل بينه وبين الاقران بعض الارذال فيظن ان ذلك تواضعا وهو عين
التكبر فان ذلك يخف على نفس المتكبرين اذ يوهمون انهم تركوا مكانهم بالاستحقاق والتفضل فيكون
قد تكبر وتكبر باظهار التواضع ايضا بل ينبغي ان يقدم اقرانه ويجلس بجنبهم ولا ينحط عنهم الى صف
النعال فذلك هو الذي يخرج خبث التكبر من الباطن **الامتحان الثالث** ان يجيب دعوة الفقير
ويمر الى السوق في حاجة الرفقاء والاقارب فان ثقل ذلك عليه فهو كبر فان هذه الافعال من
مكارم الاخلاق والثواب عليها جزيل فنفور النفس عنها ليس الا لخبث في الباطن فليشتغل
بازالته بالمواظبة عليه مع تذكر جميع ما ذكرناه من المعارف التي تزيل الكبر **الامتحان الرابع** ان
يحمل حاجة نفسه وحاجة اهله ورفقائه من السوق الى البيت فان ابت نفسه ذلك فهو كبر
او رياء فان كان ثقل ذلك مع خلو الطريق فهو كبر وان كان لا يثقل الا عند مشاهدة الناس فهو رياء
وكل ذلك من امراض القلب وعللها المهلكة له ان لم يتدارك وقد اهمل الناس طب القلوب
واشتغلوا بطب الاجساد مع ان الاجساد قد كتب عليها الموت لا محالة والقلوب لا تدرك السعادة
الا بسلامتها اذ قال تعالى الا من اتى الله بقلب سليم ويروى عن عبد الله بن سلام انه حمل حزمة
حطب فقيل له يا ابا يوسف قد كان في غلمانك وبنيك من يكفيك قال اجل ولكن اردت ان اجرب
نفسي هل تنكر ذلك فلم يقنع منها بما اعطته من العزم على ترك الانفة حتى جربها اهي صادقة
ام كاذبة وفي الخبر من حمل الفاكهة والشيء فقد بريء من الكبر **الامتحان الخامس** ان يلبس ثيابا
بذلة فان نفور النفس عن ذلك في الملاء رياء وفي الخلوة كبر وكان عمر بن عبد العزيز له مسح يلبسه بالليل
وقد قال النبي عليه السلام من اعتقل البعير ولبس الصوف فقد بريء من الكبر وقال صلى الله عليه وسلم
انما انا عبد اكل بالارض والبس الصوف واعتقل البعير والعق اصابعي واجيب دعوة المملوك
فمن رغب عن سنتي فليس مني وروي ان ابا موسى الاشعري قيل له ان اقواما يتخلفون عن الجمعة
بسبب ثيابهم فلبس عباءة فصلى فيها بالناس وهذه مواضع يجتمع فيها الرياء والكبر فما يختص بالملاء
وهو الرياء وما يكون في الخلوة فهو الكبر فليعرف فان من لا يعرف الشر لا يتقيه ومن لا يدرك المرض لا
يداويه

بيان غاية الرياضة في خلق التواضع اعلم ان هذا الخلق كساير الاخلاق له طرفان وواسطه
فطرفه الذي يميل الى الزيادة يسمى تكبرا وطرفه الذي يميل الى النقصان يسمى تخاسسا ومذلة والوسط
يسمى تواضعا والمحمود ان يتواضع في غير مذلة ومن غير تخاسس فان كلا طرفي قصد الامور ذميم واحب
الامور الى الله تعالى اوسطها فمن يتقدم على امثاله فهو متكبر ومن تاخر عنهم فهو متواضع اي وضع
شيا من قدره الذي يستحقه والعالم اذا دخل عليه اسكاف فتخلا له عن مجلسه واجلسه فيه ثم تقدم فسوى
له نعله وعدا الى باب الدار خلفه فقد تخاسس وتذلل وهذا ايضا غير محمود بل المحمود عند الله تعالى
العدل وهو ان يعطي كل ذي حق حقه فينبغي ان يتواضع بمثل هذا لامثاله ولمن يقرب من درجته
فاما تواضعه للسوقي فبالقيام والبشر في الكلام والرفق في السوال واجابة دعوته والسعي في
حاجته وامثال ذلك وان لا يرى نفسه خيرا منه بل يكون على نفسه اخوف منه على غيره فلا يحقره
ولا يستصغره وهو لا يعرف خاتمة امره وخاتمته فاذا سبيله في اكتساب التواضع ان يتواضع الا قران
ولمن دونهم حتى يخف عليه التواضع المحمود في محاسن العادات ليزول به الكبر عنه فان خف عليه
ذلك فقد حصل له خلق التواضع وان كان يثقل عليه وهو يفعل فهو متكلف لا متواضع بل الخلق
ما يصدر عنه الفعل بسهولة من غير ثقل ومن غير روية فان خف ذلك وصار بحيث يثقل عليه
رعاية قدره حتى احب التملق والتخاسس فقد خرج الى طرف النقصان فليرفع نفسه اذ ليس
للمومن ان يذل نفسه الى ان يعود الى الوسط الذي هو الصراط المستقيم وذلك غامض في هذا
الخلق وفي ساير الاخلاق والميل عن الوسط الى طرف النقصان وهو التملق اهون من الميل
الى طرف الزيادة بالتكبر كما ان الميل الى طرف التبذير في المال احمد عند الناس من الميل الى
طرف البخل فنهاية التبذير ونهاية البخل مذمومان واحدهما افحش وكذلك نهاية الكبر
ونهاية التنقص والتذلل مذمومان واحدهما اقبح من الاخر والمحمود المطلق هو العدل ووضع
الامور مواضعها كما يجب وعلى ما يجب على ما يعرف ذلك بالشرع والعادة ولنقتصر على هذا من
بيان اخلاق الكبر والتواضع الشطر الثاني من الكتاب في العجب
وفيه بيان ذم العجب وآفته وبيان حقيقة العجب والادلال وحدهما وبيان علاج العجب
على الجملة وبيان اقسام ما به العجب وتفصيل علاجه بيان ذم العجب وآفته اعلم ان
العجب مذموم في كتاب الله تعالى وسنة رسوله قال الله تعالى ويوم حنين اذ اعجبتكم كثرتكم فلم
تغن عنكم شيا وذكر ذلك في معرض الانكار وقال تعالى وظنوا انهم مانعتهم حصونهم من الله

فاتاهم الله من حيث لم يحتسبوا فرد على الكفار في اعجابهم بحصونهم وشوكتهم وقال تعالى وهم
يحسبون انهم يحسنون صنعا وهذا ايضا يرجع الى العجب بالعمل وقد يعجب الانسان بعمل هو مخطى
فيه كما يعجب بعمل هو فيه مصيب وقال النبي صلى الله عليه وسلم ثلاث مهلكات شح مطاع وهوى
متبع واعجاب المرء بنفسه وقال لابي ثعلبة حيث ذكر اخر هذه الامة فقال اذا رايت شحا مطاعا
وهوى متبعا واعجاب كل ذي راي برايه فعليك نفسك وقال ابن مسعود الهلاك في اثنين
القنوط والعجب وانما جمع بينهما لان السعادة لا تنال الا بالسعي والطلب والجد والتشمر والقانط
لا يسعى ولا يطلب والمعجب يعتقد انه قد سعد وقد ظفر بمراده فلا يسعى فالموجود لا يطلب والمحال
لا يطلب والسعادة موجودة في اعتقاد المعجب حاصلة له ومستحيلة في اعتقاد القانط فلهذا جمع
بينهما وقد قال تعالى فلا تزكوا انفسكم قال ابن جريج معناه اذا عملت خيرا فلا تقل عملت وقال
زيد بن اسلم لا تبروها اي لا تعتقدوا انها بارة وهو معنى العجب ووقى طلحة رسول الله يوم احد
بنفسه فاكب عليه حتى اصيبت كفه فكانه اعجبه فعله العظيم اذ فداه بروحه حتى جرح فتفرس فيه
ذلك عمر فقال ما زالت نعرف في طلحة نأوا منذ اصيبت اصبعه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم
والنأو هو الكبر في اللغة الا انه لم ينقل فيه انه اظهر واحتقر مسلما ولما كان وقت الشورى
قال ابن عباس اين انت من طلحة قال ذاك رجل فيه نخوة فاذا كان لا يتخلص من العجب امثالهم
فكيف يتخلص منه الضعفاء ان لم ياخذوا حذرهم وقال مطرف لان ابيت نائما واصبح نادما احب
الي من ان ابيت قائما واصبح معجبا وقال النبي صلى الله عليه وسلم لو لم تذنبوا لخشيت عليكم ما هو
اكثر من ذلك العجب فجعل العجب اكثر من الذنوب وكان بشر بن منصور من الذين اذا رؤوا ذكر الله
تعالى والدار الاخرة لمواظبته على العبادة فاطال الصلاة يوما ورجل خلفه ينظر ففطن له بشر
فلما انصرف عن الصلاة قال لا يعجبك ما رايت مني فان ابليس لعنه الله قد عبد الله تعالى مع الملائكة
مدة طويلة ثم صار الى ما صار اليه وقيل لعائشة رضي الله عنها متى يكون الرجل مسيئا قالت
اذا ظن انه محسن وقد قال تعالى ولا تبطلوا صدقاتكم بالمن والمن نتيجة استعظام الصدقة واستعظام
العمل هو العجب فظهر بهذا ان العجب مذموم جدا بيان آفة العجب اعلم ان آفات العجب
كثيرة فان العجب يدعو الى الكبر لانه احد اسبابه كما ذكرناه فيتولد من العجب الكبر ومن الكبر الآفات
الكثيرة التي لا تخفى هذا مع العباد فاما مع الله تعالى فالعجب يدعو الى نسيان الذنوب واهمالها
فبعض ذنوبه لا يذكرها ولا يتفقدها لظنه انه مستغن عن تفقدها فينساها وما يتذكره منها

فيستصغرها ولا يستعظمها فلا يجتهد في تداركها وتلافيها بل يظن انها تغفر له واما العبادات والاعمال فانه يستعظمها ويتبجح بها ويمن على الله بفعلها وينسى نعمة الله عليه بالتوفيق والتمكين منها ثم اذا اعجب بها عمي عن آفاتها ومن لم يتفقد آفات الاعمال كان اكثر سعيه ضايعا فان الاعمال الظاهرة اذا لم تكن خالصة نقية عن الشوايب قل ما ينفع وانما يتفقد من يغلب عليه الاشفاق والخوف دون العجب والمعجب يغتر بنفسه وبربه ويامن مكر الله وعقابه ويظن انه عند الله بمكان وان له عند الله منة وحقا باعماله التي هي نعمة من نعمه وعطية من عطاياه ويخرجه العجب الى ان يثني على نفسه ويحمدها ويزكيها وان اعجب برايه وعمله وعقله منع ذلك من الاستفادة من الاستشارة والسؤال فيستبد بنفسه ورايه ويستنكف من سوال من هو اعلم منه فربما يعجب بالراي الخطا الذي خطر له فيفرح بكونه من خواطره ولا يفرح بخاطر غيره ولا يسمع نصح ناصح ولا وعظ واعظ بل ينظر الى غيره بعين الاستجهال ويصر على خطايه فان كان رايه في امر دنيوي فيحقق فيه وان كان في امر ديني لاسيما فيما يتعلق باصول العقايد فيهلك به ولو اتهم نفسه ولم يثق برايه واستضاء بنور القرآن واستعان بعلماء الدين وواظب على مدارسة العلم وتابع سوال اهل البصيرة لكان ذلك يوصله الى الحق فهذا وامثاله من آفات العجب فلذلك كان من المهلكات ومن اعظم آفاته انه يفتر في السعي لظنه انه قد فاز واستغنى وهو الهلاك الصريح الذي لا شبهة فيه

بيان حقيقة العجب والادلال وحدهما

اعلم ان العجب انما يكون بوصف هو كمال لا محالة وللعالم في كمال نفسه في علم وعمل ومال وغيره حالتان احداهما ان يكون خايفا على زواله مشفقا على تكدره او سلبه من اصله فهذا ليس بمعجب والاخرى ان يكون خايفا من زواله لكن فرحا به من حيث انه نعمة من الله تعالى عليه لا من حيث اضافته لنفسه وهذا ايضا ليس بمعجب وله حالة ثالثة هي العجب وهو ان يكون غير خايف عليه بل يكون فرحا به مطمينا اليه ويكون فرحه به من حيث انه كمال ونعمة ورفعة وخير لا من حيث انه عطية من الله تعالى ونعمة فيكون فرحه به من حيث انه صفته ومنسوب اليه بانه له لا من حيث انه منسوب الى الله تعالى بانه منه فمهما غلب على قلبه انه نعمة من الله تعالى مهما شاء سلبه زال العجب بذلك عن نفسه فاذا العجب هو استعظام النعمة والركون اليها مع نسيان اضافتها الى المنعم فان انضاف الى ذلك ان غلب على نفسه ان له عند الله حقا وانه منه لمكان حتى توقع بعمله كرامة في الدنيا واستبعد ان يجري عليه مكروه

استبعاد ازيد علي ستبعاده ما يجري علي الفساق سمّي هذا ادلالا بالعمل فكانه يري لنفسه علي الله
ذاله وكذلك قد يعطي غيره شيئا فيستعظمه ويمنّ عليه فيكون معجبا فان استخدمه او اقترح عليه
الاقتراحات او استبعد تخلّفه عن قضاء حقوقه كان مدلا عليه وقد قال قتادة في معني قوله تعالي
ولا تمنن تستكثر اي لا تدلّ بعملك وفي الخبر ان صلاة المدل لا ترتفع فوق راسه ولان تضحك وانت
معترف خير من ان تبكي وانت مدل بعملك والادلال وراء العجب فلا مدل الا وهو معجب ورب معجب
ورب معجب لا يدل اذ العجب يحصل بالاستعظام ونسيان النعمة دون توقع جزاء عليه والادلال
لا يتم الا مع توقع فان توقع اجابة دعوته واستنكر ردها بباطنه وتعجب منها كان مدلا بعمله فانه
لا يتعجب من رد دعاء الفساق ويتعجب من رده علي نفسه لذلك فهذا هو العجب والادلال
وهو من مقدمات الكبر واسبابه بيان علاج العجب علي الحسد اعلم ان علاج كل علة بمقابلة
سببها بضدها وعلة العجب الجهل المحض فعلاجه المعرفة المضادة لذلك الجهل فقط فلنفرض
العجب بفعل داخل تحت اختيار العبد كالعبادة والصدقة والغزو وسياسة الخلق واصلاحهم
فان العجب بهذا اغلب من العجب بالجمال والقوة والنسب وما لا يدخل تحت اختياره ولا يراه
من نفسه فيقول الورع والتقوي والعبادة والعمل الذي به يعجب انما يعجب به من حيث انه فيه
فهو محله ومجراه يجري فيه وعليه من جهة غيره فهذا جهل لان المحل مسخر ومجرى لا مدخل له
في الايجاد والتحصيل فكيف يعجب بما ليس اليه وان كان يعجب به من حيث هو فيه واليه وباختياره
حصل وبقدرته وبقوته تم فينبغي ان يتامل في قدرته وارادته واعضائه وساير الاسباب
التي بها تم عمله انها من اين كانت له فان كان جميع ذلك نعمة من الله من غير حق سبق له ومن غير وسيلة
تدلي بها فينبغي ان يكون اعجابه بجود الله وكرمه وفضله اذ افاض عليه ما لا يستحق واثره به علي
غيره من غير سابقة ووسيلة فهما نزل الملك لغلمانه ونظر اليهم فخلع من جملتهم علي واحد منهم لا لصفة
فيه ولا لوسيلة ولا لجمال ولا لخدمة فينبغي ان يتعجب المنعم عليه من فضل الملك وحكمه وايثاره
من غير استحقاق فاعجابه بنفسه من اين وما سببه ولم ينبغي ان يتعجب هو بنفسه نعم يجوز
ان يعجب العبد فيقول الملك حكم عدل لا يظلم ولا يتقدم ولا يؤخر الا لسبب فلولا انه تفطن
في من الصفات المحمودة الباطنة ما اقتضا الايثار بالخلعة لما اثرني به فيقال وتلك الصفة
هي ايضا من خلعة الملك وعطيته التي خصصك بها من غيرك من غير وسيلة وهي عطية غيره
فان كان من عطية الملك ايضا لم يكن لك ان تعجب به بل كان كما لو اعطاك فرسا فلم يعجبه فاعطاك

غلاما فصرت تعجب به فيقول انما اعطاني غلاما لاني صاحب فرس واما غيري فلا فرس له فيقال وهو الذي
اعطاك الفرس فلا فرق بين ان يعطيك الفرس والغلام معا او يعطي احدهما بعد الاخر فاذا كان
الكل منه فينبغي ان يعجبك جوده وفضله لا نفسك واما ان كانت تلك الصفة من غيره فلا يبعد
ان يعجب بتلك الصفة فهذا يتصور في حق الملوك ولا يتصور في حق الجبار ملك الملوك المنفرد
باختراع الجميع المنفرد بايجاد الموصوف والصفة فانك ان اعجبت بعبادتك وقلت وفقني للعبادة
لحبي له فيقال ومن خلق الحب في قلبك فيقول هو فيقال والحب والعبادة كلاهما نعمتان
من عنده ابتداك بهما من غير استحقاق من جهتك اذ لا وسيلة لك ولا علاقة فيكون الاعجاب بجوده
اذ انعم بوجودك وبوجود صفاتك وبوجود اعمالك واسباب اعمالك فاذا لا معنى لعجب العابد
بعبادته وعجب العالم بعلمه وعجب الجميل بجماله وعجب الغني بغناه لان كل ذلك من فضل الله
وانما هو محل لفيضان فضل الله وجوده والمحل ايضا من جوده وفضله فان قلت لا يمكنني ان
اجهل اعمالي واني انا عملتها فاني انتظر عليها ثوابا ولولا انها عملي لما انتظرت الثواب فان
كانت الاعمال مخلوقة لله على سبيل الاختراع فمن اين لي الثواب وان كانت الاعمال مني وبقدرتي
فكيف لا اعجب بها فاعلم ان جوابك من وجهين احدهما هو صريح الحق والاخر فيه مسامحة
اما صريح الحق فهو انك وقدرتك وارادتك وحركتك جميع ذلك من خلق الله تعالى واختراعه فما
عملت اذ عملت ولا صليت اذ صليت وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى هذا هو الحق الذي
انكشف لارباب القلوب بمشاهدة اوضح من ابصار العين بل خلقك وخلق اعضائك وخلق
فيها القوة والقدرة والصحة وخلق لك العقل والعلم وخلق لك الارادة ولو اردت ان تنفي
شيئا من هذا عن نفسك لم تقدر عليه ثم خلق الحركات في اعضائك مستبدا باختراعه من
غير مشاركة من جهتك معه في الاختراع الا انه خلق على ترتيب فلم يخلق الحركة ما لم يخلق في
العضو قوة وفي القلب ارادة ولم يخلق ارادة ما لم يخلق علما بالمراد ولم يخلق العلم ما لم يخلق
القلب الذي هو محل العلم فتدريجه في الخلق شيئا بعد شيء هو الذي خيل اليك انك اوجدت
عملك وقد غلطت وايضاح ذلك وكيفية الثواب على عمل هو من خلق الله تعالى سيأتي تقريره
في كتاب الشكر فانه اليق به فارجع اليه ونحن الآن نزيل اشكالك بالجواب الثاني الذي فيه
مسامحة ما وهو ان تحسب ان العمل حصل بقدرتك فمن اين قدرتك ولا يتصور العمل الا بوجودك
وبوجود علمك وارادتك وقوتك وساير اسباب عملك وكل ذلك من الله تعالى لا منك فان كان العمل

بالقدرة فالقدرة مفتاحها وهذا المفتاح بيد الله وما لم يعطك فلا يمكنك العمل فالعبادات خزاين
بها يتوصل الى السعادات ومفاتيحها القدرة والارادة والعلم وهي بيد الله لا محالة ارايت لو ان خزاين
الدنيا مجموعة في قلعة حصينة ومفتاحها بيد خازن ولو جلست على بابها وحواليها الف سنة
لم يمكنك ان تنظر الى دينار مما فيها ولو اعطاك المفتاح لاخذته من قرب بان تبسط يدك اليه فتاخذ
فقط فاذا اعطاك الخازن المفاتيح وسلطك عليها ومكنك منها فمددت اليد واخذتها اكان
اعجابك باعطاء الخازن المفاتيح او بما اليك من مد اليد واخذ فلا تشك في ان تراه نعمة من الخازن
لان المؤنة في تحريك اليد باخذ المال قريب وانما الشان كله في تسليم المفاتيح فكذلك مهما خلقت
القدرة وسلطت الارادة الجازمة وحركت البواعث والدواعي وصرف عنك الموانع والصوارف حتى
لم يبق صارف الا دفع ولا باعث الا وكل بك فالعمل هين عليك وتحريك البواعث وصرف العوايق وتهيئة
الاسباب كلها من الله تعالى ليس شي منها اليك فمن العجايب ان تعجب بنفسك ولا تعجب بمن اليه
الامر كله ولا تعجب بجوده وفضله وكرمه في ايثاره اياك على الفساق من عباده اذ سلط دواعي الفساد
على الفساق وصرفها عنك وسلط اخدان الفسق ودعاة الشر عليهم وصرفهم عنك ومكنهم من اسباب
الشهوات واللذات وزواها عنك وصرف عنهم بواعث الخير ودواعيه وسلطها عليك حتى تيسر لك الخير
وتيسر له الشر فعل ذلك كله بك من غير وسيلة سابقة منك ولا جريمة سابقة من الفاسق العاصي
بل اثرك وقدمك واصطفاك بفضله وابعد العاصي واشقاه بعدله فما اعجب اعجابك بنفسك اذا
عرفت ذلك فاذا لا ينصرف قدرتك الى المقدور الا بتسليط الله داعيه لا تجد سبيلا الى مخالفتها
فكانه الذي اضطرك الى الفعل ان كنت فاعلا تحقيقا فله الشكر والمنة لا لك وسياتي في كتاب
التوحيد والتوكل من بيان تسلسل الاسباب والمسببات ما تستبين به انه لا فاعل الا الله
تعالى ولا خالق سواه والعجب ممن يتعجب اذا رزقه الله عقلا وافقره مما افاض الله عليه المال من غير
علم فيقول كيف منعني قوت يومي وانا العاقل الفاضل وافاض عليه نعيم الدنيا وهو الغافل الجاهل
حتى يكاد يرى هذا ظلما ولا يدري المغرور انه لو جمع له بين العقل والمال جميعا لكان ذلك بالظلم
اشبه في ظاهر الحال اذ يقول الجاهل الفقير لم جمعت له بين العقل والغنا وحرمتني عنهما فهلا
جمعتهما لي او هلا رزقتني احدهما والى هذا اشار علي رضوان الله عليه حيث قيل ما بال العقلاء فقراء
فقال ان عقل الرجل محسوب عليه من رزقه والعجب ان العاقل الفقير ربما يرى الجاهل الغني
احسن حالا من نفسه ولو قيل له هل تؤثر جهله وغناه عوضا من عقلك لا تشمئز عنه فان ذلك يدل

على ان نعم الله عليه اكثر فلم تتعجب منه والمرأة الحسناء الفقيرة ترى الحلي والجواهر على الذميمة الغنية فتتعجب
وتقول كيف يحرم مثل هذا الجمال من الزينة ويخصص مثل ذلك القبيح ولا تدري المغرورة ان الجمال
محسوب عليها من رزقها وانها لو خيرت بين الجمال وبين القبح لاثرت الجمال فاذا نعمة الله عليها
اكثر وقول الحكيم العاقل الفقير بقلبه يا رب لم حرمتني الدنيا واعطيت الجهال كقول من اعطاه
الملك فرسا فيقول يا مالكي لم لا تعطيني الغلام وانا صاحب فرس فيقول كنت لا تتعجب من هذا لو لم اعطك
الفرس فهب اني ما اعطيتك اصارت نعمتي عليك وسيلة لك وحجة تطلب بها نعمة اخرى وهذه اوهام
لا يخلو الجهال عنها ومنشأ جميع ذلك الجهل ويزال ذلك بالعلم المحقق بان العبد وعمله واوصافه
كل ذلك من عند الله نعمة ابتداء بها قبل الاستحقاق وهذا ينفي العجب والادلال ويورث الخضوع
والشكر والخوف من زوال النعمة ومن عرف هذا لم يتصور ان يعجب بعمله وعلمه اذ يعلم ان ذلك من الله
ولذلك لما قال داود عليه السلم ما يأتي ليلة الا وانسان من آل داود قائم ولا يأتي يوم الا وانسان
من آل داود صائم وفي رواية لا تمر ساعة من ليل او نهار الا وعابد من آل داود يعبدك اما يصلي واما
يصوم واما يذكرك فاوحى الله تعالى اليه يا داود من اين لهم ذلك ان ذلك لم يكن الا بي ولولا عوني
اياك ما قويت وساكلك الى نفسك قال ابن عباس رضي الله عنهما انما اصاب داود من الذنب ما اصاب
من تعجبه بعمله اذ اضاف الى آل داود مدلا به حتى وكل الى نفسه فاذنب ذنبا اورثه الحزن والندم
وقال داود يا رب ان بني اسرائيل يسالونك بابرهيم واسحق ويعقوب فقال اني ابتليتهم فصبروا
فقال يا رب وانا ان ابتليتني صبرت فادل بالعمل قبل وقته فقال تعالى اما اني لم اخبرهم باي
شيء ابتليتهم فصبروا فقال يا رب وانا ان ابتليتني صبرت فادل بالعمل قبل وقته فقال تعالى
اما اني لم اخبرهم باي شيء ابتليهم ولا في اي شهر ولا في اي يوم وانا مخبرك في سنتك وشهرك ابتليك
غدا بامرأة فاحذر نفسك فوقع فيما وقع فيه وكذلك لما اتكل اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم
حنين على كثرتهم وقوتهم ونسوا فضل الله عليهم وقالوا لا نغلب عن قلة وكلوا الى انفسهم فقال تعالى
ويوم حنين اذ اعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الارض بما رحبت ثم وليتم مدبرين
وروي ابن عيينة ان ايوب عليه السلم قال الهي انك ابتليتني بهذا البلاء وما ورد علي امر الا
اثرت هواك على هواي فنودي من غمامة بعشرة الف صوت يا ايوب انى لك ذلك اي من اين لك
ذلك فاخذ رمادا فوضعه على راسه وقال منك يا رب فرجع من نسيانه واضاف ذلك الى الله ولهذا
قال الله تعالى ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من احد ابدا وقال النبي صلى الله عليه وسلم لاصحابه

وهم خير الناس ما منكم من احد ينجيه عمله قالوا ولا انت يا رسول الله قال ولا انا الا ان يتغمدني الله برحمته
ولقد كانوا اصحابه من بعده يتمنون ان يكونوا ترابا وطيرا مع صفاء اعمالهم وقلوبهم فكيف يكون لذي
بصيرة ان يعجب بعمله او يدل به ولا يخاف على نفسه فاذا هذا هو العلاج القامع لمادة العجب من القلب
ومهما غلب ذلك على القلب شغله خوف سلب هذه النعمة عن الاعجاب به بل هو ينظر الى الكفار
والفساق وقد سلبوا نعمة الايمان والطاعة بغير ذنب اذنبوه من قبل فيخاف من ذلك فيقول ان
من لم يبالي ان يحرم من غير جناية ويعطي من غير وسيلة لا يبالي ان يعود ويسترجع ما وهب فكم
من مؤمن قد ارتد ومطيع قد فسق وختم له بالسوء وهذا لا يبقى معه عجب بحال **بيان ما به**
اقسام العجب وتفصيل علاجه اعلم ان العجب بالاسباب التي بها يتكبر كما ذكرناه وقد يعجب
بما لا يتكبر به كعجبه بالراي الخطاء الذي تزين له بجهله فما به العجب ثمانية الاول ان يعجب ببدنه
في جماله وهيئته وصحته وقوته وتناسب اشكاله وحسن صورته وحسن صوته وبالجملة تفصيل
خلقته فيلتفت الى جمال نفسه وينسى انه نعمة من الله تعالى وهو بعرضة الزوال في كل حال وعلاجه
ما ذكرناه في الكبر بالجمال وهو التفكر في اقذار باطنه وفي اول امره وآخره وفي الوجوه الجميلة
والابدان الناعمة انها كيف تمزقت في التراب وانتنت في القبور حتى استقذرتها الطباع
الثاني القوة والبطش كما حكي عن قوم عاد حين قالوا من اشد منا قوة وكما اتكل عوج على
قوته واعجب به فاقتلع جبلا ليطبقها على عسكر موسى عليه السلم فثقبها الله تعالى حتى صارت
في عنقه وقد يتكل المؤمن ايضا على قوته كما روي عن سليمان عليه السلم انه قال لاطوفن الليلة
بمائة امراة ولم يقل ان شاء الله تعالى فحرم ما اراد من الولد وكذلك قول داود عليه السلم ان ابتليتني
صبرت اعجابا بالقوة ويورث العجب بالقوة الهجوم في الحروب والقاء النفس في التهلكة
والمبادرة الى الضرب والقتل لكل من قصده بالسوء وعلاجه ما ذكرناه وهو ان يعلم ان حمى
يوم تضعف قوته وانه اذا اعجب بها ربما سلبه الله تعالى بادنى آفة يسلطها عليه الثالث
العجب بالعقل والكياسة والتفطن لدقايق الامور من مصالح الدين والدنيا وثمرته الاستبداد
بالراي وترك المشورة واستجهال الناس المخالفين لراية ويخرج الى قلة الاصغاء الى اهل العلم
اعراضا عنهم بالاستغناء عن الراي والعقل واستحقارهم واهانتهم وعلاجه ان يشكر الله تعالى
على ما رزق من العقل ويتفكر انه بادنى مرض يصيب دماغه كيف يوسوس ويجن بحيث يضحك
منه ولا يامن ان يسلب عقله ان اعجب به ولم يقم بشكره وليستقصر عقله وعلمه وليعلم انه

٥٩٤
٤٠٥

ما اوتي من العلم الا قليلا وان اتسع علمه وان ما جهله مما عرفه الناس اكثر مما علمه فكيف بما لم يعرفه الناس
من علم الله تعالي وان يتهم عقله وينظر الي الحمقاء كيف يعجبون بعقولهم ويضحك الناس منهم فيحذر ان
يكون منهم وهو لا يدري فان القاصر العقل قط لا يعلم قصور عقله فينبغي ان يعرف مقدار عقله من
غيره لا من نفسه ومن اعدايه لا من اصدقايه فان من يداهنه يثني عليه فيزيده عجبا وهو لا يظن بنفسه
الا الخير ولا يفطن لجهل نفسه فيزداد به عجبا الرابع العجب بالنسب الشريف كعجب الهاشمية حتى يظن
بعضهم انه ينجو بسبب شرفه ونسبه ونجاة آبايه وانه مغفور له ويتخيل لبعضهم ان جميع الخلق لهم موالي
وعبيد وعلاجه ان يعلم انه مهما خالف اباه في افعالهم واخلاقهم وظن انه ملحق بهم فقد جهل وان
اقتدا بآبايه فما كان من اخلاقهم العجب بل الخوف والازراء علي النفس واستعظام الخلق ومذمة النفس
ولقد شرفوا بالطاعة والعلم والخصال الحميدة لا بالنسب فليتشرف بما شرفوا به وقد ساواهم في النسب
وشاركهم في القبايل من لا يومن بالله فكانه عند الله شر من الكلاب واخس من الخنازير ولذلك قال
الله تعالي يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى اي لا تفاوت في انسابكم لاجتماعكم الي اصل
واحد ثم ذكر فايدة النسب فقال وجعلناكم شعوبا وقبايل لتعارفوا ثم بين ان الشرف بالتقوى لا بالنسب
فقال تعالي ان اكرمكم عند الله اتقاكم ولما قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم من اكرم الناس من اكيس الناس
لم يقل من ينتمي الي نبي ولكن قال اكثرهم للموت ذكرا واشدهم له استعدادا وانما انزلت الاية
حين اذن بلال يوم الفتح على الكعبة فقال الحارث بن هشام وسهيل بن عمرو وخالد بن اسيد هذا
العبد الاسود يوذن فقال تعالي ان اكرمكم عند الله اتقاكم وقال النبي صلى الله عليه وسلم ان الله قد اذهب
عنكم عبية الجاهلية اي كبرها كلكم بنو آدم وآدم من تراب وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا معشر قريش
لا ياتي الناس يوم القيمة بالاعمال وتاتون بالدنيا تحملونها علي رقابكم تقولون يا محمد يا محمد فاقول هكذا
اي اعرض عنكم فبين انهم ان مالوا الي الدنيا لم ينفعهم نسب قريش ولما نزل قوله تعالي وانذر عشيرتك الاقربين
ناداهم بطنا بعد بطن حتى قال يا فاطمة بنت محمد يا صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله صلى الله عليه
وسلم اعملا لانفسكما فاني لا اغني عنكما من الله شيا فمن عرف هذه الامور وعرف ان شرفه بقدر تقواه
وقد كان من عادة آبايه التواضع اقتدي بهم في التواضع والتقوى والا كان طاعنا في نسب
نفسه بلسان حاله مهما انتما اليهم ولم يشبههم في التواضع والتقوى والخوف والاشفاق فان قلت
فقد قال صلى الله عليه وسلم بعد قوله لفاطمة وصفية اني لا اغني عنكما من الله شيا الا ان لكما رحما
سابلها ببلالها وقال عليه السلام ارجوا سليم وصديق شفاعتي ولا يرجوها بنو عبد المطلب فذلك

يدل على انه يحض قرابته بالشفاعة فاعلم ان كل مسلم فهو منتظر شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم والنسب
ايضا جدير بان يرجو ولكن بشرط ان يتقي الله فانه ان يغضب عليه ولا ياذن لاحد في شفاعته فان الذنوب
منقسمة الى ما يوجب المقت فلا يؤذن في الشفاعة والى ما يعفى عنه بسبب الشفاعة كالذنوب
عند ملوك الدنيا فان كل ذي مكانة عند الملك لا يقدر على الشفاعة فيما اشتد عليه غضب الملك
فمن الذنوب ما لا ينجي منه الشفاعة وعنه العبارة بقوله تعالى ولا يشفعون الا لمن ارتضى وبقوله
من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه وبقوله تعالى ولا تنفع الشفاعة الا لمن اذن له الرحمن ورضي له قولا
فاذا انقسمت الذنوب الى ما يشفع فيها والى ما لا يشفع فيها وجب الخوف والاشفاق لا محالة
ولو كان كل ذنب تقبل فيه الشفاعة لما امر قريشا بالطاعة ولما نهى فاطمة عن المعصية ولكان ياذن
لها في اتباع الشهوات لتكمل لذتها في الدنيا ثم يشفع لها في الآخرة لتكمل لذتها في الآخرة
فالانهماك في الذنوب وترك التقوى اعتمادا على رجاء الشفاعة يضاهي انهماك المريض في شهواته
اعتمادا على طبيب حاذق قريب مشفق من اب او اخ او غيره وذلك جهل لان سعي الطيب وهمته و
وجده ينفع في ازالة بعض الامراض لا في كلها فلا يجوز ترك الحمية مطلقا اعتمادا على مجرد الطب
بل للطب اثر على الجملة ولكن في الامراض الخفيفة وعند غلبة اعتدال المزاج فهكذا ينبغي ان تفهم
عناية الشفعاء من الانبياء والصلحاء الاقارب والاجانب فانه كذلك قطعا وذلك لا يزيل الخوف
والحذر وكيف يزيل وخير الخلق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم اصحابه وقد كانوا يتمنون ان يكونوا بهائم
من خوف الآخرة مع كمال تقواهم وحسن اعمالهم وصفاء قلوبهم وما سمعوه من وعد رسول الله صلى الله عليه
وسلم اياهم بالجنة خاصة وسائر المسلمين بالشفاعة عامة ولم يتكلوا عليه ولم يفارق الخشوع
والخوف قلوبهم فكيف يعجب بنفسه ويتكل على الشفاعة من ليس له مثل صحبتهم وسابقتهم الخامس
العجب بنسبه السلاطين الظلمة واعوانهم دون نسب الدين والعلم وهذا غاية الجهل وعلاجه
ان يتفكر في مخازيهم وما جرى لهم من الظلم على عباد الله والفساد في دين الله فانهم ممقوتون عند
الله تعالى ولو نظر الى صورهم في النار وانتانهم واقذارهم لاستنكف منهم ولتبرأ من الانتساب
اليهم ولانكر على من نسبه اليهم استقذارا لهم واستحقارا ولو انكشف ذلهم يوم القيمة وقد تعلق بهم
الخصماء والملائكة آخذون بنواصيهم يجرونهم على وجوههم الى جهنم في مظالم العباد لتبرأ الى الله
منهم ولكان انتسابه الى الكلب والخنزير احب اليه من انتسابه اليهم فحق على اولاد الظلمة ان عصمهم الله
من ظلمهم ان يشكروا الله على سلامة دينهم ويستغفرون لابائهم ان كانوا مسلمين واما العجب بنسبهم فجهل

٥٩٨
٧٥٧

عض السادس العجب بكثرة العدد من الاولاد والخدم والغلمان والعشيرة والاقارب والانصار والاتباع
كما قال الكافرون نحن اكثر اموالا واولادا وكما قال المؤمنون لا نغلب اليوم من قلة وعلاجه ما ذكرنا
في الكبر وهو ان يتفكر في ضعفه وضعفهم وان كلهم عبيد عجزة لا يملكون لانفسهم ضرا ولا نفعا وكم من
فية قليلة غلبت فية كثيرة باذن الله ثم كيف يعجب بهم وانهم سيفترقون عنه اذا مات فيدفن في
قبره ذليلا مهينا وحده لا يرافقه ولد واهل وقريب وحميم وعشير فيسلمونه الى البلا والحيات والعقارب
والديدان ولا يغنون عنه شيئا وهو في احوج اوقاته اليهم وكذلك يهربون منه يوم القيمة يوم يفر المرء
من اخيه وامه وابيه وصاحبته وبنيه فاي خير فيمن يفارقك في اشد احوالك ويهرب منك وكيف يعجب
به ولا ينفعك في القبر والقيمة وعلى الصراط الا عملك وفضل الله تعالى فتتكل على من لا ينفعك وتنسا
نعم من يملك ضرك ونفعك وموتك وحياتك السابع العجب بالمال كما اخبر الله تعالى عن صاحب الجنتين
اذ قال انا اكثر منك مالا واعز نفرا وراى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا غنيا جلس الى جنبه فقير فانقبض
عنه وجمع ثيابه فقال عليه السلام اخشيت ان يعدو اليك فقره وذلك للعجب بالغنا وعلاجه ان
يتفكر في آفات المال وكثرة حقوقه وعظيم غوايله والى فضيلة الفقرا وسبقهم الى الجنة في القيمة
والى ان المال غاد ورايح ولا اصل له والى ان في اليهود من يزيد عليه في المال والى قوله عليه السلم
بينما رجل يتبختر في حلة له قد اعجبته نفسه اذ امر الله تعالى الارض فاخذته فهو يتجلجل فيها الى
يوم القيمة اشار به الى عقوبة اعجابه بماله ونفسه وقال ابو ذر كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم
فدخل المسجد فقال لي يا ابا ذر ارفع راسك فرفعت راسي فاذا رجل عليه ثياب جياد ثم قال لي
ارفع راسك فرفعت راسي فاذا رجل عليه خلقان فقال لي يا ابا ذر هذا عند الله خير من قراب
الارض مثل هذا وجميع ما ذكرناه في كتاب الزهد وكتاب ذم الدنيا وكتاب ذم المال يبين حقارة
الاغنيا وشرف الفقرا عند الله فكيف يتصور من المومن ان يعجب بثروته بل لا يخلو المومن عن
خوف من تقصيره في القيام بحقوق المال واخذه من حله ووضعه في حقه ومن لا يفعل ذلك
فمصيره الى الخزي والبوار فكيف يعجب بنفسه الثامن العجب بالراي الخطا قال الله تعالى افمن زين
له سوء عمله فراه حسنا وقال تعالى وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا وقد اخبر رسول الله صلى الله عليه
وسلم ان ذلك يغلب على آخر هذه الامة وبذلك هلكت الامم اذ افترقت فرقا وكل معجب برايه
وكل حزب بما لديهم فرحون وجميع اهل البدع والضلال انما اصروا عليه لعجبهم بارايهم والعجب
بالبدعة هو استحسان ما يسوق اليه الهوى والشبهة مع ظن كونه حقا وعلاج هذا العجب اشد من

غير لان صاحب الراي الخطا جاهل بخطا به ولو عرف لتركه ولا يعالج الداء الذي لا يعرف والجهل
داء لا يعرف فتعسر مداواته جدا الا ان العارف يقدر على ان يبين للجاهل جهله ويزيله عنه الا اذا
كان معجبا برايه وجهله فانه لا يصغي الي العارف ويتهمه فقد سلط الله تعالي عليه بلية تهلكه
وهو يظنها نعمة وكيف يمكن علاجه وكيف يطلب الهرب مما هو سبب سعادته ونجاته في اعتقاده
وانما علاجه على الجملة ان يكون متهما لرايه ابدا لا يغتر به الا ان يشهد له قاطع من كتاب او سنة
او دليل عقلي صحيح جامع لشروط الادلة ولن يعرف الانسان ادلة الشرع والعقل وشروطها
ومكامن الغلط فيها الا بقريحة تامة وعقل ثاقب محصل وتشمير في الطلب وممارسة الكتاب
والسنة ومجالسة لاهل العلم طول العمر ومدارسة العلوم ومع ذلك فلا يؤمن عليه الغلط في
بعض الامور والصواب لمن لم يتفرغ لاستغراق عمره في العلم ان لا يخوض في المذاهب ولا يصغي
اليها ولا يسمعها ولكن يعتقد ان الله واحد لا شريك له وانه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير وان
رسوله صادق فيما اخبر به ويتبع سنة السلف ويؤمن بجملة ما جاء به الكتاب والسنة من غير بحث
وتنقير وسؤال عن تفصيل بل يقول امنا وصدقنا ويشتغل بالتقوى واجتناب المعاصي واداء
الطاعات والشفقة على المسلمين وساير الاعمال فان خاض في المذاهب والبدع والتعصب
في العقايد هلك من حيث لا يشعر هذا حق كل من عزم على ان يشتغل في عمره بغير العلم
فاما الذي عزم على التجرد للعلم فاول مهم له معرفة الدليل وشروطه وذلك مما يطول الامر فيه
فالوصول الي اليقين والمعرفة في اكثر المطالب شديد لا يقدر عليه الا الاقوياء المؤيدون بنور الله
تعالي وهو عزيز الوجود جدا ونسال الله تعالي العصمة من الضلال ونعوذ به من الاغترار بخيالات الجهال

كمل الكتاب بمنه وكرمه وعونه وتاييده
والصلوة والسلام على محمد النبي واله

كتاب ذم الغرور

وهو الكتاب العاشر من ربع المهلكات من كتب احيا علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

الحمد لله الذي بيده مقاليد الامور وبقدرته مفاتيح الخيرات والشرور مخرج اوليايه من الظلمات
الي النور ومورد اعدايه ورطات الغرور والصلاة على محمد مخرج الخلايق من الديجور وعلى آله واصحابه
الذين لم تغرهم الحيوة الدنيا ولا يغرهم بالله الغرور صلوة تتوالي علي ممر الدهور ومكر الساعات والشهور
اما بعد فمفتاح السعادة التيقظ والفطنة ومنبع الشقاوة الغرور والغفلة
فلا نعمة لله علي عباده اعظم من الايمان والمعرفة ولا وسيلة اليه سوي انشراح الصدر بنور البصيرة
ولا نقمة اعظم من الكفر والمعصية ولا داعي اليهما سوي عمى القلب بظلمة الجهالة فالاكياس
وارباب البصاير قلوبهم كمشكوة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كانها كوكب دري
يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضي ولو لم تمسسه نار نور علي نور
والمغترون قلوبهم كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها
فوق بعض اذا اخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور والاكياس هم الذين اراد الله
تعالي ان يهديهم فشرح صدورهم للاسلام والهدي والمغترون هم الذين اراد ان يضلهم فجعل
صدورهم ضيقا حرجا كانما يصعد في السماء والمغرور هو الذي لم تنفتح بصيرته ليكون بهداية
نفسه كفيلا وبقي في العمى واتخذ الهوي قايدا والشيطان دليلا ومن كان في هذه اعمى فهو في
الآخرة اعمى واضل سبيلا واذا عرفت ان الغرور هو ام الشقاوات ومنبع المهلكات فلا بد من شرح
مداخله ومجاريه وتفصيل ما يكثر وقوع الغرور فيه ليحذره المريد بعد معرفته فيتقيه فالموفق من
العباد من عرف مداخل الآفات والفساد فاخذ منها حذره وبنا علي الحزم والبصيرة امره ونحن
نشرح اجناس مجاري الغرور واصناف المغترين من القضاة والعلماء والصالحين الذين اغتروا
بمبادي الامور الجميلة ظواهرها القبيحة سرايرها ونشير الي وجه اغترارهم بها وغفلتهم عنها فان
ذلك وان كان اكثر مما لا يحصى ولكن يمكن التنبيه علي امثلة يغني عن الاستقصاء وفرق المغترين
كثيرة ولكن يجمعهم اربعة اصناف الصنف الاول من العلماء والصنف الثاني من العباد
والصنف الثالث من المتصوفة والصنف الرابع من ارباب الاموال والمغترين من كل صنف
فرق وجهات غرورهم مختلفة فمنهم من رأى المنكر معروفا كالذي يتخذ المساجد ويزخرفها من المال

الحرام ومنهم من لم يميز بين ما يسعى فيه لنفسه وبين ما يسعى فيه لله كالواعظ الذي غرضه القبول والجاه
ومنهم من ترك الاهم واشتغل بغيره ومنهم من ترك الفرض ويشتغل بالنافلة ومنهم من ترك الاهم
اللباب ويشتغل بالقشر كالذي يكون همه في الصلوة مقصورا على تصحيح مخارج الحروف الى غير ذلك
من مداخل لا تتضح الا بتفصيل الفرق وضرب الامثلة ولنبدأ بغرور ذكر العلماء ولكن بعد بيان
ذم الغرور وبيان حقيقته وحده

بيان ذم الغرور وحقيقته وامثلته

اعلم ان قوله تعالى
لا تغرنكم الحيوة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور وقوله تعالى ولكنكم فتنتم انفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم
الاماني كاف في ذم الغرور وقد قال صلى الله عليه وسلم حبذا نوم الاكياس وفطرهم كيف يغبنون
سهر الحمقى واجتهادهم ولمثقال ذرة من صاحب تقوى ويقين افضل من ملء الارض من المغترين
وقال عليه السلام الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والاحمق من اتبع نفسه هواها وتمنى
على الله الاماني وكل ما ورد في فضل العلم وذم الجهل فهو دليل على ذم الغرور لان الغرور عبارة
عن بعض انواع الجهل اذ الجهل هو ان يعتقد الشيء ويراه على خلاف ما هو به والغرور هو
جهل الا ان كل جهل ليس بغرور بل يستدعي الغرور مغرورا فيه مخصوصا ومغرورا به هو الذي يغره
فمهما كان المجهول المعتقد شيئا يوافق الهوى وكان السبب الموجب للجهل شبهة ومخيلة
فاسدة يظن انها دليل ولا يكون دليلا سمي الجهل الحاصل به غرورا فالغرور هو سكون النفس
الى ما يوافق الهوى ويميل اليه الطبع عن شبهة وخدعة من الشيطان فمن اعتقد انه
على خير اما في العاجل او في الآجل عن شبهة فاسدة فهو مغرور واكثر الناس يظنون
بانفسهم الخير وهم مخطئون فيه فاكثر الناس اذا مغرورون وان اختلفت اصناف غرورهم
واختلفت درجاتها حتى كان غرور بعضهم اظهر واشد من بعض واظهرها واشدها غرور
الكفار وغرور العصاة والفساق فنورد لهما امثلة لحقيقة الغرور المثال الاول غرور الكفار
فمنهم من غرته الحيوة الدنيا ومنهم من غره بالله الغرور اما الذين غرتهم الحيوة الدنيا فهم الذين
قالوا النقد خير من النسيئة والدنيا نقد والآخرة نسيئة فاذا هو خير فلا بد من ايثارها
وقالوا اليقين خير من الشك ولذات الدنيا يقين ولذات الآخرة شك فلا نترك اليقين بالشك
وهذه اقيسة فاسدة تشبه قياس ابليس حيث قال انا خير منه خلقتني من نار وخلقته من
طين والى هؤلاء الاشارة بقوله تعالى الذين اشتروا الحيوة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم
العذاب ولا هم ينصرون وعلاج هذا الغرور اما بتصديق الايمان واما بالبرهان اما التصديق

بمجرد الايمان فهو ان يصدق الله تعالى في قوله وما عند الله خير وابقى وبقوله لا يغرنكم الحيوة الدنيا ولا يغرنكم
وبقوله والآخرة خير وابقى وبقوله وما الحيوة الدنيا الا متاع الغرور وقد اخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك
طوايف من الكفار فقلدوه وصدقوه وآمنوا به ولم يطالبوه بالبرهان ومنهم من قال نشدتك الله ابعثك
الله رسولا فكان يقول نعم فيصدق وهذا ايمان العامة وهو مخرج من الغرور وينزل هذا منزلة تصديق
الصبي والده في ان حضور المكتب خير من حضور الملعب مع انه لا يدري وجه كونه خيرا واما المعرفة بالبيان
والبرهان فهو ان يعرف وجه فساد هذا القياس الذي نظمه في قلبه الشيطان فان كل مغرور فللغرور
سبب وذلك السبب هو دليل وكل دليل فهو نوع قياس يقع في النفس ويورث السكون اليه وان
كان صاحبه لا يشعر به ولا يقدر على نظمه بالفاظ العلماء فالقياس الذي نظمه الشيطان فيه اصلان
احدهما ان الدنيا نقد والآخرة نسيئة وهذا صحيح والآخر قوله ان النقد خير من النسيئة وهذا محل
التلبيس وليس الامر كذلك بل ان كان النقد مثل النسيئة في المقدار والمقصود فهو خير وان كان
اقل منه فالنسيئة خير فان هذا الكافر المغرور يبذل في تجارته درهما ليأخذ عشرة نسيئة ولا يقول
النقد خير من النسيئة فلا اتركه واذا حذره الطبيب الفواكه ولذايذ الاطعمة تركه في الحال خوفا من الم
المرض في المستقبل وقد ترك النقد ورضي بالنسيئة والتجار كلهم يركبون البحار ويتعبون في الاسفار
نقدا لاجل الراحة والربح نسيئة فان كان عشرة في ثاني الحال خيرا من واحد في الحال فانسب لذة الدنيا
من حيث مدتها الى مدة الآخرة فان اقصى عمر الانسان مائة سنة وليس هذا عشر عشير من الف
الف جزو من الآخرة فكانه ترك واحدا ليأخذ الف الف بل ليأخذ ما لا نهاية له ولا حد وان نظر من
حيث النوع راى لذات الدنيا مكدرة مشوبة بالمنغصات ولذات الآخرة صافية غير مكدرة فاذا
قد غلط في قوله ان النقد خير من النسيئة وهذا غرور منشاه قبول لفظ عام مشهور اطلق واريد
به خاص فغفل المغرور عن خصوص معناه فان من قال النقد خير من النسيئة اراد به خيرا من نسيئة
مثلها وان لم يصرح به وعند هذا يفزع الشيطان الى القياس الآخر وهو ان اليقين خير من الشك
والآخرة شك وهذا القياس اكثر فسادا من الاول لان كلي اصليه باطل اذ اليقين خير من الشك اذا
كان مثله والا فالتاجر في تعبه على يقين وفي ربحه على شك والمتفقه في اجتهاده على يقين
وفي ادراكه رتبة العلم على شك والصياد في تردده في المقتنص على يقين وبالظفر بالصيد على
شك وكذلك داب العقلاء بالاتفاق وكل ذلك ترك اليقين بالشك ولكن التاجر يقول ان لم اتجر بقيت
جايعا وعظم ضرري وان اتجرت كان تعبي قليلا وربحي كثيرا وكذلك المريض يشرب الدواء البشع

الكريه وهو من الشفا، على شك ومن مرارة الدوا، على يقين ولكن يتقي لضرر مرارة الدوا، قريب بالاضافة
الى ما اخافه من المرض والموت فكذلك من شك في الآخرة فواجب عليه بحكم الحزم ان يقول الصبر اياما
قلايل وهو منتهى العمر قريب بالاضافة الى ما يقال من امر الآخرة فان كان ما قد قيل فيها كذبا فما
يفوتني الا التنعم ايام حيوتي وقد كنت من الازل الى الآن لا اتنعم فاحسب اني بقيت في العدم
وان كان ما قد قيل صدقا فابقى في النار ابد الآباد وهذا لا يطاق ولذلك قال علي رضي الله عنه لبعض
الملحدين ان كان ما قلته حقا فقد تخلصت وتخلصنا وان كان ما قلناه حقا فقد تخلصنا وهلكت
وما قال هذا عن شك منه في الآخرة ولكن كلم الملحد على قدر عقله وبين له وان لم يكن متيقنا فهو
مغرور واما الاصل الثاني من كلامه وهو ان الآخرة شك وهو ايضا خطا، بل ذلك يقين عند المؤمنين
وليقينه مدركان احدهما الايمان والتصديق تقليد الانبيا، والعلما، وذلك ايضا يزيل الغرور
وهو مدرك يقين العوام واكثر الخواص ومثالهم مثال مريض لا يعرف دوا، علته وقد اتفق الاطبا،
واهل الصناعة من عند آخرهم على ان دوا، النبت الفلاني فانه تطمين نفس المريض الى تصديقهم
ولا يطالبهم بتصحيح ذلك بالبراهين الطبية بل يثق بقولهم ويعمل به ولو بقي سوادي او معتوه يكذبهم
في ذلك وهو يعلم بالتواتر وقراين الاحوال انهم اكثر منه عددا واغزر منه فضلا واعلم بالطب منه
بل لا علم له بالطب فيعلم كذبه بقولهم ولا يعتقد كذبهم بقوله ولا يغتر في عمله بسببه ولو اعتمد على قوله
وترك قول الاطبا، كان معتوها مغرورا فكذلك من نظر الى المقرين بالآخرة والمخبرين عنها والقايلين
بان التقوى هو الدوا، النافع في الوصول الى سعادتها وجدهم خير خلق الله واعلاهم رتبة في البصيرة
والمعرفة والعقل فهم الانبيا، والاوليا، والحكما، والعلما، واتبعهم عليه الخلق على اصنافهم وشذ منهم
آحاد من البطالين غلبت عليهم الشهوة ومالت نفوسهم الى التمتع فعظم عليهم ترك الشهوات وعظم عليهم
الاعتراف بانهم من اهل النار فجحدوا الآخرة وكذبوا الانبيا، فكما ان قول الصبي وقول السوادي لا يزيل
طمانينة القلب الى ما اتفق عليه الاطبا، فكذلك قول هذا الغبي الذي استرقته الشهوات لا يشكك
في صحة اقوال الانبيا، والعلما، وهذا القدر كاف لجهلة الخلق وهو يقين جازم يستحث على العمل
لا محالة والغرور يزول به فاما المدرك الثاني لمعرفة الآخرة ولامور الدين تقليدا لجبريل بالسماع منه كما ان
معرفتك تقليدا للنبي حتى يكون معرفتك كمعرفته وانما يختلف المقلد فقط هيهات فان التقليد ليس بمعرفة
بل هو اعتقاد صحيح والانبيا، عارفون ومعنى معرفتهم انهم كشف لهم حقيقة الاشيا، كما هي عليها فشاهدوها
بالبصيرة الباطنة كما تشاهد انت المحسوسات بالبصيرة فيخبرون عن مشاهدة لا عن سماع وتقليد

وذلك بان يكشف لهم عن حقيقة الروح وانه من امر الله وليس المراد بكونه من امر الله الامر الذي يقابل النهي لان
ذلك الامر كلام والروح ليس بكلام وليس المراد الامر الشان حتى يكون المراد به انه من خلق الله فقط لان ذلك
عام في جميع المخلوقات بل العالم عالمان عالم الامر وعالم الخلق ولله الامر والخلق والاجسام ذوات الكمية
والمقادير من عالم الخلق اذ الخلق عبارة عن التقدير وفي وضع اللسان وكل موجود منزه عن الكمية
والمقدار فانه من عالم الامر وشرح ذلك سر الروح ولا رخصة في ذكره لاستضرار اكثر الخلق بسماعه كسر القدر
الذي منع من افشائه فمن عرف سر الروح فقد عرف نفسه واذا عرف نفسه عرف ربه فاذا عرف نفسه وربه
عرف انه امر رباني بطبعه وفطرته وانه في العالم الجسماني غريب وان هبوطه اليه لم يكن مقتضى طبعه في
ذاته بل بامر عارض غريب من ذاته وذلك العارض الغريب ورد على آدم عليه السلم وعبر عنه بالمعصية
وهي التي حطته من الجنة التي هي اليق به بمقتضى ذاته فانها في جوار الرب تعالى وانه امر رباني وحنينه
الى جوار الرب تعالى له طبعي ذاتي الا ان يصرفه عن مقتضى طبعه عوارض العالم الغريب من ذاته فينسى عند
ذلك نفسه وربه ومهما فعل ذلك فقد ظلم نفسه اذ قيل له ولا تكونوا كالذين نسوا الله فانسيهم انفسهم
اولئك هم الفاسقون اي الخارجون عن مقتضى طبعهم ومظنة استحقاقهم يقال فسقت الرطبة
عن كامها اذا خرجت عن معدنها الفطري وهذه اشارة الى اسرار تهتز لاستنشاق روايحها العارفون
ويتم عن سماع الفاظها القاصرون فانها تضربهم كما تضر روايح الورد بالجعل وتبهر اعينهم الضعيفة
كما تبهر الشمس ابصار الخفافيش وانفتاح هذا الباب من سر القلب الى عالم الملكوت يسمى معرفة
وولاية ويسمى صاحبه وليا وعارفا وهي مبادي مقامات الانبياء وآخر مقامات الاولياء اول مقامات
الانبياء ولنرجع الى الغرض والمقصود ان غرور الشيطان بان الآخرة شك يدفع اما بيقين تقليدي
واما ببصيرة ومشاهدة من جهة الباطن والمومنون بالسنتهم وعقايدهم اذا ضيعوا اوامر الله وهجروا
الاعمال الصالحة ولابسوا الشهوات والمعاصي فهم مشاركون للكفار في هذا الغرور لانهم اثروا الحيوة
الدنيا على الآخرة نعم امرهم اخف لان اصل الايمان يعصمهم عن عقاب الابد فيخرجون من النار
ولو بعد حين ولكنهم ايضا من المغرورين فانهم اعترفوا بان الآخرة خير من الدنيا ولكنهم مالوا الى الدنيا
وآثروها ومجرد الايمان لا يكفي للفوز قال الله تعالى واني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى
وقال ان رحمة الله قريب من المحسنين ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم الاحسان ان تعبد الله كانك تراه وقال
والعصر ان الانسان لفي خسر الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فوعد المغفرة في جميع كتاب الله منوط بالايمان
والعمل الصالح جميعا لا بالايمان وحده فهولا ايضا مغرورون اعني المطمئنين الى الدنيا الفرحين بها

المترفهين بنعيمها المحبين لها الكارهين للموت خيفة فوات لذات الدنيا دون الكارهين له خيفة لما بعده
فهذه امثال الغرور بالدنيا من الكفار والمومنين جميعا ولنذكر للغرور بالله مثالين من غرور الكافرين
والمومنين اما غرور الكفار بالله فمثاله قول بعضهم في انفسهم وبالسنتهم انه ان كان لله من معاد فنحن
احق به من غيرنا ونحن اوفر حظا فيه واسعد حالا كما اخبر الله تعالى عنه من قول الرجلين المتحاورين
اذ قال وما اظن الساعة قايمة ولين رددت الي ربي لاجدن خيرا منها منقلبا وجملة امرهما كما نقل في
التفسير ان الكافر بنا قصرا بالف دينار واشترى بستانا بالف دينار وخدما بالف دينار وتزوج امراة
علي الف دينار وفي ذلك كله يعظه المومن ويقول اشتريت قصرا يخرب ويفنى الا اشتريت قصرا في الجنة
واشتريت بستانا يخرب ويفنى الا اشتريت بستانا في الجنة لا يفنى وخدما لا يفنون ولا يموتون وزوجة
من الحور العين لا تموت وفي ذلك يرد عليه الكافر ويقول ما هناك شي وما قيل من ذلك فهو اكاذيب
وان كان ليكونن لي في الاخرة خير من هذا وكذلك وصف الله تعالى قول العاص بن وايل اذ يقول لاوتين
مالا وولدا قال الله تعالى ردا عليه اطلع الغيب ام اتخذ عند الرحمن عهدا وروي خباب بن الارت
انه كان لي على العاص بن وايل دين فجيت اتقاضاه فلم يقض فقلت اني اخذه في الاخرة فقال اذا
صرت الى الاخرة فان لي هناك مالا وولدا فاقضيك منه فانزل الله تعالى قوله افرايت الذي كفر باياتنا
وقال لاوتين مالا وولدا وقال تعالى ولين اذقناه رحمة منا من بعد ضرا مسته ليقولن هذا لي
وما اظن الساعة قايمة ولين رجعت الى ربي وهذا كله من الغرور بالله وسببه قياس من اقيسة
ابليس وذلك لانهم ينظرون مرة الى نعم الله تعالى عليهم في الدنيا فيقيسون عليه نعمة الاخرة كما قال
تعالى ويقولون لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبيس المصير وينظرون الى المومنين
وهم فقرا شعث غبر فيزدرون بهم ويستحقرونهم فيقولون اهولاء من الله عليهم من بيننا ويقولون
لو كان خيرا ما سبقونا اليه وترتيب القياس الذي نظم في قلوبهم انهم يقولون قد احسن الله الينا
بنعيم الدنيا وكل محسن فهو محب وكل محب فانه يحسن في المستقبل ايضا كما قال الشاعر
لقد احسن الله فيما مضى كذلك يحسن فيما بقي وانما نقيس المستقبل على الماضي بواسطة الكرامة
والحب اذ يقول لولا اني كريم عند الله تعالى ومحبوب لما احسن الي والتلبيس تحت ظنه ان كل محسن
محب لا بل تحت ظنه ان انعامه عليه في الدنيا احسان فقد اغتر بالله تعالى اذ ظن انه كريم عنده بدليل
لا يدل على الكرامة بل عند ذوي البصاير يدل على الهوان ومثاله ان يكون للرجل عبدان صغيران يبغض
احدهما ويحب الاخر فالذي يحبه يمنعه من اللعب ويلزمه المكتب ويحبسه فيه ليعلمه الادب ويمنعه

من الفواكه وملاذ الاطعمة التي تضره ويسقيه الادوية التي تنفعه والذي يبغضه يهمله ليعيش كيف
يريد فيلعب ولا يدخل المكتب ويأكل كلما اشتهى فيظن هذا العبد المهمل انه عند سيده محبوب كريم
لانه مكنه من شهواته ولذاته وساعده على جميع اغراضه فلم يمنعه ولم يحجر عليه وذلك محض الغرور
وهكذا نعيم الدنيا فانها مهلكات ومبعدات من الله وان الله يحمي عبده الدنيا وهو يحبه كما يحمي احدكم
مريضه الطعام والشراب وهو يحبه هكذا ورد في الخبر وكان ارباب البصاير اذا اقبلت الدنيا حزنوا
وقالوا ذنب عجلت عقوبته وراوا ذلك علامة المقت والاهمال واذا اقبل الفقر قالوا مرحبا بشعار
الصالحين والمغرور اذا اقبلت عليه الدنيا ظن انه كرامة من الله واذا صرفت عنه ظن انه هوان كما اخبر
الله تعالى عنه اذ قال فاما الانسان اذا ما ابتلاه ربه فاكرمه ونعمه فيقول ربي اكرمن واما اذا ما ابتليه
فقدر عليه رزقه فيقول ربي اهانن كلا بين ان ذلك غرور قال الحسن كذبهما جميعا بقوله كلا يقول ليس
هذا بكرامتي ولا هذا بهواني ولكن الكريم من اكرمته بطاعتي غنيا كان او فقيرا وهذا الغرور علاجه
معرفة دلايل الكرامة والهوان اما بالبصيرة واما بالتقليد اما بالبصيرة فبان يعرف وجه كون الالتفات
الى شهوات الدنيا مبعدا عن الله ووجه كون التباعد عنها مقربا الى الله ويدرك ذلك بالالهام في منازل
العارفين والاولياء وشرحه من جملة علوم المكاشفة ولا يليق بعلم المعاملة واما معرفته بطريق
التقليد والتصديق فهو ان يؤمن بكتاب الله ويصدق رسوله وقد قال الله تعالى ايحسبون انما نمدهم به
من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون وقال تعالى سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وقوله
فتحنا عليهم ابواب كل شيء حتى اذا فرحوا بما اوتوا اخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون وفي تفسير قوله
سنستدرجهم انهم كلما احدثوا ذنبا احدثنا لهم نعمة ليزيد غرورهم وقال تعالى انما نملي لهم ليزدادوا
اثما وقال ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون انما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الابصار الى غير ذلك مما ورد
في كتاب الله وسنة رسوله فمن امن به تخلص من هذا الغرور فان منشاء هذا الغرور الجهل بالله وبصفاته
فان من عرفه لا يامن مكره ولا يغتر به بامثال هذه الخيالات وينظر الى فرعون وقارون والى ملوك
الارض كيف احسن اليهم ابتداء ثم دمرهم تدميرا وقد حذر الله تعالى من مكره واستدراجه فقال تعالى فلا يامن
مكر الله الا القوم الخاسرون وقال ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وقال والله خير الماكرين وقال انهم يكيدون
كيدا واكيد كيدا فمهل الكافرين امهلهم رويدا فكما لا يجوز للعبد المهمل ان يستدل باهمال السيد
اياه وتمكينه من النعم على حب السيد بل ينبغي ان يحذر ان يكون ذلك مكرا منه مع ان السيد لم يحذره
مكر نفسه فبان يجب ذلك في حق الله مع تحذيره واستدراجه اولى فاذا امن مكر الله فهو مغتر ومنشاء هذا

الغرور انه استدل بنعم الدنيا على انه كريم عند المنعم واحتمل ان يكون ذلك دليل الهوان ولكن ذلك الاحتمال
لا يوافق الهوى فالشيطان بواسطة الهوى يميل بالقلب الى ما يوافقه وهو التصديق بدلالته على
الكرامة وهذا هو حد الغرور المثال الثاني هو غرور العصاة من المؤمنين بقولهم ان الله كريم وانا نرجوا
عفوه واتكالهم على ذلك واهمالهم الاعمال وتحسين ذلك بتسمية تمنيهم واغترارهم رجاء وظنهم ان الرجاء
مقام محمود في الدين وان نعمة الله واسعة ورحمته شاملة وكرمه عميم واين معاصي العباد في بحار رحمته
وانا موحدون ومؤمنون فنرجوه بوسيلة الايمان وربما كان مستند رجائهم التمسك بصلاح الاباء وعلو
رتبتهم كاغترار العلوية بنسبهم ومخالفتهم سيرة آبائهم في الخوف والتقوى والورع وظنهم انهم اكرم على الله
من آبائهم اذ آباؤهم مع غاية التقوى والورع كانوا خائفين وهم مع غاية الفجور والفسق آمنون وذلك
نهاية الاغترار بالله فقياس الشيطان للعلوية ان من احب انسانا احب اولاده وان الله تع قد احب اباكم
فيحبكم ولا تحتاجون الى الطاعة وينسى المغرور ان نوحا عليه السلام اراد ان يستصحب ولده في
السفينة فقال تعالى ان ابني من اهلي فقال انه ليس من اهلك انه عمل غير صالح وان ابرهيم عليه السلم
استغفر لابيه فلم ينفعه وان نبينا صلى الله عليه وسلم استاذن ربه في ان يزور قبر امه ويستغفر لها
فاذن له في الزيارة ولم يؤذن في الاستغفار فجعل يبكي على قبر امه لرقته لها بسبب القرابة وهذا ايضا
اغترار بالله تعالى وهذا لان الله يحب المطيع ويبغض العاصي فكما انه لا يبغض الاب المطيع ببغضه
للولد العاصي فكذلك لا يحب الولد العاصي بحبه الاب المطيع ولو كان الحب يسري من الاب الى الولد
لاوشك ان يسري البغض ايضا بل الحق ان لا تزر وازرة وزر اخرى ومن ظن انه ينجو بتقوى ابيه كمن ظن
انه يشبع باكل ابيه ويروى بشرب ابيه ويصير عالما بتعلم ابيه ويصل الى الكعبة ويراها بمشي ابيه
فالتقوى فرض عين فلا يجزي فيه والد عن ولده شيئا وعند الله جزاء التقوى يوم يفر المرء من اخيه وامه وابيه
الا على سبيل الشفاعة لمن لم يشتد غضب الله عليه فاذن في الشفاعة له كما سبق في كتاب الكبر
والعجب فان قلت فاين الغلط في قول العصاة والفجار ان الله كريم وانا نرجوا مغفرته ورحمته
فما هذا الكلام صحيح مقبول في القلوب فاعلم ان الشيطان لا يغوي على الانسان الا بكلام مقبول الظاهر
مردود الباطن ولولا حسن ظاهره لما انخدعت له القلوب ولكن النبي عليه السلام كشف ذلك فقال
الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والاحمق من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله وهذا هو التمني
على الله غير الشيطان اسمه فسماه رجاء حتى خدع به الجهال وقد شرح الله تعالى الرجاء فقال ان الذين
آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله اولئك يرجون رحمة الله يعني ان الرجاء بهم يليق وهنا

لانه ذكر ان ثواب الآخرة اجر وجزاء على الاعمال قال تعالى جزاء بما كانوا يعملون وقال تعالى وانما توفون
اجوركم يوم القيمة فترى من استاجر على اصلاح اواني وشرط له اجرة عليها وكان الشارط كريما يفي
بالوعد اذا وعد ولا يخلفه بل يزيد فجاء الاجير وكسر الاواني وافسد جميعها ثم جلس ينتظر الاجر ويزعم ان
المستاجر كريم افتراه العقلاء في انتظاره متمنيا مغرورا او راجيا وهذا للجهل بالفرق بين الرجاء وبين
الغرة وقيل للحسن ان قوما يقولون نرجوا الله ويضيعون العمل فقال هيهات هيهات تلك امانيهم
يترجحون فيها من رجا شيئا طلبه ومن خاف شيئا هرب منه وقال مسلم بن يسار لقد سجدت البارحة
حتى سقطت ثنيتاي فقال له رجل انا لنرجوا الله فقال مسلم هيهات هيهات من رجا شيئا طلبه
ومن خاف شيئا هرب منه وكما ان الذي يرجوا في الدنيا ولدا فهو بعد لم ينكح او نكح ولم يجامع او جامع
ولم ينزل وهو معتوه فكذلك من رجا رحمة الله وهو لم يؤمن او امن ولم يعمل صالحا او عمل ولم يترك المعاصي
فهو مغرور وكما انه اذا نكح ووطىء وانزل بقي مترددا في الولد يخاف ويرجوا فضل الله في خلق الولد ودفع
الآفات عن الرحم وعن الام الى ان يتم فهو كيس فكذلك اذا امن وعمل الصالحات وترك السيآت
بقي مترددا بين الخوف والرجاء يخاف ان لا يقبل منه وان لا يدوم عليه وان يختم له بالسوء ويرجو من
فضل الله تعالى ان يثبته بالقول الثابت ويحفظ دينه من صواعق سكرات الموت حتى يموت على
التوحيد ويحرس قلبه عن الميل الى الشهوات بقية عمره حتى لا يميل الى المعاصي فهو كيس ومن عدا
هولاء فهم المغرورون بالله وسوف يعلمون حين يرون العذاب من اضل سبيلا ولتعلمن نبأه بعد
حين وعند ذلك يقولون ربنا ابصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا اي علمنا انه كما لا يولد ولد الا بوقاع
ونكاح ولا ينبت زرع الا بحراثة وبث بذر فكذلك لا يحصل في الآخرة اجر وثواب الا بعمل صالح فارجعنا
نعمل صالحا فقد علمنا الآن صدقك في قولك وان ليس للانسان الا ما سعى وان سعيه سوف يرى وكلما
القي فيها فوج سالهم خزنتها الم ياتكم نذير الم يسمعكم سنة الله في عباده وانه يوفي كل نفس ما كسبت
وان كل نفس بما كسبت رهينة فما الذي غركم بالله بعد ان سمعتم وعقلتم وقالوا لو كنا نسمع او نعقل
ما كنا في اصحاب السعير فاعترفوا بذنبهم فسحقا لاصحاب السعير فان قلت فاين مظنة الرجاء وموضعه
المحمود فاعلم انه محمود في موضعين احدهما في حق العاصي المنهمك اذا خطر له التوبة فقال الشيطان
واني تقبل توبتك فيقنطه من رحمة الله فيجب عند هذا ان يقمع القنوط بالرجاء ويتذكر ان الله
كريم يقبل التوبة من عباده وان التوبة طاعة تكفر الذنوب قال الله تعالى يا عبادي الذين اسرفوا على
انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا انه هو الغفور الرحيم وانيبوا الى ربكم امرهم

بالانابة وقال تعالى واني لغفار لمن تاب فاذا توقع المغفرة على التوبة فهو راج فان توقع المغفرة مع
الاصرار فهو مغرور كما ان من ضاق عليه وقت الجمعة وهو في السوق فيخطر له ان يسعى الى الجمعة فقال
له الشيطان لا تدرك الجمعة فاقم على موضعك فكذب الشيطان وقام يعدو وهو يرجو ادراك الجمعة
فهو راج وان استمر على التجارة واخذ يرجو تاخير الامام الصلاة لاجله الى وسط الوقت او لاجل غيره
او لسبب من الاسباب الذي لا يعرفه فهو مغرور والثاني ان تفتر نفسه عن فضائل الاعمال ويقتصر على الفرائض
فيرجي نفسه نعيم الله تعالى وما وعد به الصالحين حتى ينبعث من الرجاء نشاط العبادة فيقبل على
الفضائل ويتذكر قوله تعالى قد افلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون الى قوله اولئك هم الوارثون
الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون فالرجاء الاول يقمع القنوط المانع من التوبة والرجاء الثاني
يمنع الفتور المانع من النشاط وكل توقع حث على توبة وعلى تشمر في العبادة فهو رجاء وكل توقع
اوجب فتورا في العبادة وركونا الى البطالة فهو غرة كما اذا خطر له ان يترك الذنب ويشتغل بالعمل
فيقول له الشيطان ما لك ولايذاء نفسك وتعذيبها ولك رب كريم غفور رحيم فيفتر عن التوبة والعبادة
فهي الغرة وعند هذا واجب على العبد ان يستعمل الخوف فيخوف نفسه بغضب الله وعظم عقابه
ويقول مع انه غافر الذنب شديد العقاب وانه مع انه كريم خلد الكفار في النار ابد الآباد مع انه لم
يضره كفرهم بل سلط العذاب والمحن والامراض والعلل والفقر والجوع على جملة من عباده في الدنيا
وهو قادر على ازالتها فمن هذه سنته في عباده وقد خوفني عقابه فكيف لا اخافه واغتر به
فالخوف والرجاء قائدان وسائقان يبعثان على العمل فما لا يبعث على العمل فهو تمني وغرور
ورجاء كافة الخلق هو سبب فتورهم وسبب اقبالهم على الدنيا واعراضهم عن الله تعالى واهمالهم
السعي للآخرة فذلك غرور وقد اخبر النبي صلى الله عليه وسلم وذكر ان الغرور سيغلب على آخر هذه
الامة وقد كان ما وعد به صلى الله عليه وسلم فقد كان الناس في الاعصار الاول يواظبون على
العبادات ويؤتون ما اتوا وقلوبهم وجلة يخافون على انفسهم وهم طول الليل والنهار في طاعة
الله تعالى يبالغون في التقوى والحذر من الشبهات والشهوات ويبكون على انفسهم في الخلوات
واما الآن فترى الخلق آمنين مسرورين مطمئنين غير خائفين مع اكبابهم على المعاصي وانهماكهم
في الدنيا واعراضهم عن الله تعالى زاعمين انا واثقين بكرم الله تعالى وفضله راجون لعفوه ومغفرته
كانهم يزعمون انهم عرفوا من كرم الله وفضله ما لم تعرفه الانبياء والصحابة والسلف الصالحون فان
كان هذا الامر يدرك بالتمني وينال بالهوينا فعلى ماذا كان بكاء اولئك وخوفهم وحزنهم وقد ذكرنا

تحقيق هذه الامور في كتاب الرجاء والخوف وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه معقل بن
يسار ياتي على الناس زمان يخلق فيه القرآن في قلوب الرجال كما يخلق الثياب على الابدان يكون
امرهم كله طمعا لا خوف معه ان احسن احدهم قال يتقبل مني وان اسا قال يغفر لي فاخبر انهم
يظعون الطمع موضع الخوف لجهلهم بتخويفات القرآن وما فيه وبمثله اخبر عن النصارى اذ قال
تعالى فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب ياخذون عرض هذا الادنى ويقولون سيغفر لنا
ومعناه انهم ورثوا الكتاب اي هم علماء وياخذون عرض هذا الدنيا اي شهواتهم من الدنيا حلالا
كان او حراما وقد قال تعالى ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيدي والقرآن من اوله الى آخره
تخويف وتحذير لا يتفكر متفكر الا ويطول حزنه ويعظم خوفه ان كان مومنا بما فيه وترى الناس
يهدونه هذا يخرجون الحروف من مخارجها ويتناظرون على رفعها وخفضها ونصبها وكانهم
يقرون شعرا من اشعار العرب لا يهمهم الالتفات الى معانيها والعمل بما فيها وهل في العالم
غرور يزيد على هذا فهذه امثلة الغرور بالله وبيان الفرق بين الرجاء والغرور ويقرب منه طوائف
طاعات ومعاصي الا ان معاصيهم اكثر وهم يتوقعون المغفرة ويظنون انهم ترجح كفة حسناتهم
مع ان ما في كفة السيئات اكثر فهذا غاية الجهل فترى الواحد يتصدق بدراهم معدودة
من الحلال والحرام ويكون ما يتناول من اموال المسلمين والشبهات اضعافه ولعل ما تصدق
به من اموال المسلمين وهو يتكل عليه ويظن ان كل الف درهم حرام لا يقاومه التصدق بعشرة
من الحلال او الحرام وما هو الا كمن وضع عشرة دنانير في كفة ميزان وفي الاخرى الف واراد
ان تشيل الكفة الثقيلة بالكفة الخفيفة وذلك غاية جهله ومنهم من يظن ان طاعاته
اكثر من معاصيه لانه لا يحاسب نفسه ولا يتفقد معاصيه واذا عمل طاعة حفظها واعتد
بها كالذي يستغفر الله بلسانه او يسبح له مائة مرة ثم يغتاب المسلمين ويمزق اعراضهم
ويتكلم بما لا يرضاه الله طول النهار من غير حصر وعدد ويكون نظره الى عدد تسبيحه انه استغفر
مائة مرة ويغفل عن هذيانه طول نهاره الذي لو كتبها لكان مثل تسبيحه مائة مرة او الف
مرة وقد كتبها الكرام الكاتبون وقد وعده الله تعالى العذاب على كل كلمة وقال تعالى ما
يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد فهو ابدا يتامل في فضائل التسبيحات والتهليلات
ولا يلتفت الى ما ورد في عقوبة المغتابين والكذابين والنمامين والمنافقين بذكر ما لا
يضمرونه الى غير ذلك من آفات اللسان وذلك محض الغرور ولعمري لو كانت الكرام الكاتبون

يطلبون منه اجرة النسخ لما يكتبونه من هذيانه الذي زاد على تسبيحه لكان عند ذلك يكف لسانه
حتى عن جملة من مهماته وما نطق به في لسانه كان بعدها ويحسبها ويوازنها بتسبيحاته حتى لا
يفضل عليه اجرة نسخه فيا عجبا لمن يحاسب نفسه ويحتاط خوفا على قيراط يفوته في الآخرة
على النسخ ولا يحتاط خوفا عن فوت الفردوس الاعلى ونعيمها ما هذه الا مصيبة عظيمة لمن تفكر
فيها فقد دفعنا الى امر ان شككنا فيه كنا من الكفرة الجاحدين وان صدقنا به كنا من الحمقاء
المغرورين فما هذه اعمال من يصدق بما جاء به القرآن وانا نبرأ الى الله ان نكون من اهل الكفران
فسبحان من صدنا عن التنبه واليقين مع هذا البيان وما اجدر من يقدر على تسليط مثل
هذه الغفلة والغرور على القلوب ان يخشى ويتقى ولا يغتر به اتكالا على اباطيل المنى وتعاليل
الشيطان والهوى بيان اصناف المغترين واقسام فرق كل صنف الصنف الاول
اهل العلم والمغترون منهم فرق ففرقة احكموا العلوم الشرعية والعقلية وتعمقوا فيها واشتغلوا
بها واهملوا تفقد الجوارح وحفظها عن المعاصي والزامها الطاعات واغتروا بعلمهم فظنوا
انهم عند الله بمكان وانهم قد بلغوا من العلم مبلغا لا يعذب الله مثلهم فلم يقبل في الخلق
شفاعتهم وانه لا يطالبهم بذنوبهم وخطاياهم لكرامتهم على الله وهم مغرورون فانهم لو نظروا
بعين البصيرة علموا ان العلم علمان علم معاملة وعلم مكاشفة وهو العلم بالله تعالى وبصفاته
المسمى بالعادة علم المعرفة فاما العلم بالمعاملة كمعرفة الحلال والحرام ومعرفة اخلاق النفس
المذمومة والمحمودة وكيفية علاجها والفرار منها فهي علوم لا تراد الا للعمل ولولا الحاجة الى العمل
لم يكن لهذه العلوم قيمة وكل علم يراد للعمل فلا قيمة له دون العمل فمثال هذا كمريض به علة لا يزيلها
الا دواء مركب من اخلاط كثيرة لا يعرفها الا حذاق الاطباء فسعى في طلب الطبيب بعد ان هاجر
عن وطنه حتى عثر على طبيب حاذق فعلمه الدواء وفصل له الاخلاط وانواعها ومقاديرها ومعادنها
التي منها تجلب وعلمه كيفية دق كل واحد منها وكيف الخلط والعجن فتعلم ذلك منه وكتب
منه نسخة حسنة بخط حسن ورجع الى بيته وهو يكررها ويقرؤها ويعلمها المرضى ولم يشتغل
لشربها واستعمالها افترى ان ذلك يغني عنه من مرضه شيئا هيهات لو كتب منه الف نسخة وعلمه
الف مريض حتى شفى جميعهم وكرره كل ليلة الف مرة لم يغنه ذلك من مرضه شيئا الى ان يزن
الذهب ويشتري الدواء ويخلطه كما تعلم ويشربه ويصبر على مرارته ويكون شربه في وقته وبعد
تقديم الاحتماء وجميع شروطه واذا فعل ذلك فهو على خطر من شفائه فكيف اذا لم يشربه اصلا

فهاظن ان ذلك يكفيه ويشفيه فقد ظهر غروره وهكذا الفقيه الذي احكم علم الطاعات ولم
يعملها واحكم علم المعاصي ولم يجتنبها واحكم علم الاخلاق المذموم وما زكى نفسه منها واحكم علم
الاخلاق المذمومة وما زكى المحمودة ولم يتصف بها فهو مغرور اذ قال الله تعالى قد افلح من زكيها
ولم يقل قد افلح من يعلم كيفية تزكيتها وكتب علمها وعلمها الناس وعند هذا يقول له الشيطان
لا يغرنك هذا المثال فان العلم بالدواء لا يزيل المرض وانما مطلبك القرب من الله وثوابه
والعلم الثواب ويتلو عليه الاخبار الواردة في فضل العلم فان كان المسكين معتوها مغرورا
وافق ذلك هواه فاطمان اليه واهمل العمل وان كان كيسا فيقول للشيطان اتذكرني فضائل
العلم وتنسيني ما ورد في العالم الفاجر الذي لا يعمل بعلمه كقوله تعالى فمثله كمثل الكلب وكقوله
تعالى مثل الذين حملوا التورية ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل اسفارا فاي خزي اعظم من التمثيل
بالحمار والكلب وقد قال صلى الله عليه وسلم من ازداد علما ولم يزدد هدى لم يزدد من الله الا
بعدا وقال عليه السلم يلقى العالم في النار فتندلق اقتابه فيدور بها كما يدور الحمار في الرحا وكقوله
عليه السلم شر الناس علماء السوء وقول ابي الدرداء ويل للذي لا يعلم ولو شاء الله لعلمه وويل
للذي يعلم سبع مرات اي ان العلم حجة عليه اذ يقال له ماذا عملت فيما علمت وكيف قضيت شكر الله
وقال صلى الله عليه وسلم اشد الناس عذابا يوم القيمة عالم لم ينفعه الله بعلمه وهذا وامثاله مما اوردناه في
كتاب العلم في باب علامات علماء الآخرة اكثر من ان يحصى الا انها لا يوافق هوى العالم الفاجر
وما ورد في فضائل العلم يوافقه فيميل الشيطان قلبه الى ما يهواه وذلك عين الغرور فانه ان
نظر بالبصيرة فمثاله ما ذكرناه وان نظر بعين الايمان فالذي اخبره بفضيلة العلم هو الذي اخبره
بذم العلماء السوء وان حالهم عند الله اشد من حال الجهال فبعد ذلك اعتقاده انه على خير مع
تاكد حجة الله عليه غاية الغرور فاما الذي يدعي علوم المكاشفة كالعلم بالله وصفاته واسمائه
وهو مع ذلك يهمل العمل وتضييع امر الله وحدوده فغروره اشد فمثاله من اراد خدمة ملك فعرف
الملك وعرف اخلاقه واوصافه ولونه وشكله وطوله وعرضه وعادته ومجلسه ولم يتعرف ما يحبه
ويكرهه وما يغضب عليه وما يرضى به او عرف ذلك الا انه قصد خدمته وهو ملابس لجميع
ما يغضب به وعاطل عن جميع ما يحبه من زي وهيئة وكلام وحركة وسكون فورد على الملك وهو
يريد التقرب منه والاختصاص به متلطخا بجميع ما يكرهه الملك عاطلا عن جميع ما يحبه متوسلا
بمعرفته له ونسبه واسمه وبلده وشكله وصورته وعادته في سياسة غلمانه ومعاملة رعيته فهذا

مغرورا احدا اذ لو ترك جميع ما عرفه واشتغل بمعرفته فقط ومعرفة ما يحبه ويكرهه لكان ذلك اقرب
الي نيله المراد من قربه والاختصاص به بل تقصيره في التقوي واتباعه للشهوات يدل علي انه لم ينكشف
له من معرفة الله تعالي الا الاسامي دون المعاني اذ لو عرف الله حق معرفته لخشيه واتقاه ولا
ان يعرف الاسد غافل ثم لا يتقيه ولا يخافه وقد اوحي الله تعالي الي داود عليه السلام خفني كما
تخاف السبع الضاري نعم من يعرف من الاسد كونه وشكله واسمه قد لا يخافه فكانه ما عرف
الاسد فمن عرف الله عرف من صفاته انه يهلك العالمين ولا يبالي ويعلم انه مسخر في قدرة
من لو اهلك مثله الافا مؤلفة وابد عليهم العذاب ابد الاباد لم يؤثر ذلك فيه اثرا ولم ياخذه
عليه رقة ولا اعترا جزع ولهذا قال تعالي انما يخشى الله من عباده العلماء وفاتحة الزبور راس
الحكمة خشية الله وقال ابن مسعود كفى بخشية الله علما وكفى بالاغترار بالله جهلا وا سئل الحسن
عن مسئلة فاجاب فقيل ان فقهاءنا لا يقولون ذلك فقال وهل رايت فقيها قط الفقيه القائم
ليله الصائم نهاره الزاهد في الدنيا وقال مرة الفقيه يداري ولا يماري ينشر حكمة الله فان قبلت
منه حمد الله وان ردت حمد الله فاذا الفقيه من فقه عن الله امره ونهيه وعلم من صفاته ما كرهه
وما احبه وهو العالم ومن يرد الله به خيرا يفقهه في الدين فاذا لم يكن بهذه الصفة فهو من
المغرورين وفرقة اخرى احكموا العلم والعمل فواظبوا علي الطاعات الظاهرة وتركوا المعاصي
الا انهم لم يتفقدوا قلوبهم ليمحوا عنها الصفات المذمومة عند الله من الكبر والحسد والرياء
وطلب الرياسة والعلا وارادة السوء الاقران والشركاء وطلب الشهرة في البلاد والعباد وربما
لم يعرف بعضهم ان ذلك مذموم فهو مكب عليها غير محترز عنها ولا يلتفت الي قوله صلى الله عليه وسلم
ادنا الرياء الشرك والي قوله عليه السلام لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر والي قوله
عليه السلام الحسد ياكل الحسنات كما تاكل النار الحطب والي قوله عليه السلام حب المال
والشرف ينبتان النفاق كما ينبت الماء البقل الي غير ذلك من الاخبار التي اوردناها في
جميع ربع المهلكات في الاخلاق المذمومة فهولاء زينوا ظواهرهم واهملوا بواطنهم ونسوا قوله
عليه السلام ان الله لا ينظر الي صوركم ولا الي اموالكم وانما ينظر الي قلوبكم واعمالكم فتعهدوا
الاعمال وما تعهدوا القلوب والقلب هو الاصل اذ لا ينجوا الا من اتى الله بقلب سليم فمثال
هولاء كمثل حش ظاهرها جص وباطنها نتن وكقبور الموتى ظاهرها مزينة وباطنها جيفة
وكبيت مظلم باطنه وضع السراج علي ظاهره حتى استنار ظاهره وكرجل قصد ضيافة الملك الي

داره فجصص باب داره وترك المزابل في صدر داره ولا يخفي ان ذلك غرور بل اقرب مثال اليه رجل
زرع زرعا فنبت ونبت معه حشيش يفسده فامر بتنقية الزرع عن الحشيش بقلعه من اصله
فاخذ يجز راسه ويقطعه فلا يزال يقوي اصله وينبت لان مغارس المعاصي هي الاخلاق الذميمة
في القلب فمن لا يطهر القلب منها لم يتم له الطاعات الظاهرة الا مع الآفات الكثيرة بل هو كمريض
ظهر به الجرب وقد امر بالطلاء وترك الدواء وبقي يتناول ما يزيد في المادة فلا يزال يطلي الظاهر
والجرب دايم به ينفجر من المادة التي في الباطن وفرقة اخرى علموا هذه الاخلاق الباطنة وعلموا
انها مذمومة من جهة الشرع الا انهم لعجبهم بانفسهم يظنون انهم منفكون عنها وانهم ارفع عند
الله من ان يبتليهم بذلك وانما يبتلى به العوام دون من بلغ مبلغهم في العلم فاما هو فاعظم
عند الله من ان يبتليه ثم اذا ظهر عليه مخايل الكبر والرياسة وطلب العلو والشرف قال ما هذا
كبر وانما هو طلب عز الدين واظهار شرف العلم ونصرة دين الله وارغام انف المخالفين من المبتدعين
راي لو لبست الدون من الثياب وجلست في الدون من المجلس شمتت اعداء الدين وفرحوا به
وكان ذلي ذلا على الاسلام ونسي المغرورات عدوه الذي حذره مولاه الشيطان وانه يفرح بما
يفعله ويسخر به وينسى ان النبي صلى الله عليه وسلم بماذا نصر الدين وبماذا ارغم الكافرين وينسى ما
راي من الصحابة من التواضع والذل والقناعة بالفقر والمسكنة حتى عوتب عمر رضي الله عنه
في بذاذة زيه عند قدومه الى الشام فقال انا قوم اعزنا الله بالاسلام فلا نطلب العز في غيره
ثم هذا المغرور يطلب عز الدين بالثياب الدقيقة من القصب والدبيقي والابريسم المحرم والخيول
والمراكب ويزعم انه يطلب عز العلم وشرف الدين وكذلك اطلق اللسان بالحسد في اقرانه
او في من رد عليه شيئا من كلامه لم يظن بنفسه ان حسد ولكن قال انما هذا غضب للحق ورد
على المبطل في عداوته وظلمه ولم يظن بنفسه الحسد حتى يتعمد انه لو طعن في غيره من اهل
العلم او منع غيره من رياسة وزوحم فيها هل كان غضبه وعداوته مثل غضبه الآن فيكون غضبه
لله ام لا ومهما طعن في عالم آخر ومنع بل ربما يفرح به فيكون غضبه لنفسه وحسده لاقرانه من
خبث باطنه وهكذا يرآي باعماله وبعلومه واذا خطر له خاطر الرياء قال هيهات انما غرضي اظهار
العلم والعمل واقتداء الخلق بي ليهتدوا الى دين الله ويتخلصوا من عقاب الله ولا يتامل المغرور
انه ليس يفرح باقتداء الخلق بغيره كما يفرح باقتدائهم به فلو كان غرضه صلاح الخلق لفرح بصلاحهم
على يد من كان كمن له عبيد مرضى يريد معالجتهم لم يفرق بين ان يحصل شفاؤهم على يده او على

يدل طبيب آخر وربما يذكر هذا له ولا يخليه الشيطان ايضا انما ذلك لانهم اذا اهتدوا بي كان الاجر لي
والثواب لي فانما فرحي بثواب الله لا بقبول الخلق هذا ما يظنه لنفسه والله يطلع من ضميره على انه لو اخبره
نبي بان ثوابه في الخمول واخفاء العلم اكثر من ثوابه في الاظهار وحبس مع ذلك في سجن وقيد بالسلاسل
لاحتال في هدم السجن وحل السلاسل حتى يرجع الى موضعه الذي به تظهر رياسته من تدريس او
وعظ او غيره وكذلك يدخل على السلطان ويتودد اليه ويثني عليه ويتواضع له واذا خطر له ان التواضع
للسلاطين الظلمة حرام قال له الشيطان هيهات انما ذلك عند الطمع في مالهم فاما انت فغرضك
ان تشفع للمسلمين وتدفع الضرر عنهم وتدفع شر اعدائك عن نفسك والله يعلم من باطنه انه لو ظهر لبعض
اقرانه قبول عند السلطان فصار يشفعه في كل مسلم حتى دفع الضرر عن جميع المسلمين ثقل ذلك
عليه ولو قدر على ان يقبح حاله عند السلطان بالطعن فيه والكذب عليه لفعل وكذلك قد ينتهي غروره
ببعضهم الى ان ياخذ من مالهم واذا خطر له انه حرام قال له الشيطان هذا مال لا مالك له وهو لمصالح
المسلمين وانت امام المسلمين وعالمهم وبك قوام دين الله افلا يحل لك ان تاخذ قدر حاجتك فيغتر بهذا
التلبيس في ثلاثة امور احدها في انه مال لا مالك له فانه يعرف انه ياخذ الخراج من المسلمين واهل السواد
والذين اخذ منهم احياء قيام واولادهم وذرياتهم احياء وغاية الامر وقوع الخلط في اموالهم ومن غصب
مائة دينار من عشرة انفس وخلطها فلا خلاف في انه مال حرام ولا يقال في انه مال لا مالك له
ويجب ان يقسم بين العشرة ويرد الى كل واحد عشرة وان كان كل واحد قد اختلط بالآخر والثاني
في قوله انه من مصالح المسلمين وبك قوام الدين فلعل الذين فسد دينهم واستحلوا اموال السلاطين
ورغبوا في طلب الدنيا والاقبال على الرياسة والاعراض عن الآخرة بسببه اكثر من الذين زهدوا
في الدنيا ورفضوها واقبلوا على انه فهو على التحقيق دجال الدين وقوام مذهب الشياطين لا امام
الدين اذ الامام هو الذي يقتدى به في الاعراض عن الدنيا والاقبال على الله كالانبياء والصحابة وعلماء
السلف والدجال هو الذي يقتدى به في الاعراض عن الله والاقبال على الدنيا فلعل موت هذا
انفع للمسلمين من حياته وهو يزعم انه قوام الدين ومثاله كما قال عيسى عليه الصلوة والسلام للعالم
السوء انه كصخرة دفعت في فم الوادي لا هي تشربها ولا هي تترك الماء تخلص الى الزرع واصناف
غرور اهل العلم في هذه الاعصار المتاخرة خارجة عن الحصر وفيما ذكرناه تنبيه بالقليل على
الكثير وفرقة اخرى احكموا العلوم وطهروا الجوارح وزينوها بالطاعات واجتنبوا ظاهر المعاصي
وتفقدوا اخلاق النفس وصفات القلب من الرياء والحسد والكبر والحقد وطلب العلو وجاهدوا

انفسهم في البري منها وقلعوا من القلوب منابتها الجلية القوية ولكنهم بعد مغرورون اذ بقيت في زوايا
القلب من خفايا مكايد الشيطان وخبايا خداع النفس ما دق وغمض مدركه فلم يفطنوا لها واهملوها
وانما مثاله من يريد تنقية الزرع من الحشيش فدار عليه وفتش عن كل حشيش رآه فقلعه الا انه لم
يفتش عن ما لم يخرج راسه بعد من تحت الارض فظن ان الكل قد ظهر وبرز وكان قد نبت من اصول
الحشيش شعب لطاف فانبسطت تحت التراب فاهملها وهو يظن انه قد طهرها فاذا هو بها
في غفلته وقد نبتت وقويت وافسدت اصول الزرع من حيث لا يدري فكذلك العالم قد يفعل جميع
ذلك ويذهل عن المراقبة للخفايا والتفقد للدقائق فتراه يسهر ليله ونهاره في جميع العلوم وترتيبها
وتحسين الفاظها وجمع التصانيف فيها وهو يرى ان باعثه الحرص على اظهار دين الله تعالى ونشر
شريعته ولعل باعثه الخفي هو طلب الذكر وانتشار الصيت في الاطراف وكثرة الرحلة اليه من الآفاق
وانطلاق الالسنة عليه بالثناء والمدح بالزهد والورع والعلم والتقديم له في المهمات وايثاره في
الاغراض والاجتماع حوله للاستفادة والتلذذ بحسن الاصغاء عند حسن اللفظ والايراد والتمتع بتحريك
الرؤس على كلامه والبكاء عليه والتعجب منه والفرح بكثرة الاصحاب والمستفيدين والسرور بالتخصيص
بهذه الخاصية من بين ساير الاقران والاشكال بالجمع بين العلم والورع وظاهر الزهد والتمكن به
من اطلاق لسان الطعن في الكافة المقبلين على الدنيا لا عن تفجع بمصيبة الدين ولكن عن ادلال
بالتميز واعتداد بالتخصص ولعل هذا المسكين المغرور حياته في الباطن بما انتظم له من امر وامارة
وعز وانقياد وتوقير وحسن ثناء فلو تغير عليه القلوب واعتقدوا فيه غير الزهد بما يظهر من اعماله
فعساه تتشوش عليه قلبه ويختلط اوراده ووظايفه وعساه يعتذر بكل حيلة لنفسه وربما يحتاج
الى ان يكذب في تغطيه عيبه وعساه يوثر في الكرامة والمراعاة من اعتقد فيه الزهد والورع وان
كان قد اعتقد فيه فوق قدره ونبوا قلبه عمن عرف حد فضله وورعه وان كان ذلك على وفق الحال
وعساه يوثر بعض اصحابه على بعض وهو يرى انه يوثر المتقدم في الفضل والورع وانما ذلك لانه اطوع
له واتبع لمراده واكثر ثناء عليه واشد اصغاء اليه واحرص على خدمته ولعلهم يستفيدون منه
ويرغبون في العمل وهو يظن ان قبولهم له لاخلاصه وصدقه وقيامه بحق علمه فيحمد الله تعالى على ما يسر
على لسانه من منافع خلقه ويرى ان ذلك مكفر لذنوبه ولم يتفقد مع نفسه تصحيح النية فيه وعساه
لو وعد بمثل ذلك الثواب في ايثار الخمول والعزلة واخفاء العلم لم يرغب فيه لفقده في العزلة ولا
خفاء لذة القبول وعز الرياسة ولعل مثل هذا هو المراد بقول الشيطان من زعم من ابن آدم انه بعلمه

امشع مني فجهله وتم في جاهلي وعساه يصنف ويجتهد فيه ظانا انه يجمع علم الله لينتفع به وانما يريد
به استطارة اسمه بحسن التصنيف فلو ادعى مدع تصنيفه ومحي عنه اسمه ونسبه الى نفسه ثقل عليه
ذلك مع علمه بان ثواب الاستفادة من التصنيف انما يرجع الى المصنف والله عالم بانه المصنف لا من
ادعاه ولعله في تصنيفه لا يخلو من الثنا على نفسه اما صريحا بالدعاوي الطويلة العريضة واما
ضمنا بالطعن في غيره ليستبان من طعنه في غيره انه افضل ممن طعن فيه واعظم منه علما ولقد كان
في غنية عن الطعن فيه ولعله يحكي من الكلام المزيف ما يريد تزييفه فيعزيه الى قايله وما يستحسنه
لعله لا يعزيه اليه ليظن انه من كلامه فينقله بعينه كالسارق له او يغيره ادنى تغيير كالذي
يسرق قميصا فيتخذه قباء حتى لا يعرف انه مسروق ولعله يجتهد في تزيين الفاظه وتسجيعه وتحسين
نظمه كيلا ينسب الى الركاكة ويرى ان غرضه ترويج الحكمة وتحسينها وترتيبها ليكون اقرب الى نفع
الناس وعساه غافلا عن ما روي ان بعض الحكماء وضع ثلثمائة مصحفا في الحكمة فاوحى الله تعالى
الى نبي زمانه قل له قد ملات الارض نفاقا واني لا اقبل من نفاقك شيئا ولعل جماعة من هذا الصنف
من المغترين اذا اجتمعوا ظن كل واحد لنفسه السلامة من عيوب القلب وخفاياه فلو افترقوا واتبع
كل واحد منهم فرقة من اصحابه نظر كل واحد الى كثرة من يتبعه وانه اكثر تبعا من غيره فيفرح ان كان
اتباعه اكثر وان علم ان غيره احق بكثرة الاتباع منه ثم اذا تفرقوا واشتغلوا بالافادة تغايروا وتحاسدوا
ولعل من يختلف الى واحد منهم اذا انقطع عنه الى غيره ثقل على قلبه ووجد في نفسه نفرة منه
فبعد ذلك لا يهتز باطنه لاكرامه ولا يتشمر لقضاء حوايجه كما كان يتشمر من قبل ولا يحرص على الثناء
عليه كما اثنى مع علمه انه مشغول بالاستفادة ولعل التحيز منه الى فية اخرى كان انفع له في دينه
لآفة من الآفات كانت يلحقه في هذه الفية وسلامته عنها في تلك الفية ومع ذلك فلا يزول
النفرة عن قلبه ولعل واحدا منهم اذا تحرك فيه مبادي الحسد لم يقدر على اظهاره فيتعلل بالطعن
في دينه وفي ورعه ليحمل غضبه على ذلك ويقول انما غضبت لدين الله لا لنفسي ومهما ذكر عيوبه
بين يديه فربما فرح به وان اثني عليه ربما ساءه وكرهه وربما قطب وجهه اذا ذكر عيوبه ليظهر انه
كاره لغيبة المسلمين وسر قلبه راض به ومريد له والله مطلع عليه في ذلك فهذا وامثاله من
خفايا العيوب لا يفطن لها الا الاكياس ولا يتنزه منها الا الاقوياء ولا مطمع فيه لامثالنا من
الضعفاء الا ان اقل الدرجات ان يعرف الانسان عيوب نفسه ويسوءه ذلك ويكرهه ويحرص
على اصلاحه فاذا اراد الله بعبد خيرا بصره بعيوب نفسه ومن سرته حسنته وساءته سيئته فهو

مرجو الحال وامره اقرب من المغرور المزكي لنفسه الممتن علي الله بعمله وعلمه الظان انه من خيار خلقه فنعوذ
بالله من الغفلة والاغترار ومن المعرفة بخفايا العيوب مع الاهمال هذا غرور الذين حصلوا العلوم
المهمة ولكن قصروا في العمل بالعلم ولنذكر الآن غرور الذين قنعوا من العلوم بما لا يهمهم وتركوا المهم
وهم به مغترون اما لاستغنايهم عن اصل ذلك العلم واما لاقتصارهم عليه فمنهم فرقة اقتصروا علي
علم الفتاوي في الحكومات والخصومات وتفاصيل المعاملات الدنيوية الجارية بين الخلق لمصالح
المعايش وخصصوا اسم الفقه بها وسموه الفقه وعلم المذهب وربما ضيعوا مع ذلك الاعمال
الظاهرة والباطنة فلم يتفقدوا الجوارح ولم يحرسوا اللسان عن الغيبة والبطن عن الحرام والرجل
عن المشي الي السلاطين وكذي ساير الجوارح ولم يحرسوا قلوبهم عن الكبر والريا والحسد وساير
المهلكات فهولاء مغرورون من وجهين احدهما من حيث العمل والآخر من حيث العلم اما العمل فقد
ذكرنا وجه الغرور فيه وان مثالهم مثال المريض اذا تعلم نسخة الدوا واشتغل بتكراره وتعليمه
لا بل مثالهم من به علة البواسير والبرسام وهو مشرف علي الهلاك فيحتاج الي تعلم الدواء واستعماله
فاشتغل بتعلم دواء الاستحاضة وبتكرار ذلك ليلا ونهارا مع علمه بانه رجل لا يحيض ولا يستحيض
ولكن يقول ربما يقع عليه الاستحاضة لامراة وتسالني عنها وذلك غاية الغرور فكذلك المتفقه
المسكين قد تسلط عليه حب الدنيا واتباع الشهوات والحسد والكبر والريا وساير المهلكات
الباطنة وربما يختطفه الموت قبل التوبة والتلافي فيلقي الله وهو عليه غضبان فترك ذلك كله
واشتغل بعلم السلم والاجارة والظهار واللعان والجراحات والديات والدعاوي والبينات
وبكتاب الحيض ولا يحتاج الي شي من ذلك قط في عمره لنفسه واذا احتاج غيره كان في المفتين
كثرة فيشتغل بذلك ويحرص عليه لما فيه من الجاه والمال والرياسة وقد دهاه الشيطان وما يشعر
اذ يظن المغرور بنفسه انه مشغول بفرض دينه وليس يدري ان الاشتغال بفرض الكفاية قبل
الفراغ عن فرض العين معصية هذا لو كانت نيته صحيحة كما قال وكان قد قصد بالفقه وجه الله تعالى
فانه وان قصد وجه الله فهو باشتغاله به معرض عن فرض عينه في جوارحه وقلبه فهذا غروره من
حيث العمل واما غروره من حيث العلم فحيث اقتصر علي علم الفتاوي وظن انه علم الدين وترك علم كتاب
الله وسنة رسوله وربما طعن علي المحدثين وقال انهم نقلة وحملة اسفار لا يفقهون وترك ايضا علم
تهذيب الاخلاق وترك الفقه عن الله بادراك جلاله وعظمته وهو العلم الذي يورث الخوف
والهيبة والخشوع ويحمل علي التقوي فتراه امنا من الله مغترا به متكلا علي انه لا بد وان يرحمه فانه

قوام دينه وانه لو لم يشتغل بالفتاوي لتعطل الحلال والحرام فقد ترك العلوم التي هي اهم وهو غافل مغرور
وسبب غروره ما سمع من الشرع من تعظيم الفقه ولم يدر ان ذلك الفقه هو الفقه عن الله ومعرفته
وصفاته المخوفة والمرجوة ليستشعر القلب الخوف ويلازم التقوي واذ قال تعالى فلولا نفر من كل
فرقة منهم طايفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم والذي يحصل به الانذار
غير هذا العلم فان مقصود هذا العلم حفظ الاموال بشروط المعاملات وحفظ الابدان بالاموال
وبدفع القتل والجراحات والمال في طريق الله آلة والبدن مركب وانما العلم المهم هو معرفة سلوك الطريق
وقطع عقبات القلب التي هي الصفات المذمومة فهي الحجاب بين العبد وبين الله تعالى واذا مات
ملوثا بتلك الصفات كان محجوبا عن الله فمثاله في الاقتصار على علم الفقه مثال من اقتصر من سلوك
طريق الحج على علم خرز الراوية والخف ولا شك في انه لو لم يكن لتعطل الحج ولكن المقتصر عليه ليس من
الحاج في شي وقد ذكرنا شرح ذلك في كتاب العلم ومن هولاء من اقتصر من علم الفقه على الخلافيات ولم
يهمه الا تعلم طريق المجادلة والالزام وافحام الخصوم ودفع الحق لاجل الغلبة والمباهات فهو طول
الليل والنهار في التفتيش عن مناقضات ارباب المذاهب والتفقد لعيوب الاقران والتلقف
لانواع التسبيبات المودية وهم لاهم سباع الانس طبعهم الايذاء وهمتهم السفه ولا يقصدون
العلم الا لضرورة ما يلزمهم لمباهات الاقران فكل علم لا يحتاجون اليه في المباهاة كعلم القلب
وعلم سلوك الطريق الى الله تعالى بمحو الصفات المذمومة وتبديلها بالصفات المحمودة فانهم
يستحقرونه ويسمونه التزويق وكلام الوعظ وانما التحقيق عندهم معرفة تفاصيل العربدة التي
تجري بين المتناظرين في الجدل وهولاء قد جمعوا ما جمعه الذين من قبلهم في علم الفتاوي لكن
زادوا واشتغلوا بما ليس من فروض الكفايات ايضا بل جميع دقايق الجدل في الفقه بدعة لم يعرفها
السلف واما ادلة الاحكام فيشتمل عليه علم المذهب وهو كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم
وفهم معانيه واما حيل الجدل من اللبس والقلب وفساد الوضع والتركيب والتعدية انما ابدع
لاظهار الغلبة والافحام واقامة سوق الجدل به فغرور هولاء اشد كثيرا واقبح من غرور من قبلهم
وفرقة اخرى اشتغلوا بعلم الكلام والمجادلة في الاهواء والرد على المخالفين وتتبع مناقضاتهم واستكثروا
من معرفة المقالات المختلفة واشتغلوا بتعليم الطريق في مناظرة اولئك وافحامهم وافترقوا في ذلك
فرقا كثيرة واعتقدوا انه لا يكون لعبد عمل الا بايمان ولا يصح ايمان الا بان يتعلم جدلهم وما سموه ادلة عقايدهم
وظنوا انه لا احد اعرف بالله وبصفاته منهم وانه لا ايمان لمن لا يعتقد مذهبهم ولم يتعلم علمهم ودعت كل

وفرقة منهم الي نفسه ثم هم فرقتان ضالة ومحقة فالضالة التي يدعوا الي غير السنة والمحقة هي التي تدعوا
الي السنة والغرور شامل لجميعهم اما الضالة فلغفلتها عن ضلالتها وظنها بنفسها النجاة وهم فرق
كثيرة يكفر بعضها بعضا وانما اتيت من حيث انها لم تتهم رايها ولم تحكم اولا بشروط الادلة ومنهاجها
فرات الشبهة دليلا والدليل شبهة واما الفرقة المحقة فانما اغترارها من حيث انها ظنت بالجدل انه اهم
الامور وافضل القربات في دين الله وزعمت انه لا يتم لاحد دينه ما لم تفحص ولم تبحث فان من صدق الله
ورسوله من غير بحث وتحرير دليل فليس بمؤمن او ليس بكامل ولا مقرب عند الله وهذا الظن الفاسد
قطعت اعمارها في تعلم الجدل والبحث عن المقالات وهذيانات المبتدعة ومناقضاتهم واهمل
نفسه وقلبه حتى عمي عليه ذنوبه وخطاياه الظاهرة والباطنة وهو يظن ان اشتغاله بالجدل اولي واقرب
عند الله وافضل ولكنها لالتذاذها بالغلبة والافحام ولذة الرياسة وعز الانتماء الي الذب عن دين
الله عميت بصيرتها فلم يلتفت الي القرن الاول وان النبي صلى الله عليه وسلم شهد لهم بانهم خير الخلق
وانهم قد ادركوا كثيرا من اهل البدع والهوى فما جعلوا اعمارهم ودينهم عرضا للخصومات والمجادلات
وما اشتغلوا بذلك عن تفقد قلوبهم وجوارحهم واحوالهم بل لم يتكلموا فيه الا حيث راوا حاجة
وتوسموا مخايل قبول فذكروا بقدر الحاجة ما يدل الضال لضلالته فاذا راوا مصرا علي ضلالته هجروه
واعرضوا عنه وابغضوه في الله ولم يلزموا الملاحاة معه طول العمر بل قالوا ان الحق هو الدعوة
الي السنة ومن السنة ترك الجدل في الدعوة الي السنة اذ روى ابو امامة عن النبي صلى الله عليه وسلم انه
قال ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه الا اوتوا الجدل وخرج صلى الله عليه وسلم يوما على اصحابه وهم
يجادلون ويختصمون فغضب عليهم حتى كانه فقئ في وجهه حب الرمان حمرة من الغضب فقال الهذا
بعثتم ابهذا امرتم ان تضربوا كتاب الله بعضه ببعض انظروا الي ما امرتم به فاعملوا وما نهيتم عنه
فانتهوا فقد زجرهم عن ذلك وكانوا اولي خلق الله بالحجاج والجدل ثم انهم راوا رسول الله صلى الله عليه
وسلم وقد بعث الي كافة اهل الملل فلم يقعد معهم في مجلسه مجادلة لالزام وافحام وتحقيق حجة
ودفع سؤال وايراد الزام فما جادلهم الا بتلاوة القرآن المنزل عليهم ولم يزد في المجادلة عليه لان
ذلك يشوش القلب ويستخرج منها الاشكالات والشبه ثم لا يقدر على محوها من قلوبهم وما كان
يعجز عن مجادلتهم بالتقسيمات ودقائق الاقيسة وان يعلم اصحابه كيفية الجدل والالزام ولكن الاكياس
واهل الحزم لم يغتروا بهذا وقالوا لو نجا اهل الارض وهلكنا لم ينفعنا نجاتهم ولو نجونا وهلكوا
لم يضرنا هلاكهم وليس علينا في المجادلة اكثر مما كان على الصحابة مع اليهود والنصارى واهل الملل وما

ضيعوا العمر بحرجة لاتتم فيالنا نضيع العمر ولانصرفه الي ماينفعنا في يوم فقرنا وفاقتنا فلم نخوض
فيما لا نامن علي انفسنا الخطا في تفاصيله ثم نري ان المبتدع ليس يترك بدعته بجدله بل يزيده التعصب
والخصومة تشددا في بدعته واشتغالي بمخاصمة نفسي ومجادلتها ومجاهدتها لتترك الدنيا للاخرة
اولي هذا لو كنت لم انه عن الجدل والخصومة فكيف وقد نهيت عنه فكيف ادعوا الي السنة بترك
السنة فالاولي ان اتفقد نفسي وانظر من صفاتها ما يبغضه الله وما يحبه لاتنزه عما يبغضه واتمسك
بما يحبه وفرقة اخرى اشتغلوا بالوعظ واعلاهم رتبة من يتكلم في اخلاق النفس وصفات القلب
من الخوف والرجاء والصبر والشكر والتوكل والزهد والاخلاص والصدق ونظايرها وهم مغرورون
يظنون بانفسهم انهم اذا تكلموا بهذه الصفات ودعوا الخلق اليها فقد صاروا موصوفين بهذه
الصفات وهم منفكون عنها عند الله الاعن قدر يسير لاينفك عنه عوام المسلمين وغرور هولاء
اشد الغرور لانهم يعجبون بانفسهم غاية الاعجاب ويظنون انهم ما تبحروا في علم المحبة الا وهم محبون
لله تعالي وما قدروا علي تحقيق دقايق الاخلاص الا وهم مخلصون وما وقفوا علي خفايا عيوب
النفس الا وهم عنها منزهون ولولا انه مقرب عند الله لما عرف معني القرب والبعد وعلم السلوك الي الله
وكيفية قطع المنازل في طريق الله فالمسكين بهذه الظنون يري انه من الخايفين وهو آمن من
مكر الله تعالي ويري انه من الراجين وهو من المغترين المضيعين ويري انه من الراضين بقضاء الله
تعالي وهو من الساخطين ويري انه متوكل علي الله وهو من المتكلين علي العز والجاه والمال والاسباب
ويري انه من المخلصين وهو من المرايين بل يصف الاخلاص فيترك الاخلاص ويصف الرياء ويذكره
ويرائي بذكره ليعتقد فيه لولا انه مخلص لما اهتدي الي دقايق الرياء ويصف الزهد في الدنيا
لشدة حرصه علي الدنيا وقوة رغبته فيها وهو يظهر الدعاء الي الله وهو منه فار ويخوف بالله تعالي
وهو منه آمن ويذكر الله وهو له ناسي ويقرب الي الله وهو منه متباعد ويحث علي الاخلاص وهو غير
مخلص ويذم الصفات المذمومة وهو بها متصف ويصرف الناس عن الخلق وهو علي الخلق
اشدهم حرصا لو منع من مجلسه الذي يدعو فيه الناس الي الله لضاقت عليه الارض بما رحبت
ويزعم ان غرضه اصلاح الخلق ولو ظهر من اقرانه من اقبل الخلق عليه وصلحوا علي يديه لمات
غما وحسدا ولو اثني احد من المترددين علي اقرانه لكان ابغض خلق الله تعالي اليه فهولاء اعظم الناس
غرة وابعدهم عن التنبه والرجوع الي السداد لان المرغب في الاخلاق المحمودة والمنفر عنها هو العلم
بغوايلها وفوايدها وهذا قد علم ذلك ولم ينفعه وشغله حب دعوة الخلق عن العمل به فبعد ذلك

بماذا يعالج وكيف سبيل تخويفه وانما المخوف ما يتلو على عباده ليخافون وهو ليس بخايف نعم ان ظن
بنفسه انه موصوف بهذه الصفات المحمودة يمكن ان يدل على طريق الامتحان والتجربة وهو ان يدعي
مثلا حب الله تعالى فما الذي تركه من محاب الدنيا لاجله ويدعي الخوف فما الذي امتنع عنه بالخوف
ويدعي الزهد فما الذي امتنع عنه بالخوف ويدعي الزهد فما الذي تركه مع القدرة عليه لوجه الله تعالى
ويدعي الانس بالله فمتى طابت له الخلوة ومتى استوحش من مشاهدة الخلق لا بل يرى قلبه ممتلا
بالحلاوة اذا احدق به المريدون وتراه يستوحش اذا خلا بالله تعالى فهل رايت محبا انما يستوحش
من محبوبه ويستروح منه الى غيره فالاكياس يمتحنون انفسهم في هذه الصفات ويطالبونها بالحقيقة
ولا يقنعون منها بالتزويق بل يوثق من الله غليظ والمغترون يحسنون بانفسهم الظنون فاذا كشف
الغطاء عنهم في الآخرة يفتضحون بل يطرحون في النار فيدور بها كما يدور الحمار فالرحا كما ورد
به الخبر لانهم يامرون بالخير ولا ياتونه وينهون عن الشر وياتونه وانما وقع الغرور لهولاء من حيث
انهم يصادفون من قلوبهم شيئا ضعيفا من اصول هذه المعاني وهو حب الله والخوف منه والرضا
بفعله ثم قدروا مع ذلك على وصف المنازل العالية في هذه المعاني وظنوا انهم ما قدروا على وصف
ذلك وما رزقهم الله علمه وما ينتفع الناس بكلامهم فيها الا لاتصافهم بها وذهب عليهم ان القبول
للكلام والكلام للمعرفة وجريان اللسان للمعرفة للتعلم وان كل ذلك غير الاتصاف بالصفة فلم يفارق
آحاد المسلمين في الاتصاف بصفة الحب والخوف بل في القدرة على الوصف بل ربما زاد امنه
وقل خوفه وظهر الى الخلق ميله وضعف به في قلبه حب الله تعالى وانما مثاله مثال المريض يصف
المرض ويصف دواءه بفصاحته ويصف الصحة والشفاء وغيره من المرضى لا يقدر على وصف الصحة
والشفاء واسبابه ودرجاته واصنافه فهو لا يفارقهم في صفة المرض والاتصاف به وانما
يفارقهم في الوصف والعلم بالطب فظنه عند علمه بحقيقة الصحة انه صحيح غاية الجهل فكذلك
العلم بالخوف والحب والتوكل والزهد وساير هذه الصفات غير الاتصاف بحقايقها ومن
التبس عليه وصف الحقايق بالاتصاف بالحقايق فهو مغرور فهذه حالة الوعاظ الذين لا عيب
في كلامهم بل منهاج وعظهم منهاج وعظ القرآن والاخبار ووعظ الحسن البصري وامثاله وفرقة
اخرى منهم عدلوا عن المنهاج الواجب في الوعظ وهم وعاظ اهل الزمان كافة الا من عصمه الله على
الندور في بعض اطراف البلاد ان كان ولسنا نعرفه فاشتغلوا بالطامات والشطح وتلفيق كلمات
خارجة عن قانون الشرع والعقل طلبا الاغراب وطايفة شغفوا بطيارات النكت وتسجيع الالفاظ

وتلبيتها فاكثرهم في الابتهاج والاستشهاد باشعار الوصال والفراق وغرضهم ان يكثر في مجلسهم
الزعقات والتواجد ولو علي اغراض فاسدة فهؤلا شياطين الانس ضلوا واضلوا عن سوا السبيل
فان الاولين ان لم يصلحوا انفسهم فقد اصلحوا غيرهم وصححوا كلامهم ووعظهم واما هؤلا فانهم يصدون
عن السبيل ويجرون الخلق الي الغرور بالله تعالي بلفظ الرجا فيزيدهم كلامهم جرا علي المعاصي
ورغبة في الدنيا لاسيما اذا كان الواعظ متزينا بالثياب والخيل والمركب فيشهد فرقه الي قدمه
بشدة حرصه علي الدنيا فما يفسده هذا المغرور اكثر مما يصلح بل لا يصلح اصلا ويضل خلقا كثيرا ولا
يخفى وجه كونه مغرورا وفرقة اخري منهم قنعوا بحفظ كلام الزهاد واحاديثهم في ذم الدنيا فهم
يحفظون الكلمات علي وجهها ويوردونها من غير احاطة بمعانيها فبعضهم يفعل ذلك علي المنابر
وبعضهم في المحاريب وبعضهم في الاسواق مع الجلسا وكل منهم يظن انه اذا تميز بهذا القدر عن
السوقية والجندية اذ حفظ كلام الزهاد واهل الدين دونهم فقد افلح ونال الغرض وصار مغفورا
له وامن عقاب الله من غير ان يحفظ ظاهره عن الاثام ولكنه يظن ان حفظه لكلام اهل الدين
يكفيه وغرور هؤلا اظهر من غرور من قبلهم وفرقة اخري استغرقوا
اوقاتهم في علم الحديث اعني في سماعها وجمع الروايات الكثيرة منها وطلب الاسانيد الغريبة العالية
فهمة احدهم ان يدور في البلاد ليري الشيوخ فيقول انا اروي عن فلان وقد لقيت فلانا ومعي
من الاسناد ما ليس مع غيري وغرورهم من وجوه منها انهم كحملة الاسفار فانهم لا يصرفون العناية
الي فهم معاني السنة فعلمهم قاصر وليس معهم الا النقل ويظنون ان ذلك يكفيهم ومنها انهم اذا
لم يفهموا معانيها لا يعملون بها وقد يفهمون بعضها ايضا ولا يعملون بها ومنها انهم يتركون العلم الذي
هو فرض عين عليهم وهو معرفة معالجة القلب ويشتغلون بتكثير الاسنادات وطلب الاسانيد
العالية ولا حاجة بهم الي شي من ذلك ومنها وهو الذي اكب عليه اهل الزمان انهم ايضا لا يقومون
بشرط السماع فان السماع بمجرده وان لم تكن له فايدة ولكنه مهم في نفسه للوصول الي اثبات
الحديث اذ التفهيم بعد الاثبات والعمل بعد التفهم فالاول السماع ثم التفهم ثم الحفظ ثم العمل ثم
النشر وهؤلا اقتصروا من الجملة علي السماع ثم تركوا حقيقة السماع فتري الصبي يحضر في مجلس
الشيخ والحديث يقرا والشيخ ينام والصبي يلعب ثم يكتب اسم الصبي في السماع فاذا كبر تصدي
ليسمع منه والبالغ الذي يحضر ربما يغفل ولا يسمع ولا يصغي ولا يضبط وربما يشتغل بحديث ينسخ
والشيخ الذي يقرا عليه لو صحف او غير ما يقرا عليه لم يشعر به ولم يعرفه وكل ذلك جهل وغرور اذ الاصل

في الحديث ان يسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيحفظه كما يسمعه ويرويه كما حفظه فيكون الرواية
عن الحفظ والحفظ عن السماع فان عجزت عن سماعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم سمعته من الصحابة
او التابعين وصار سماعك من الراوي كسماع من سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ان تصغي يحفظ
وتروي كما حفظته وتحفظ كما سمعت بحيث لا تغير فيه حرفا ولو غير غيرك منه حرفا واخطا علمت خطأه
ولحفظك طريقان احدهما ان تحفظ بالقلب وتستديمه بالتكرار كما تحفظ ما يجري على سمعك
في مجاري الاحوال والثاني ان تكتب كما تسمع وتصحح المكتوب وتحفظه حتى لا يصل اليه يد من يغيره
ويكون حفظك للكتاب معك وفي خزانتك فانه لو امتد اليه يد غيرك ربما غيره واذا لم تحفظه لم تشعر
بتغيره فيكون معك محفوظا بقلبك او بكتابك فيكون كتابك مذكرا لما سمعته وتامن فيه من التغير
والتحريف فاذا لم تحفظ لا بالقلب ولا بالكتاب وجرى على سمعك صوت غفل وفارقت المجلس
ثم رايت لذلك نسخة وجوزت ان يكون ما فيه مغيرا او يفارق حرفا منه النسخة التي سمعتها لم يجز
لك ان تقول سمعت هذا الكتاب فانك لا تدري لعلك لم تسمع ما فيه بل شيئا يخالف ما فيه ولو في
كلمة فاذا لم يكن معك حفظ بقلبك ولا نسخة صحيحة استوثقت عليها لتقابل بها فمن اين تعلم
انك سمعت ذلك وقد قال تعالى ولا تقف ما ليس لك به علم وقول الشيوخ كلهم في هذا الزمان
انا سمعنا ما في هذا الكتاب اذا لم يوجد الشرط الذي ذكرناه كذب صريح واقل شرط السماع ان
يجري الجميع على السمع مع نوع من الحفظ يشعر بالتغير ولو جاز ان يكتب سماع الصبي والغافل
والنايم والذي ينسخ لجاز ان يكتب سماع الصبي في المهد وسماع المجنون ثم اذا بلغ الصبي وافاق
المجنون سمع عليه ولا خلاف في عدم جوازه ولو جاز ذلك لجاز ان يكتب سماع الجنين في البطن
فان كان لا يكتب سماع الصبي في المهد لانه لا يفهم ولا يحفظ فالصبي الذي يلعب والغافل
والمشغول بالنسخ عن السماع ليس يفهم ولا يحفظ وان استجرا جاهل وقال يكتب سماع الصبي
في المهد فليكتب سماع الجنين في البطن فان فرق بينهما بان الجنين لا يسمع الصوت وهذا
يفهم الصوت فماذا ينفع هذا وهو انما ينقل الحديث دون الصوت فليقتصر اذا صار شيخا
على ان يقول سمعت بعد بلوغي اني في صباي حضرت مجلسا يروى فيه حديث كان يقرع
سمعي صوته ولا ادري ما هو ولا خلاف في ان الرواية كذلك لا تصح وما زاد عليه فهو كذب صريح ولو
جاز اثبات سماع التركي الذي لا يفهم العربية لانه سمع صوتا غفلا لجاز اثبات صبي في المهد
وذلك غاية الجهل ومن اين يوجد هذا وهل للسماع مستند الا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم

نضر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها واداها كما سمعها وكيف يؤدي كما سمعها من لا يدري ما سمعه فهذا
من افحش انواع الغرور وقد بلي به اهل الزمان ولو احتاط اهل الزمان لم يجدوا شيوخا الا الذين سمعوا
في الصبي على هذا الوجه مع الغفلة الا ان للمحدثين في ذلك جاها وقبولا فخاف المساكين ان
يشترطوا ذلك فيقل من يجتمع في حلقتهم فينقص جاههم وتقل ايضا احاديثهم التي قد سمعوها
بهذا الشرط بل ربما عدموا ذلك وافتضحوا فاصطلحوا على انه ليس يشترط الا ان يقرع سمعه
دمدمة وان كان لا يدري ما يجري وصحة السماع لا يعرف من قول المحدثين لانه ليس من علمهم بل من علماء
اصول الفقه وما ذكرناه مقطوع به في قوانين اصول الفقه فهذا غرور هولاء ولو سمعوا على الشرط
كانوا مغرورين في اقتصارهم على النقل وفي افناء عمرهم في جمع الروايات والاسانيد واعراضهم
عن مهمات الدين ومعرفة معاني الاخبار بل الذي يقصد من الحديث سلوك طريق الله عز وجل ربما
يكفيه الحديث الواحد عمرا كما روي عن بعض الشيوخ انه حضر مجلس السماع فكان اول حديث روي
قوله صلى الله عليه وسلم من حسن اسلام المرء تركه ما لا يعنيه فقام وقال يكفيني هذا حتى افرغ منه
ثم اسمع غيره فهكذا يكون سماع الاكياس الذين يحذرون الغرور وفرقة اخرى اشتغلوا بعلم
النحو واللغة والشعر وغريب اللغة واغتروا به وزعموا انه قد غفر لهم وانهم من علماء الامة اذ قوام
الدين الكتاب والسنة وقوام الكتاب والسنة بعلم اللغة والنحو فافنوا هولاء اعمارهم في دقايق
النحو وفي صناعة الشعر وفي غرايب اللغة ومثالهم كمن يفني جميع العمر في تعلم الخط
وتقويم الحروف وتحسينها ويزعم ان العلوم لا يمكن حفظها الا بالكتبة فلا بد من تعلمه وتصحيحه
ولو عقل لعلم انه يكفيه ان يتعلم اصل الخط بحيث يمكن ان يقرا كيف ما كان والباقي زيادة
على الكفاية وكذلك الاديب لو عقل لعرف ان لغة العرب كلغة الترك والمضيع عمره في لغة العرب
كالمضيع في لغة الترك والهند وانما فارقهم لاجل ورود الشريعة فيكفي من اللغة علم الغريبين
في الاحاديث ومن النحو ما يتعلق بالحديث والكتاب فاما التعمق فيه الى درجات لا تتناهى فضول
مستغنى عنه ثم لو اقتصر عليه واعرض عن معرفة المعاني الصحيحة والعمل بها فهو ايضا مغرور بل مثاله
مثال من ضيع العمر في تصحيح مخارج الحروف في القرآن واقتصر عليه وهو غرور اذ المقصود من الحروف
المعاني والحروف ظروف وادوات ومن احتاج الى ان يشرب السكنجبين ليزول علته من الصفرا
وضيع اوقاته في تحسين القدح الذي يشرب فيه السكنجبين فهو من الجهال المغرورين فكذلك غرور
اهل النحو واللغة والادب والقراآت والتدقيق في مخارج الحروف مهما تعمقوا فيها وتجردوا لها

امرجوا عليها اكثر ما يحتاج اليه في تعلم العلوم التي هي فرض عين فاللب الاقصى هو العلم والذي
فوقه هو معرفة العمل وهو كالقشر للعمل وكاللب بالاضافة الى ما فوقه وما فوقه هو سماع الالفاظ وحفظها
بطريق الرواية وهو قشر بالاضافة الى المعرفة ولب بالاضافة الى ما فوقه وما فوقه هو العلم باللغة والنحو
وفوق ذلك وهو القشرة العليا العلم بمخارج الحروف والقانعون بهذه الدرجات كلهم مغترون
الا من اتخذ هذه الدرجات منازل فلم يعرج عليها الا بقدر حاجته فتجاوز الى ما وراءه حتى وصل
الى لباب العمل فطالب بحقيقة العمل قلبه وجوارحه وزجى عمره في حمل النفس عليه وتصحيح الاعمال وتصفيتها
عن الشوائب والآفات فهذا هو المقصود المخدوم من جملة علوم الشرع وساير العلوم خدم له ووسايل
اليه وقشر له ومنازل بالاضافة اليه وكل من لم يبلغ المقصد فقد خاب سواء كان في المنزل القريب
او في المنزل البعيد وهذه العلوم لما كانت متعلقة بعلوم الشرع اغتر بها اربابها فاما علم الطب
والحساب والصناعات وما يعلم انه ليس من علوم الشرع فلا يعتقد اصحابها انهم ينالون المغفرة
بها من حيث انها علوم فكان الغرور بها اقل من الغرور بامور الشرع لان العلوم الشرعية مشتركة
في انها محمودة كما يشارك القشر اللب في كونه محمودا ولكن المحمود منه لعينه هو المنتهى والثاني محمود
للوصول به الى المقصود فمن اتخذ مقصودا وعرج عليه فقد اغتر به وفرقة اخرى استغرقوا اوقاتهم
في علم الفقه فظنوا ان حكم العبد بينه وبين الله يتبع حكمه في مجلس القضاء فاحكموا الحيل في
دفع الحقوق واساوا تاويل الالفاظ المبهمة واغتروا بالظواهر واخطاوا فيها وهذا من قبيل
الخطاء في الفتوى والغرور فيه والخطاء في الفتاوى مما يكثر ولكن هذا نوع عم الكافة الا
الاكياس منهم فنشير الى امثلة له فمن ذلك فتواهم بان المراة مهما ابرات عن الصداق برئ الزوج
بينه وبين الله وذلك خطاء بل الزوج قد يسيء الى الزوجة بحيث تضيق عليها الامور بسوء الخلق
فيضطر اليها طلب الخلاص فتبرئ الزوج ليتخلص فهو ابراء لا عن طيبة نفس وقد قال الله تعالى
فان طبن لكم عن شيء منه نفسا وطيبة النفس غير طيبة القلب فالقلب قد يريد ما لا يطيب به
النفس كالانسان يريد الحجامة بقلبه ولكن يكرهه نفسه فانما طيبة النفس ان تسمح نفسها بالا
براء عن ضرورة تقابله حتى اذا ترددت بين ضررين اختارت اهونهما فهذه مصادرة على التحقيق
باكراه الباطن نعم القاضي في الدنيا لا يطلع على القلوب والاغراض فينظر الى الابراء الظاهر
وانها لم تكره بسبب ظاهر والاكراه الباطن ليس يطلع عليه الخلق ولكن مهما تصدى القاضي
الاكبر في صعيد القيامة للقضاء لم يكن هذا محسوبا ولا مفيدا في تحصيل الابراء وكذلك لا يحل ان

يوخذ مال الانسان الا بطيبة نفس منه فلو طلب من انسان مالا على ملا من الناس واستحيى من الناس
ان لا يعطيه فكان يود ان يكون سواله في خلوة حتى لا يعطيه ولكن خاف مذمة الناس وخاف
الم تسليم المال وردد نفسه بينهما فاختار اهون الالمين وهو الم التسليم فسلمه فلا فرق بين هذا
وبين المصادرة اذ معنى المصادرة ايلام البدن بالسوط حتى يصير ذلك اقوى من الم القلب ببذل
المال فيختار اهون الالمين والسوال في مظنة الحياء والريا ضرب للقلب بالسوط ولا فرق بين
ضرب الباطن وضرب الظاهر عند الله فان الباطن عند الله ظاهر وانما حاكم الدنيا هو الذي
يحكم بالملك لظاهر قوله وهبت لانه لا يمكنه الوقوف على ما في القلب وكذلك كل من يعطي
اتقاء لشر لسانه او لشر سعايته فهو حرام عليه وكذلك كل مال يوخذ على هذا الوجه فهو حرام
الا ترى ما جاء في قصة داود عليه السلم حيث قال بعد ان غفر له يا رب كيف بخصمي فامره بالاستحلال
وكان ميتا فامره بندائه في صخرة بيت المقدس فنادا يا اوريا فاجابه لبيك يا نبي الله اخرجتني
من الجنة فما ذا تريد قال اني اسات اليك في امر فهبه لي قال قد فعلت ذلك يا نبي الله
فانصرف فقد ركن الى ذلك فقال له جبريل عليه السلام هل ذكرت له ما فعلت قال لا قال
فارجع فبين له فرجع فناداه فقال لبيك يا نبي الله فقال اني اذنبت اليك ذنبا قال الم اهبه
لك قال او لا تسئلني ما ذلك الذنب قال ما هو يا نبي الله قال كذا وكذا فذكر شان المراة فانقطع
الجواب فقال يا اوريا الا تجيبني قال يا نبي الله ما هكذا يفعل الانبياء حتى اقف معك بين
يدي الله تعالى فاستقبل داود عليه السلام الصراخ والبكاء من الراس حتى وعد الله ان يستوهب
منه في القيمة فهذا ينبهك ان الهبة من غير طيبة قلب لا تفيد وان طيبة القلب لا تحصل الا
بالمعرفة فكذلك طيبة القلب لا تكون في الابراء والهبة وغيرهما الا اذا خلي الرجل واختياره
حتى ينبعث الدواعي من ذات نفسه الا ان يضطر بواعثه الى الحركة بالحيل والالزام ومن
ذلك هبة الرجل مال الزكوة في آخر الحول من زوجته واتهابه مالها لاسقاط الزكوة فالفقيه
يقول سقطت الزكوة فان اراد به ان مطالبة السلطان والساعي قد سقط عنه فقد صدق
فان مطمح نظرهم ظاهر الملك وقد زال وان ظن انه يسلم في القيمة ويكون كمن لم يملك المال
او كمن باع لحاجته الى البيع لا على هذا القصد فما اعظم جهله بفقه الدين وسر الزكوة فان سر
الزكوة تطهير القلب عن رذيلة البخل فان البخل مهلك قال عليه السلم ثلث مهلكات شح مطاع
وانما صار شحه مطاعا بما فعله وقبله لم يكن مطاعا فقد تم مطاعا ثم يظن انه في خلاصة فان الله

مطلع على قلبه وحبه للمال وحرصه عليه وانه بلغ من حرصه للمال أن استنبط الحيل حتى يسد على نفسه
طريق الخلاص من البخل بالجهل والغرور ومن ذلك اباحة الله تعالى مال المصالح للفقيه وغيره بقدر
الحاجة والفقهاء المغرورون لا يميزون بين الاماني والفضول والشهوات وبين الحاجات بل كل
ما لا يتم رعونتهم الا به يرونه حاجة وهو محض الغرور بل الدنيا خلقت لحاجة اليها في العبادة وسلوك
طريق الله فكل ما اتخذه ولد الاستعانة به على الدين بالعبادة فهو حاجة وما عدا ذلك فهو فضول وشهوات
ولو ذهبت اصف غرور الفقهاء في امثال هذا لملأنا منه مجلدات والغرض التنبيه على امثلة تعرف
الاجناس دون الاستيعاب فان ذلك يطول الصنف الثاني ارباب العبادات في العمل
والمغرورون منهم فرق كثيرة منهم من غروره في الصلاة ومنهم في تلاوة القرآن ومنهم في الحج ومنهم
في الغزو ومنهم في الزهد وكذلك كل مشغول بمنهج من مناهج العمل فليس خاليا عن غرور الا الاكياس
وقليل ما هم فمنهم فرقة اهملوا الفرائض واشتغلوا بالفضائل والنوافل وربما تعمقوا في الفضائل
حتى خرجوا الى العدوان والسرف كالذي يغلب عليه الوسوسة في الوضوء فيبالغ فيه ولا يرتضي
الماء المحكوم بطهارته في فتوى الشرع ويقدر الاحتمالات البعيدة قريبة في النجاسات واذا آل
الامر الى أكل الحلال قدر الاحتمالات القريبة بعيدة وربما أكل الحرام المحض ولو انقلب هذا الاحتياط
من الماء الى الطعام لكان أشبه بسيرة الصحابة اذ توضأ عمر رضي الله عنه بماء في جرة نصرانية مع
ظهور احتمال النجاسة وكان يدع ابوابا من الحلال خوفا من الوقوع في الحرام ثم في هؤلاء من يخرج
الى الاسراف في صب الماء وذلك منهي عنه وقد يطول الامر حتى يضيع الصلوة ويخرجها عن وقتها
وان لم يخرجها ايضا عن وقتها فهو مغرور لما فاته من فضيلة اول الوقت وان لم يفته فهو مغرور
لاسرافه في الماء وان لم يسرف فهو مغرور لتضييعه العمر الذي هو اعز الاشياء فيما له مندوحة عنه الا
ان الشيطان يصد الخلق عن الله بطرق ولا يقدر على ضر العباد الا بما يخيل اليهم انه عبادة فيبعدهم
عن الله بمثال ذلك وفرقة اخرى غلب عليه الوسوسة في نية الصلوة فلا يدعها الشيطان حتى يعقد
نية صحيحة بل يشوش عليه حتى يفوته الجماعة ويخرج الصلاة عن الوقت وان تم تكبيره فيكون في
قلبه تردد بعد في صحة نيته وقد يتشوش في التكبير حتى يغيرون صيغة التكبير لشدة الاحتياط
فيه يفعلون ذلك في اول الصلوة ثم يغفلون في جميع الصلاة ولا يحضرون قلوبهم ويغترون بذلك
الظنون ويظنون انهم اذا اتعبوا انفسهم في تصحيح النية في اول وقت الصلوة وتميزوا عن العامة
بهذا الجهد والاحتياط فهم على خير عند ربهم وفرقة اخرى يغلب عليها الوسوسة في اخراج حروف

الفاتحة وساير الاذكار من مخارجها فلا يزال يحتاط في التشديدات والفرق بين الضاد والظاء وتصحيح
مخارج الحروف في جميع صلاته لا يهمه غيره ولا يتفكر فيما سواه ذاهلا عن معنى القرآن والاتعاظ
به وصرف الفهم الى اسراره وهذا من اقبح انواع الغرور فانه لم يكلف الخلق في تلاوة القرآن من تحقيق
مخارج الحروف الا بما جرت به عادتهم في الكلام ومثال هؤلاء مثال من حمل رسالة الى مجلس سلطان
وامر ان يوديه على وجهه فاخذ يودي الرسالة ويتانق في مخارج الحروف ويكررها ويعيدها مرة
مرة بعد اخرى وهو في ذلك غافل عن مقصود الرسالة ومراعاة حرمة المجلس فما اجدره بان يقام عليه
السياسة ويرد الى دار المجانين ويحكم عليه بفقد العقل وفرقة اخرى اغتروا بقراءة القرآن فيهذونه
هذا وربما يختمونه في اليوم والليلة مرة والسنتهم تجري به وقلوبهم تتردد في اودية الاماني ولا
يتفكر في معاني القرآن لينزجر بزواجره ويتعظ بمواعظه ويقف عند اوامره ونواهيه ويعتبر بمواضع
الاعتبار منه الى غير ذلك مما ذكرناه في كتاب تلاوة القرآن من مقاصد التلاوة فهو مغرور يظن
ان المقصود من انزال القرآن الهمهمة مع الغفلة عنه ومثاله عبد كتب اليه مالكه كتابا واشار
عليه فيه بالاوامر والنواهي فلم يصرف عنايته الى فهمه والعمل به ولكن اقتصر على حفظه فهو
مستمر في خلاف ما امره به مولاه الا انه مكرر للكتاب بنغمته وصوته كل يوم مائة مرة وهو مستحق
للعقوبة وهو يظن ان ذلك هو المراد فهو مغرور نعم انما تلاوته انما يراد لكي لا ينسى بل الحفظ
وحفظه يراد لمعناه ومعناه يراد للعمل به والانتفاع بمعانيه وقد يكون له صوت طيب فهو يقرأه
ويلتذ به ويغتر باستلذاذه ويظن ان ذلك لذة مناجاة الله وسماع كلامه وانما هو لذته في صوته
ولو ردد الحانه بشعر وكلام آخر لالتذ به ذلك الالتذاذ وهو مغرور اذ لم يتفقد قلبه فيعرفه ان ذلك
لذته بكلام الله من حيث حسن نظمه ومعانيه او بصوته وفرقة اخرى منهم اغتروا بالصوم وربما
صاموا الدهر او صاموا الايام الشريفة وهم فيها لا يحفظون السنتهم من الغيبة وخواطرهم من الرياء وبطونهم
من الحرام عند الافطار والسنتهم من الهذيان بانواع الفضول طول النهار وهو مع ذلك يظن بنفسه
الخير يهمل الفرض ويطلب النفل ثم لا يقوم بحقه وذلك غاية الغرور وفرقة اخرى اغتروا بالحج من
غير خروج من المظالم وقضاء الديون واسترضاء الوالدين وطلب الزاد الحلال وقد يفعلون ذلك
بعد سقوط حج الاسلام ويضيعون في الطريق الصلوة والفرائض ويعجزون عن طهارة الثوب
والبدن ويتعرضون لمكس الظلمة حتى يوخذ منهم ولا يحترزون في الطريق من الرفث والخصام
وربما جمع بعضهم الحرام فانفقه على الرفقاء في الطريق وهو يطلب به السمعة والرياء فيعصي الله في

كسب الحرام اولا واتفاقه بالرياء ثانيا ولاهو اخذه من حله ولاهو وضعه في حقه ثم يحضر البيت بقلب ملوث
برذايل الاخلاق وذميم الصفات لم يقدم تطهيرها على حضورها وهو مع ذلك يظن انه على خير من ربه
وهو مغرور وفرقة اخرى اخذت في طريق الحسبة والامر بالمعروف والنهي عن المنكر ينكر على الناس ويامرهم
بالخير وينسى نفسه واذا امرهم بالخير عنف وطلب الرياسة والعز واذا باشر منكرا ورد عليه غضب وقال
انا المحتسب فكيف ينكر علي وقد يجمع الناس الى مسجده ومن تاخر عنه غلظ القول عليه وانما غرضه
الرياء والرياسة ولو قام بتعهد المسجد غيره لحرد عليه بل منهم من يؤذن ويظن انه يؤذن لله ولو جاء غيره
واذن في وقت غيبته قامت عليه القيمة وقال لم اخذ حقي وزوحمت على مرتبتي وكذلك قد يتقلد امامة
مسجد ويظن انه على خير وانما غرضه ان يقال انه امام المسجد فلو تقدم غيره بامامه وان كان اورع واعلم
منه ثقل عليه وفرقة اخرى جاوروا بمكة والمدينة واغتروا بهما ثم لم يراقبوا قلوبهم ولم يطهروا ظاهرهم
وباطن قلوبهم معلقة ببلادهم ملتفتة الى قولهم ان فلانا مجاور بمكة تراه يتحدى ويقول قد جاورت
بمكة كذا وكذا سنة واذا اجتمع ان ذلك قبيح ترك صريح التحدي واحب ان تعرفه الناس واذا اجتمع نشا
منه شح عليه وامسكه ولم يسمح نفسه بلقمة يتصدق بها على فقير فيظهر فيه الرياء والبخل والطمع وجملة
من المهلكات كان عنها بمعزل لو ترك المجاورة ولكن حب المحمدة وان يقال انه من المجاورين الزمه
الجوار مع التضمخ بهذه الرذايل فهو ايضا مغرور ومامن عمل من الاعمال وعبادة من العبادات
الا وفيها آفات فمن لم يعرف مداخل آفاتها واعتمد عليها فهو مغرور ولا يعرف شرح ذلك الا من جملة
كتاب احياء علوم الدين فيعرف مداخل الغرور في الصلاة من كتاب الصلوة وفي الحج والزكوة والتلاوة
وساير القربات من الكتب التي رتبناها فيها وانما الغرض الآن الاشارة الى مجامع ما سبق في
الكتب وفرقة اخرى زهدت في المال وقنعت من الطعام واللباس بالدون ومن المسكن بالمساجد
وظنت انها ادركت رتبة الزهاد وهو مع ذلك راغب في الرياسة والجاه اما بالعلم او بالوعظ او بمجرد الزهد
فقد ترك اهون الامرين وباء باعظم المهلكين فان الجاه اعظم من المال ولو ترك الجاه واخذ المال لكان
الى السلامة اقرب فهذا مغرور اذ ظن انه من الزهاد في الدنيا وهو لم يفهم معنى الدنيا ولم يدر ان
منتهى لذتها الرياسة وان الراغب فيها لا بد وان يكون منافقا وحسودا ومتكبرا ومرائيا ومتصفا
بجميع خبايث الاخلاق نعم وقد يترك الرياسة ويؤثر الخلوة والعزلة وهو مع ذلك مغرور اذ يتطاول به
على الاغنياء ويخشن معهم الكلام وينظر اليهم بعين الاستحقار ويرجو لنفسه اكثر مما يرجو لهم ويعجب
بعمله ويتصف بجملة خبايث القلوب وهو لا يدري وربما يعطى المال ولا ياخذه خيفة من ان يقال

بطل زهده ولو قيل انه حلال فخذه في الظاهر ورده في الباطن لم تسمح به نفسه خوفا من ذم الناس
وهو راغب في حمد الناس وهو من الذ ابواب الدنيا ويرى نفسه انه زاهد في الدنيا وهو مغرور ومع
ذلك فربما لا يخلوا عن توقير الاغنياء وتقديمهم على الفقراء والميل الى المريدين له والمثنين عليه والنفرة
عن المائلين الى غيره من الزهاد وكل ذلك خدعه وغرور من الشيطان وفي العباد من يشدد على نفسه
في اعمال الجوارح حتى يصلي في اليوم والليلة مثلا الف ركعة ويختم القرآن وهو في جميع ذلك لا يخطر
له مراعاة القلب وتفقده وتطهيره من الرياء والكبر والعجب وساير المهلكات فلا يدري ان ذلك مهلك
وان علم فلا يظن بنفسه ذلك وان ظن بنفسه ذلك توهم انه مغفور له لعمله الظاهر وانه غير مواخذ باحوال
القلب وان توهم فيظن ان العبادات الظاهرة يترجح بها كفة حسناته وهيهات فذرة من ذي
تقوى وخلق واحد من اخلاق الاكياس افضل من امثال الجبال عملا بالجوارح لا يخلوا هذا المغرور
مع سوء خلقه مع الناس وخشونته وتلوث باطنه عن الرياء وحب الثناء فاذا قيل له انت
من اوتاد الارض واولياء الله واحبائه فرح المغرور وصدق به وزاده ذلك غرورا وظن ان تزكية
الناس له دليل على كونه مرضيا عند الله ولا يدري ان ذلك لجهل الناس بخبايث باطنه وفرقة اخرى
حرصت على النوافل ولم تعظم اعتدادها بالفرايض ترا يفرح بصلوة الضحى وبصلاة الليل وامثال
هذه النوافل ولا يجد للفريضة لذة ولا يشتد حرصه على المبادرة بها في اول الوقت وينسا قوله
صلى الله عليه وسلم ما يتقرب المتقربون بمثل اذا ما افترضت عليهم وترك الترتيب بين الخيرات من جملة
الشرور بل قد يتعين على الانسان فرضان احدهما يفوت والآخر لا يفوت ونفلان احدهما
تضيق وقته والاخر يتسع وقته فان لم يحفظ وقت الترتيب فيه كان مغرورا ونظاير ذلك اكثر
من ان تحصى فان المعصية ظاهرة والطاعة ظاهرة وانما الغامض تقدم بعض الطاعات
على البعض كتقديم الفرايض كلها على النوافل وتقديم فرض الاعيان على فروض الكفايات وتقديم
فرض كفاية لا قايم بها على ما قام به غيره وهذا كما يجب ان يتقدم حاجة الوالدة على حاجة الوالد
سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال من ابر فقال امك قال ثم من قال امك قال ثم من قال اباك
قال ثم من قال ادناك فادناك فينبغي ان يبدأ في الصلة بالاقرب فان استويا فالاحوج فان استويا
فالاتقى والاورع وكذلك من لا يفي بنفقة الوالدين والحج فربما يحج فهو مغرور بل ينبغي ان يقدم حقهما
على الحج وهذا من تقديم فرض اهم على فرض هو دونه وكذلك اذا كان على العبد ميعاد ودخل وقت
الجمعة فالجمعة يفوته فالاشتغال بالوفاء بالوعد معصية وان كان هو طاعة في نفسه وكذلك

بسبب ثوبه النجاسة فيغلظ القول على ابويه واهله بسببه فالنجاسة محذورة والايذا لهما محذور والحذر
من الايذا اهم من الحذر من النجاسة وامثلة تقابل المحذورات والطاعات لا تحصر ومن ترك الترتيب
في جميع ذلك فهو مغرور وهذا غرور في غاية الغموض لان المغرور فيه في طاعة الا انه لا يفطن لصيرورة
الطاعة معصية حيث يترك طاعة واجبة هي اهم منها ومن جملته الاشتغال بالمذاهب والخلاف في
الفقه في حق من بقي عليه شغل من الطاعات والمعاصي الظاهرة والباطنة المتعلقة بالجوارح
والمتعلقة بالقلب لان مقصود الفقه معرفة ما يحتاج اليه غيره في حوائجهم فمعرفة ما يحتاج اليه
في قلبه اولى به الا ان حب الرياسة والجاه ولذة المباهاة وقهر الاقران والتقدم عليهم يعمي عليه
حتى يغتر به مع نفسه ويظن انه مشغول بمهم دينه **الصنف الثالث المتصوفة** وما اغلب
الغرور عليهم والمغترون منهم فرق فرقة وهم متصوفة اهل الزمان الا من عصمه الله تعالى اغتروا بالزي
والمنطق والهيئات فساعدوا الصادقين من المتصوفة في زيهم وهيئاتهم وفي الفاظهم وآدابهم ومراسمهم
واصطلاحاتهم وفي احوالهم الظاهرة في السماع والرقص والطهارة والصلاة والجلوس على السجادات
مع اطراق الراس وادخاله في الجيب كالمتفكر وفي تنفس الصعداء وفي خفض الصوت في الحديث
الى غير ذلك من الشمائل والهيآت فلما تكلفوا هذه الامور وتشبهوا بهم فيها ظنوا انهم ايضا صوفية ولم
يتعبوا انفسهم قط في المجاهدة والرياضة ومراقبة القلب وتطهير الباطن والظاهر من الآثام الخفية
والجلية وكل ذلك من اوائل منازل التصوف ولو فرغوا من جميعها لما جاز لهم ان يعدوا انفسهم من الصوفية
ولم يحوموا قط حولها ولا يسوموا انفسهم شيئا منها بل يتكالبون على الحرام والشبهات واموال السلاطين
ويتنافسون في الرغيف والفلس والحبة ويتحاسدون على النقير والقطمير ويمزق بعضهم
اعراض بعض مهما خالفه في شي من غرضه وهولاء غرورهم ظاهر ومثالهم مثال امراة عجوز سمعت ان الشجعان
من المقاتلين تثبت اسماوهم في الديوان ويقطع لكل واحد منهم قطر من اقطار المملكة فتاقت نفسها
الى ان يقطع مملكة فلبست درعا ووضعت على راسها مغفرا وتعلمت من رجز الابطال ابياتا وتعودت
ايراد تلك الابيات بنغماتهم حتى تيسرت عليها وتعلمت كيف هيآت تبخترهم في الميدان وكيف تحريكهم
الايدي وتلقفت جميع شمائلهم في الزي والمنطق والحركات والسكنات ثم توجهت الى المعسكر
ليثبت اسمها في ديوان الشجعان فلما وصلت الى المعسكر انفذت الى ديوان العرض وامر ان
يجرد عن المغفر والدرع وينظر ما تحته ويمتحن بالمبارزة مع بعض الشجعان ليعرف قدر عنائها
في الشجاعة فلما جردت عن المغفر والدرع فاذا هي عجوز ضعيفة زمنة لا تطيق حمل الدرع والمغفر فقيل

اجيبت الاستهزاء بالملك والاستخفاف باهل حضرته والتلبيس عليه حدوها فالقوها الي قدام الفيل
ليمحقها فالقيت الي الفيل وهكذا يكون حال المدعين للتصوف في لعيهم اذ اكشف عنهم الغطا
وعرضوا علي القاضي الاكبر الذي لا ينظر الي الزي والمرقع بل ينظر الي سر القلب وفرقة اخرى
زادت علي هولاء في الغرور اذ صعب عليها الاقتداء بهم في بذاذة الثياب والرضا بالدون واردت
ان تتظاهر بالتصوف ولم تجد بدا من التزي بزيهم فتركت الخز والابريسم وطلبت المرقعات النفيسة
والفوط الرفيعة والسجادات المصبوغة ولبس من الثياب ما هو ارفع قيمة من الخز والابريسم
وظن مع ذلك انه متصوف بمجرد لون الثياب وكونها مرقعة ونسي انهم انما لونوا الثياب لئلا يطول
عليهم غسلها في كل ساعة ولازالة الوسخ وانما لبسوا المرقع اذ كانت ثيابهم مخرقة فكانوا يرقعونها
ولا يلبسون الجديد واما تقطيع الفوط الرفيعة قطعة قطعة وخياطة المرقعات منها فاين
يشبه ما اعتادوه فهولاء اظهر حماقة من كافة المغرورين فانهم يتنعمون بنفيس الثياب ولذايذ
الاطعمة ويطلبون رغد العيش وياكلون اموال السلاطين ولا يجتنبون المعاصي الظاهرة فضلا
عن الباطنة وهم مع ذلك يظنون بانفسهم الخير وشر هولاء مما يتعدى الي الخلق ويهلك من يقتدي
بهم ومن لا يقتدي بهم يفسد عقيدته في اهل التصوف كافة ويظن ان جميعهم كانوا من جنسه
فيطول اللسان في الصادقين منهم وكل ذلك من شوم المتشبهين وشرهم وفرقة اخرى ادعت
علم المعرفة ومشاهدة الحق ومجاوزة المقامات والاحوال والملازمة في عين الشهود والوصول
الي القرب ولا يعرف هذه الامور الا بالاسامي والالفاظ الا انه تلقف من الفاظ الطامات كلمات
فهو يرددها علي نفسه ويظن ان ذلك اعلي من علم الاولين والاخرين فهو ينظر الي الفقها
والمفسرين والمحدثين واصناف العلماء بعين الازدراء فضلا عن العوام حتى ان الفلاح يترك
فلاحته والحائك يترك حياكته ويلازمهم اياما معدودة ويتلقف منهم تلك الكلمات المزيفة فهو
يرددها كانه يتكلم عن الوحي ويخبر عن سر الاسرار ويستحقر بذلك جميع العباد والعلماء فيقول
في العباد انهم اجراء متعبون ويقول في العلماء انهم بالحديث عن الله محجوبون ويدعي لنفسه انه
الواصل الي الحق وانه من المقربين وهو عند الله من الفجار المنافقين وعند ارباب القلوب
من الحمقاء الجاهلين لم يحكم قط علما ولم يهذب خلقا ولم يرتب عملا ولم يراقب قلبا سوى اتباع
الهوى وتلقف الهذيان وحفظه وفرقة منهم وقعت في الاباحة وطووا بساط الاحكام ورفضوا
الفصل بين الحلال والحرام فبعضهم يزعم ان الله مستغن عن عملي فلم اتعب نفسي وبعضهم يقول

قد كلف الناس تطهير القلب عن الشهوات وعن حب الدنيا وذلك محال فقد كلفوا ما لا يمكن وانما يغتر
به من لم يجرب واما نحن فقد جربنا وادركنا ان ذلك محال ولا يعلم الاحمق ان الناس لم يكلفوا قلع الشهوة
والغضب من اصلهما بل تاديبهما بحيث ينقاد الحكم العقل والشرع وبعضهم يقول الاعمال بالجوارح لا وزن
لها وانما النظر الى القلوب وقلوبنا والهة بحب الله وواصلة الى معرفة الله وانما نخوض الدنيا بابداننا
وقلوبنا عاكفة في الحضرة الربوبية فنحن مع الشهوات بالظواهر لا بالقلوب ويزعمون انهم قد ترقوا عن رتبة
العوام واستغنوا عن تهذيب النفس بالاعمال البدنية فان الشهوات لا تصدهم عن رتبة العوام لقوتهم
فيها ويرفعون درجة انفسهم عن درجة الانبياء اذ كان يصدهم عن طريق الله خطيئة واحدة حتى كانوا
يبكون عليها وينوحون سنين متوالية واصناف غرور اهل الاباحة من المتشبهين بالصوفية لا تحصى
وكل ذلك بناء على اغاليط ووساوس خدعهم الشيطان بها لاشتغالهم بالمجاهدة قبل احكام
العلم ومن غير اقتداء بشيخ متقن في الدين والعلم صالح الاقتداء واحصاء اصنافهم يطول وفرقة
اخرى جاوزت حد هولاء واحسنت الاعمال وطلبت الحلال واشتغلت بتفقد القلب وصارت
تدعي المقامات من الزهد والتوكل والرضى والحب من غير وقوف على حقيقة هذه المقامات وشروطها
وعلاماتها وآفاتها فمنهم من يدعي الوجد والحب لله تعالى يزعم انه واله بالله ولعله قد تخيل في الله
خيالات هي بدعة او كفر فيدعي حب الله قبل معرفته ثم انه لا يخلو عن مقارفة ما يكره الله وايثار هوى
نفسه على امر الله وعن ترك بعض الامور حياء من الخلق ولو خلي لما تركه حياء من الله وليس يدري ان
كل ذلك يناقض الحب وبعضهم ربما يميل الى القناعة والتوكل فيخوض البوادي من غير زاد لتصحيح
دعوى التوكل وليس يدري ان ذلك بدعة لم ينقل عن السلف والصحابة وقد كانوا اعرف بالتوكل
منه فما فهموا من التوكل المخاطرة بالروح وترك الزاد بل كانوا ياخذون الزاد وهم متوكلون على الله
تعالى لا على الزاد وهذا ربما يترك الزاد وهو متوكل على سبب من الاسباب واثق به وما من مقام
من المقامات المنجيات الا وفيها غرور وقد اغتر بها قوم وقد ذكرنا مداخل الآفات في ربع المنجيات
من الكتاب فلا يمكن اعادته وفرقة اخرى ضيقت على نفسها في امر القوت حتى طلبت منه الحلال
الخالص واهملت تفقد القلب والجوارح في غير هذه الخصلة الواحدة ومنهم من اهمل الحلال في
مطعمه وملبسه ومكسبه واخذ يتعمق في غير ذلك وليس يدري المسكين ان الله لم يرض من عبده
بطلب الحلال فقط ولا رضي بسائر الاعمال دون طلب الحلال بل لا يرضيه الا تفقد جميع الطاعات
والمعاصي فمن ظن ان بعض هذه الامور تكفيه وتنجيه فهو مغرور وفرقة منهم ادعوا حسن الخلق

والتواضع والمسامحة فتصدوا عن لخدمة الصوفية فجمعوا قوما قد كلفوا الخدمتهم واتخذوا ذلك شبكة للرياسة وجمع المال وانما غرضهم التكبر وهم يظهرون الخدمة والتواضع وغرضهم الارتفاق وهم يظنون ان غرضهم الارتفاق وغرضهم الاستتباع وهم يظهرون ان غرضهم الخدمة والتبعية ثم انهم يجمعون من الحرام والشبهات وينفقون عليهم ليكثر اتباعهم وينتشر بالخدمة اسمهم وبعضهم ياخذون اموال السلاطين وينفق عليهم وبعضهم ياخذها لينفق في طريق الحج على الصوفيه ويزعم ان غرضه البر والارفاق وباعث جميعهم الرياء والسمعة وآية ذلك اهمالهم لجميع اوامر الله تعالى عليهم ظاهرا وباطنا ورضاهم باخذ الحرام والانفاق منه ومثال من ينفق الحرام في طريق الحج لارادة الخير كمن يعمر مساجد الله فيطينها بالعذرة ويزعم ان قصده العمارة وفرقة اخرى منهم اشتغلوا بالمجاهدة وتهذيب الاخلاق وتطهير النفس من عيوبها وصاروا يتعمقون فيها فاتخذوا البحث عن عيوب النفس ومعرفة خدعها علما وحرفة فهم في جميع احوالهم مشتغلون بالفحص عن عيوب النفس وباستنباط دقيق الكلام في آفاتها فيقولون هذا في النفس عيب والغفلة عن كونه عيبا عيب وبالالتفات الى كونه عيبا عيب ويشغفون فيه بكلمات مسلسلة ضيع الاوقات في تلفيقها ومن جعل طول عمره في التفتيش عن العيوب وتحرير علم علاجه كان كمن اشتغل بالتفتيش عن عوايق الحج وآفاته ولم يسلك طريق الحج فذلك لا يغنيه وفرقة اخرى جاوزوا هذه الرتبة وابتدوا سلوك الطريق وانفتح لهم ابواب المعرفة فكلما تشمموا من مبادي المعرفة رايحة تعجبوا منها وفرحوا بها فاعجبتهم غرايبها فتقيدت قلوبهم بالالتفات اليها والتفكر فيها وفي كيفية انفتاح بابها عليهم وانسدادها على غيرهم وكل ذلك غرور لان عجايب طريق الله تعالى ليس لها نهاية فلو وقف مع كل اعجوبة وتقيد فيه قصر خطاه وحرم عن الوصول الى المقصد وكان مثاله مثال من قصد ملكا فراى على ميدانه روضة روضة فيها انهار وانوار ولم يكن قد راى قبل ذلك مثله فوقف ينظر فيه حتى فاته الوقت الذي يمكن فيه لقاء الملك وفرقة اخرى جاوزوا هؤلاء ولم يلتفتوا الى ما يفيض عليهم من الانوار في الطريق والى ما تيسر لهم من العطايا الجزيلة ولم يعرجوا على الفرح بها والالتفات اليها جادين في المسير حتى قاربوا فوصلوا الى حد القربة الى الله فظنوا انهم وصلوا الى الله تعالى فوقفوا وغلطوا فان لله سبعين حجابا من نور ولا يصل السالك الى حجاب من تلك الحجب في الطريق الا ويظن انه قد وصل واليه الاشارة بقول ابرهيم صلى الله عليه وسلم اذ قال الله تعالى اخبارا عنه فلما جن عليه الليل راى كوكبا قال هذا ربي وليس المعنى به هذه الاجسام

المضيئة فانه كان يراها في الصغر ويعلم انها ليست بآلهة وهي كثيرة وليست واحدة والجهال يعلمون
ان الكوكب ليس باله فمثل ابرهيم لا يغره الكوكب الذي لا يغر السوادية ولكن المراد به نور من الانوار التي
هي من حجب الله وهي على طريق السالك ولا يتصور الوصول الى الله الا بالوصول الى هذه الحجب وهي حجب
من النور بعضها اعظم من بعض واصغر النيرات الكوكب فاستعير له لفظه واعظمها الشمس وبينهما رتبة
القمر فلم يزل ابرهيم عليه السلم لما رأى ملكوت حيث قال تعالى وكذلك نري ابرهيم ملكوت السموات
يصل الى نور بعد نور ويتخايل اليه اول ما يلقاه وانه قد وصل ثم كان يكشف له ان وراءه امرا فيترقى
اليه ويقول قد وصلت فيكشف له ما وراءه حتى وصل الى الحجاب الاقرب الذي لا وصول الى ما بعده
قال هذا اكبر فلما ظهر له انه مع عظمه غير خال من الهوي في حظيرة النقص والانحطاط عن ذروة الكمال
قال لا احب الآفلين اني وجهت وجهي للذي فطر السموات والارض وسالك هذا الطريق قد يغتر
في الوقوف على بعض هذه الحجب وقد يغتر بالحجاب الاول واول الحجاب بين العبد وبين الله هو
نفسه فانه ايضا امر رباني وهو نور من انوار الله اعني سر القلب الذي يتجلى فيه حقيقته كله حتى انه
ليتسع لجملة العالم ويحيط به ويتجلى فيه صورة الكل وعند ذلك يشرق فيه نوره اشراقا عظيما اذ
يظهر فيه الوجود كله على ما هو عليه وهو في اول الامر محجوب بمشكاة هو كالساتر له فاذا تجلى نوره
وانكشف جمال القلب بعد اشراق نور الله عليه ربما التفت صاحب القلب الى القلب فيرى من جماله
الفائق ما يدهشه فيسبق لسانه في هذه الدهشة فيقول انا الحق فان لم يتضح له ما وراء ذلك
اغتر به ووقف عليه وهلك وكان قد اغتر بكوكب صغير من انوار الحضرة الالهية ولم يصل بعد الى
القمر فضلا عن الشمس فهو مغرور وهنا محل الالتباس اذ المتجلي يلتبس بالمتجلى فيه كما يلتبس لون
ما تراه في المرآة فيظن انه لون المرآة وكما يلتبس ما في الزجاج بالزجاج كما قيل رق الزجاج ورقت الخمر
فتشابها وتشاكل الامر فكانما خمر ولا قدح وكانما قدح ولا خمر وبهذه العين نظر النصارى الى
المسيح عليه السلام فرأوا اشراق نور الله قد تلألأ فيه فغلطوا فيه كمن يرى كوكبا في مرآة او في ماء
فيظن ان الكوكب في المرآة او في الماء فيمد اليد اليه ليأخذه وهو مغرور وانواع الغرور في طريق السلوك
الى الله تعالى لا تحصى في مجلدات ولا يستقصى الا بعد شرح جميع علوم المكاشفة وذلك مما لا رخصة
في ذكره ولعل القدر الذي ذكرناه ايضا الاولى تركه اذ السالك لهذا الطريق لا يحتاج الى ان يسمعه من
غيره والذي لم يسلكه لا ينتفع بسماعه بل ربما يستضر به اذ يورثه ذلك دهشة من حيث يسمع ما لا يفهمه
ولكن فيه فائدة هو اخراجه من الغرور الذي هو فيه اذ ربما يصدق بان الامر اعظم مما يظنه ومما يتخيله

بمذهبه المختصر وخياله القاصر وجدله المزخرف ويصدق ايضا بما يحكى من المكاشفات التي اخبر
عنها اولياء الله ومن اعظم غروره ربما اصر مكذبا بما يسمعه الآن من بعد الصنف الرابع
ارباب الاموال والمغترون منهم فرق ففرقة منهم يحرصون على بناء المساجد والمدارس
والرباطات والقناطر وما يظهر للناس كافة ويكتبون اساميهم بالاجر عليه ليتخلد ذكرهم
ويبقى بعد الموت اثرهم وهم يظنون انهم قد استوجبوا المغفرة بذلك وقد اغتروا فيه من وجهين
احدهما انهم يبنونها من اموال اكتسبوها من الظلم والنهب والرشا والجهات المحظورة فهم قد تعرضوا
لسخط الله في كسبها وتعرضوا لسخطه في انفاقها فكان الواجب عليهم الامتناع عن كسبها فاذا عصوا
الله تعالى بكسبها كان الواجب عليهم التوبة والرجوع الى الله تعالى وردها الى ملاكها اما باعيانها
واما برد بدلها عند العجز فان عجزوا عن الملاك كان الواجب ردها الى الورثة فان لم يبق
للمظلوم وارث فالواجب صرفها الى اهم المصالح وربما يكون الاهم التفرقة على المساكين وهم
لا يفعلون ذلك خيفة من ان لا يظهر ذلك للناس فيبنون الابنية بالاجر وغرضهم من بنائهم
الرياء وجلب الثناء وحرصهم على بقائها لبقاء اسمهم بها لا لبقاء الخير والوجه الثاني انهم
يظنون بانفسهم الاخلاص وقصد الخير في الانفاق على الابنية ولو كلف واحد منهم ان ينفق
دينارا ولا يكتب اسمه على الموضع الذي انفق عليه لشق عليه ولم تسمح به نفسه والله مطلع عليه
كتب اسمه او لم يكتبه فلولا انه يريد به وجه الناس لا وجه الله لما افتقر الى ذلك وفرقة اخرى
ربما اكتسب المال من الحلال وانفقه على المساجد وهي ايضا مغرورة من وجهين احدهما الرياء
وطلب الثناء فانه ربما يكون في جواره او في بلده فقراء وصرف المال اليهم اهم من الصرف الى المساجد
وزينتها وانما يخف عليه الصرف الى المساجد ليظهر ذلك بين الناس والثاني انه يصرف الى زخرفة
المسجد وتزيينه بالنقوش التي هي منهي عنها وشاغلة قلوب المصلين ومختطفة اعينهم والمقصود
من الصلاة الخشوع وحضور القلب وذلك يفسد قلوب المصلين ويحبط ثوابهم بذلك ووبال ذلك
كله يرجع اليه وهو مع ذلك يغتر به ويرى انه من الخيرات ويعتقد ذلك وسيلة الى الله وهو بذلك قد
يعرض لسخط الله وهو يظن انه مطيع لله وممتثل لامره وقد شوش قلوب عباد الله بما زخرفه من
المسجد وربما شوقهم الى زخارف الدنيا فيشتهون مثل ذلك في بيوتهم ويشتغلون بطلبه
ووبال ذلك كله في رقبته اذ المسجد للتواضع ولحضور القلب مع الله تعالى قال مالك بن دينار دخل
رجلان مسجدا فوقف احدهما على الباب وقال مثلي لا يدخل بيت الله فكتب عند الله صديقا فهذا

ينبغي ان يعظم المسجد وهو ان يرى تلويث المسجد بنفسه جناية على المسجد لا ان يرى تلويثا لمسجد
بالحرام وبزخرف الدنيا منة على الله تعالى وقال الحواريون للمسيح عليه الصلوة والسلم انظر الى هذا
المسجد ما احسنه فقال اسمعوا مني بحق ما اقول لكم لا يترك الله من هذا المسجد حجرا قائما على حجر الا اهلكه
بذنوب اهله ان الله لا يعبا بالذهب والفضة ولا بهذه الحجارة التي تعجبكم شيا وان احب الاشيا
الى الله القلوب الصالحة بها يعمر الله الارض وبها تخرب اذا كانت على غير ذلك وقال ابو الدردا قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا زخرفتم مساجدكم وحليتم مصاحفكم فالدمار عليكم وقال الحسن ان رسول
الله صلى الله عليه وسلم لما اراد ان يبني مسجد المدينة اتاه جبرئيل عليه السلم فقال ابنه سبعة اذرع طولا
في السما لا تزخرفه ولا تنقشه فغرورهم لا من حيث انه راى المنكر معروفا واتكل عليه وفرقة اخرى ينفقون
الاموال بالصدقات على الفقرا والمساكين ويطلبون بها المحافل الجامعة ومن الفقرا من عادته الشكر والافشا
للمعروف ويكرهون التصدق في السر ويرون اخفاء الفقير لما اخذ منهم جناية عليهم وكفرانا وربما يحرصون
على انفاق المال في الحج فيحجون مرة بعد اخرى وربما تركوا جيرانهم جياعا ولذلك قال ابن مسعود
في آخر الزمان يكثر الحجاج بلا سبب يهون عليهم السفر ويبسط لهم في الرزق ويرجعون محرومين مسلوبين
يهوي باحدهم بعيره بين القفار والرمال وجاره ماسور الى جانبه لا يواسيه وروى ابو نصر التمار ان رجلا جاء ي
ودع بشر بن الحارث وقال قد عزمت على الحج فتامرني بشي فقال له كم اعددت للنفقة فقال الفي درهم فقال
بشر فاي شي تبتغي بحجك نزهة او اشتياقا الى البيت او ابتغاء مرضات الله تعالى فقال ابتغاء مرضات الله
تعالى فقال فان اصبت رضاء الله وانت في منزلك وتنفق الفي درهم وتكون على يقين من مرضاة الله تعالى
اتفعل ذلك قال نعم قال فاذهب فاعطها عشرة انفس مديون يقضي دينه وفقير يرم شعثه ومعيل
يغني عياله ومربي يتيم يفرحه وان قوي قلبك ان تعطيها واحدا فافعل فان ادخالك السرور على قلب المسلم
واغاثة الملهوف وكشف الضر واعانة الضعيف افضل من مائة حجة بعد حجة الاسلام قم فاخرجها كما
امرناك والا فقل لنا ما في قلبك فقال يا ابا نصر سفري اقوى في قلبي فتبسم بشر واقبل عليه فقال له المال
اذا جمع من وسخ التجارات والشبهات اقتضت النفس ان يقضي به وطرا فاظهرت اعمال الصالحات وقد
آلى الله سبحانه وتعالى على نفسه الا يقبل الا عمل المتقين وفرقة اخرى من ارباب الاموال يحفظون الاموال
ويمسكونها بحكم البخل ثم يشتغلون بالعبادات البدنية التي لا يحتاج فيها الى نفقة كصيام النهار وقيام
الليل وختم القرآن وهم مغرورون لان البخل المهلك قد استولى على باطنه فهو محتاج الى قمعه باخراج
المال فقد اشتغل بطلب فضائل هو فيها مستغن عنها ومثاله من دخل في ثوبه حية وقد اشرف على الهلاك

وهو مشغول بطبخ السكنجبين ليسكن به الصفراء ومن قتلته الحية متى يحتاج الي السكنجبين وكذلك
قيل لبشر رحمه الله عليه ان فلانا الغني كثير الصوم والصلوة فقال المسكين ترك حاله ودخل في حال غيره
انما حال هذا اطعام الطعام للجياع والانفاق علي المساكين وهذا افضل من تجويعه نفسه ومن
صلاته لنفسه مع جمعه الدنيا ومنعه الفقراء وفرقة اخرى غلب عليهم البخل فلا تسمح نفوسهم الا باداء
الزكوة فقط ثم انهم يخرجون من المال الخبيث الردي الذي يرغبون عنه ويطلبون من الفقراء من
يخدمهم ويتردد في حاجاتهم او من يحتاجون اليه في المستقبل للاستسخار في خدمته او من لهم فيه
علي الجملة غرض او يسلمون الي من يعينه واحد من الاكابر ممن يستظهر بحشمته لينال بذلك عنده منزلة
فيقوم بحاجاته وكل ذلك مفسدات للنية ومحبطات للعمل وصاحبه مغرور يظن بانه مطيع لله وهو
فاجر اذ طلب بعبادة الله عوضا من غيره وهذا وامثاله من غرور ارباب الاموال ايضا لا يحصى وانما
ذكرنا هذا القدر لينبه علي اجناس الغرور وفرقة اخرى من عوام الخلق وارباب الاموال او الفقراء
اغتروا بحضور مجالس الذكر واعتقدوا ان ذلك يغنيهم ويكفيهم واتخذوا ذلك عادة ويظنون ان لهم
علي مجرد سماع الوعظ دون العمل ودون الاتعاظ اجرا وهم مغرورون لان فضل مجالس الذكر لكونه
مرغبا في الخير فان لم يهيج الرغبة فلا خير فيه والرغبة محمودة لانها تبعث علي العمل فان ضعفت
عن الحمل علي العمل فلا خير فيها وما يراد لغيره فاذا قصر عن الاداء الي ذلك الغير فلا قيمة له وربما يغتر بما
سمعه من الواعظ من فضل حضور المجلس وفضل البكاء وربما تدخله رقة كرقة النساء فيبكي وربما
سمع كلاما مخوفا فلا يزيد علي ان يصفق بيديه ويقول يا سلام سلم او نعوذ بالله او سبحان الله ويظن
انه قد اتى بالخير كله وهو مغرور وانما مثاله مثال المريض يحضر مجالس الاطباء فيسمع ما يجري او الجائع
يحضر عند من يصف له الاطعمة اللذيذة الشهية ثم ينصرف ولا يغني عنه من مرضه وجوعه شيئا وكذلك
سماع وصف الطاعات دون العمل بها لا يغني من الله شيئا فكل وعظ لم يغير منك صفة تغييرا يغير
افعالك حتى تقبل علي الله وتعرض عن الدنيا اقبالا قويا او ضعيفا فذلك الوعظ زيادة حجة
عليك فاذا رايته وسيلة لك كنت مغرورا فان قلت فما ذكرته من مداخل الغرور امر لا يتخلص
عنه احد ولا يمكن الاحتراز عنه وهذا يوجب الياس اذ لا يقوى احد من البشر علي الحذر من خفايا
هذه الآفات فاقول الانسان اذا فترت همته في شيء اظهر الياس واستعظم الامر واستوعر
الطريق فاذا صح منه الهوى اهتدى الي الحيل واستنبط بدقيق النظر خفايا الطرق في الوصول
الي الغرض حتى ان الانسان اذا اراد ان يستنزل الطير المحلق في جو السماء مع بعده منه فاستنزله

واراد ان يستصعد الحوت من اعماق البحار فاستصعده واراد ان يخرج الذهب والفضة من تحت
الجبال فاستخرجه واراد ان يقتنص الوحوش المنطلقة في البراري والصحاري فاقتنصه واراد ان
يستسخر السباع والفيلة وعظيم الحيوانات فاستسخره واراد ان ياخذ الافاعي والحيات ويعبث
بها فاخذها فاستخرج الترياق من اجوافها واراد ان يتخذ الديباج الملون المنقوش من ورق التوت
فاتخذه واراد ان يعرف مقادير الكواكب وطولها وعرضها فاستخرج تدقيق الهندسة وهو مستقر
على الارض وكل ذلك باستنباط الحيل واعداد الالات فسخر الفرس والكلب للصيد وسخر البازي
لاقتناص الطيور وهيا الشبكة لاقتناص السمك الى غير ذلك من دقايق حيل الادمي كل ذلك لانه
همه امر دنياه وذلك معين له على دنياه فلو همه امر اخرته فليس عليه الاشغل واحد وهو تقويم
قلبه فيعجز عن تقويم قلبه وتخاذل وقال هذا محال ومن الذي يقدر عليه وليس ذلك محال لو صح همه
هذا الهم الواحد بل هو كما يقال لو صح منك الهوى ارشدت للحيل فهذا شي لم يعجز عنه السلف الصالحون
ومن اتبعهم باحسان ولا يعجز عنه ايضا من صدقت ارادته وقويت همته بل لا يحتاج الى عشر تعب الخلق
واستنباط حيل الدنيا ونظم اسبابها فان قلت فقد قربت الامر فيه بعد ان اكثرت في مداخل
الغرور فبم ينجو العبد من الغرور فاعلم انه ينجو منه بثلاثة امور بالعقل والعلم والمعرفة فهذه ثلثة امور
لابد منها اما العقل فاعني به الفطرة الغريزية والنور الاصلي الذي به يدرك الانسان حقايق الاشيا
فالفطنة والكيس فطرة والحمق والبلادة فطرة والبليد لا يقدر على التحفظ من الغرور فصفي العقل
وذكا الفهم لابد منه في اصل الفطرة وهذا ان لم يفطن فاكتسابه غير ممكن نعم اذا حصل اصله امكن
تقويته بالممارسة فاساس السعادات كلها العقل والكياسة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تبارك الله
الذي قسم العقل بين عباده اشتاتا ان الرجلين ليستوي عملهما وبرهما وصومهما وصلاتهما
ولكنهما يتفاوتان في العقل كالذرة في جنب احد وما قسم الله لخلقه حظا هو افضل من العقل
واليقين وعن ابي الدردا انه قيل يا رسول الله ارايت الرجل يصوم النهار ويقوم الليل ويحج ويعتمر
ويتصدق ويغزو في سبيل الله ويعود المريض ويشيع الجنايز ويعين الضعيف ما يكون منزلته
عند الله يوم القيمة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم انما يجزى على قدر عقله وقال انس اثني على رجل
عند رسول الله صلى الله عليه وسلم خيرا فقال كيف عقله فقالوا يا رسول الله يقول من عبادته وفضله ومن
خلقه فقال كيف عقله فان الاحمق يصيب بحمقه اعظم من فجور الفاجر وانما يقرب الناس على
قدر عقولهم وقال ابو الدردا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا سال عن رجل شدة عبادته سال عن

عقله فاذا قالوا حسن قال انجوه وان قالوا غيره لك قال لن يبلغ قال وذكر عند قوم عبادة رجل فقال كيف
عقله قالوا اليس يبني قال لن يبلغ صاحبكم حيث تظنون والذكاء وصحة غريزة العقل نعمة من الله تعالى
في اصل الفطرة فان فاتت بلادته وحماقته فلا تدارك لها الثاني المعرفة واعني بها ان يعرف ربعة
امور يعرف نفسه ويعرف ربه ويعرف الدنيا ويعرف الآخرة فيعرف نفسه بالعبودية والذل وبكونه
غريبا في هذا العالم واجنبيا من هذه الشهوات البهيمية وانما الموافق لها طبعا وهو معرفة الله تعالى
والنظر الي وجهه فقط ولا يتصور ان يعرف هذا ما لم يعرف نفسه ولم يعرف ربه واستعن على هذا
بما ذكرناه في كتاب المحبة وفي كتاب شرح عجايب القلب والتفكر وكتاب الشكر اذ فيها اشارات
الي وصف النفس والي وصف جلال الله ويحصل به التنبيه علي الجملة وكمال المعرفة وراء فان هذا
من علوم المكاشفة ولم نطنب في هذا الكتاب الا في علوم المعاملة واما معرفة الدنيا والآخرة
فيستعين عليه بما ذكرناه في كتاب ذم الدنيا وفي كتاب ذكر الموت ليتبين له نسبة الدنيا الي الآخرة
واذا عرف نفسه وعرف ربه وعرف الدنيا وعرف الآخرة ثار من قلبه بمعرفة الله حب الله وبمعرفة الآخرة
شدة الرغبة فيها وبمعرفة الدنيا شدة الرغبة عنها فيصير اهم اموره ما يوصله الي الله وينفعه في الآخرة
واذا غلبت هذه الارادة علي قلبه صحت نيته في الامور كلها فان اكل مثلا واشتغل بقضاء الحاجة
كان قصده منه الاستعانة علي سلوك طريق الآخرة وصحت نيته واندفع عنه كل غرور منشاه تجاذب
الاغراض والنزوع الي الدنيا والجاه والمال فان ذلك هو المفسد للنية وما دامت الدنيا احب اليه
من الآخرة وهوى نفسه احب اليه من رضى الله تعالى فلا يمكنه الخلاص من الغرور فاذا غلب حب
الله علي قلبه بمعرفته بالله وبنفسه الصادرة عن كمال العقل فيحتاج الي المعنى الثالث وهو العلم اعني
العلم بكيفية سلوك الطريق الي الله تعالى والعلم بما يقربه الي الله وما يبعده عنه والعلم بآفات
الطريق وغوائله وجميع ذلك قد اودعناه كتاب احياء علوم الدين فيعرف من ربع العبادات شروطها
فيراعيها وآفاتها فيتقيها ومن ربع العادات اسرار المعايش ما هو مضطر اليه فيأخذه باذن الشرع
وما هو مستغن عنه فيعرض عنه ومن ربع المهلكات يعرف جميع العقبات المانعة من طريق الله
فان المانع من الله الصفات المذمومة في الخلق فيعلم المذموم ويعلم طريق علاجه ويعرف من ربع
المنجيات الصفات المحمودة التي لا بد وان يوضع خلفا عن المذمومة بعد محوها فاذا احاط بجميع
ذلك امكنه الحذر عن الانواع التي اشرنا اليها من الغرور واصل ذلك كله ان يغلب حب الله تعالى
علي القلب ويسقط حب الدنيا منه حتى يقوى به الارادة وتصح به النية ولا يحصل ذلك الا بالمعرفة

التي ذكرناها فان قلت فاذا افضل جميع ذلك فما الذي يخاف عليه فاقول يخاف عليه ان يخدعه الشيطان
ويدعوه الى نصح الخلق ونشر العلم ودعوة الناس الى ما عرفه من دين الله فان المريد المخلص اذا فرغ من تهذيب الاخلاق
وراقب القلب حتى صفا عن جميع الكدورات واستوى على صراط المستقيم وصغرت الدنيا في عينه فتركها وانقطع طمعه
عن الخلق فلم يلتفت اليهم ولم يبق له الا هم واحد هو الله تعالى والتلذذ بذكره ومناجاته والشوق الى لقائه وقد عجز الشيطان
عن اغوائه اذ ياتيه من جهة الدنيا وشهوات النفس فلا يطيعه فياتيه من جهة الدين ويدعوه الى الرحمة على خلق
الله تعالى والشفقة على دينهم بالنصح لهم والدعاء الى الله فينظر العبد برحمته الى العبيد فيراهم حيارى في امرهم سكارى في
دينهم صما عميا استولى عليهم المرض وهم لا يشعرون فقد فقدوا الطبيب واشرفوا على العطب فغلب على قلبه الرحمة
لهم وقد كان عنده حقيقة المعرفة بما يهديهم ويبين لهم ضلالتهم ويرشدهم الى سعادتهم وهو يقدر على ذكرها من
غير تعب ومؤنة ولزوم غرامة وقد كان مثله كرجل كان به داء عظيم لا يطاق المه وقد كان لذلك يسهر ليله ويقلق نهاره
ولا ياكل ولا يشرب ولا يتحرك ولا يتصرف لشدة ضربان الالم فوجد له دواء عفوا صفوا من غير ثمن ولا تعب ولا
مرارة في تناوله فاستعمله فبرئ وصح وطاب نومه بالليل بعد طول سهره وهدي بالنهار بعد شدة القلق وطاب
عيشه بعد نهاية الكدر واصاب لذة العافية بعد طول السقام ثم نظر الى عدد كثير من المسلمين واذا بهم تلك
العلة بعينها وقد طال سهرهم واشتد قلقهم وارتفع الى السماء انينهم فتذكر ان دواءهم هو الذي يعرفه ويقدر
على شفائهم باسهل ما يكون وفي اقرب زمان فاخذته الرحمة والرقة ولم يجد فسحة من نفسه في التراخي عن
الاشتغال بعلاجهم فكذلك العبد المخلص بعد ان اهتدى الى الطريق وشفي من امراض القلب شاهد الخلق
وقد مرضت قلوبهم واعضل داؤهم وقرب هلاكهم وشقاؤهم وسهل عليه دواؤهم فانبعث من ذات نفسه
عزم جازم في الاشتغال بنصحهم وحرضه الشيطان على ذلك رجاء ان يجد مجالا للفتنة فلما اشتغل به وجد
مجال الفتنة فدعاه الى الرياسة دعاء خفيا اخفى من دبيب النمل لا يشعر به المريد فلم يزل ذلك الدبيب في قلبه حتى دعاه
الى التصنع والتزين للخلق بتحسين الالفاظ والنغمات والحركات والتصنع في الزي والهيئات فاقبل الناس
اليه يعظمونه ويجلونه ويوقرونه توقيرا يزيد على توقير الملوك اذ راوه شافيا الدائم محضا للشفقة والرحمة من غير
طمع فصار احب اليهم من آبائهم وامهاتهم واقاربهم وآثروه بابدانهم واموالهم وصاروا له خولا كالخدم والعبيد فخدموه
وقدموه في المحافل وحكموه على الملوك والسلاطين فعند ذلك انتشر الطبع وارتاحت النفس وذاقت لذة يا لها
من لذة واصابت من الدنيا شهوة تستحقر معها كل شهوة وكان قد ترك الدنيا فوقع في اعظم لذاتها وعند ذلك
وجد الشيطان فرصته وامتد الى قلبه يده وهو يستعمله في كل ما يحفظ عليه تلك اللذة وامارة انتشار الطبع
وركون النفس الى الشيطان انه لو اخطا ورد عليه بين يدي الخلق غضب فاذا انكر على نفسه ما وجد من الغضب

بادر الشيطان فخيل اليه ان ذلك غضب لله لانه اذا لم يحسن اعتقاد المريدين فيه انقطعوا عن طريق الله فوقع في الغرور
فربما اخرجه ذلك الى الوقيعة فيمن رد عليه فوقع في الغيبة المحظورة بعد ترك الجدال المتسع ووقع في الكبر الذي هو
تمرد عن قبول الحق والشكر عليه بعد ان كان يحذر من طوارق الخطرات وكذلك اذا سبقه الضحك او فتر عن
بعض الاوراد جزعت النفس ان يطلعوا عليه فيسقط قبوله اتبع ذلك باستغفار وتنفس صعدا وربما زاد في
الاعمال والاوراد لاجلهم والشيطان يخيل اليه انك انما تفعل ذلك كيلا يفتروا عن طريق الله عز وجل فيتركون
الطريق بتركك وانما ذلك خدعة وغرور بل هو خدع من النفس خيفة فوت الرياسة ولذلك لا تجزع نفسه من اطلاع
على مثل ذلك من اقرانه من مالت القلوب الى قبوله وزاد امر كلامه في القبول على كلامه شق ذلك عليه ولولا ان
النفس قد انتشرت واستلذت بالرياسة لكانت تغتنم ذلك اذ مثاله ان يرى الرجل جماعة من اخوانه قد وقعوا
في بئر تغطى راس البئر بحجر كبير فعجزوا عن الرقا بسببه فرق قلبه لاخوانه فجاء ليرفع الحجر من راس البئر وشق عليه
فجاء من اعانه على ذلك حتى تيسر عليه او كفاه ذلك ونحاه بنفسه فيعظم بذلك فرحه اذ غرضه خلاص اخوانه من
البئر وان كان غرض الناصح خلاص اخوانه المسلمين من النار فاذا ظهر من اعانه او كفاه فلم يثقل عليه ارايت
لو اهتدى جميعهم بانفسهم لما كان ينبغي ان يثقل عليه ان كان غرضه هدايتهم فاذا اهتدوا بغيره فلم يثقل
عليه ومهما وجد ذلك في نفسه دعاه الشيطان الى جميع كبائر القلوب وفواحش الجوارح فاهلكه نعوذ بالله
من زيغ القلوب بعد الهدى ومن اعوجاج النفس بعد الاستواء فان قلت فمتى يصح له ان يشتغل بنصح الناس
فاقول اذا لم يكن له قصد سوى هدايتهم لله تعالى وكان يود لو وجد من يعينه او اهتدوا بانفسهم وانقطع بالكلية
طمعه عن ثنائهم وعن اموالهم فاستوى عنده حمدهم وذمهم فلم يبال بذمهم اذا كان الله يحمده ولم يفرح بحمدهم اذا
لم يقترن به حمد الله تعالى ونظر اليهم كما ينظر الى السادات والى البهائم اما الى السادات فمن حيث انه لا يتكبر عليهم
ويرى كلهم خيرا من نفسه لجهله بالخاتمة واما الى البهائم فمن حيث انقطاع طمعه عن طلب المنزلة في
قلوبهم فانه لا يبالي كيف تراه البهائم فلا يتزين لها ولا يتصنع بل راعي الماشية غرضه رعاية الماشية ودفع
الذئب عنها دون نظر الماشية اليه فما لم ير سائر الناس كالماشية التي لا يلتفت الى نظرهم ولا يبالي بهم
لا يسلم من الاشتغال باصلاحهم نعم ربما يصلحهم ولكن يفسد نفسه باصلاحهم فيكون كالشمع الذي يضيء
لغيره ويحترق في نفسه فان قلت فلو ترك الوعاظ الوعظ الا عند نيل هذه الدرجة خلت الدنيا عن
الوعظ وخربت القلوب فاقول وقد قال رسول الله صلعم حب الدنيا راس كل خطيئة ولولا حب الناس الدنيا
هلك العالم وبطلت المعايش وهلكت القلوب والابدان جميعا الا انه صلعم علم ان حب الدنيا مهلك وان
ذكر كونه مهلكا لا ينزع الحب من قلوب الاكثرين الا الاقلين الذين لا تخرب الدنيا بتركهم فلم يترك النصح وذكر

ما في حب الدنيا من الخطر ولم يترك ذكره خوفا من ان تتحرك نغمة بالشهوات المهلكة التي سلطها الله على عباده ليسوقهم
بها الى جهنم تصديقا لقوله عز وجل لقد حق القول مني لاملان جهنم من الجنة والناس اجمعين فكذلك لا تراه الا لسنة
الوعاظ مطلقة بحب الرياسة ولا يدعونها بقول من يقول ان الوعظ لحب الرياسة حرام كما لم يدع الخلق الشرب و الزنا
والسرقة والرياء والظلم وسائر المعاصي لقوله تعالى ورسوله ان ذلك حرام فانظر لنفسك وكن فارغ القلب عن حديث
الناس فان الله عز وجل يصلح خلقا كثيرا بافساد شخص واحد واشخاص ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض
فان الله يؤيد هذا الدين باقوام لا خلاق لهم فانما يخشى ان ينسد طريق الاتعاظ فاما ان تخرس السنة الوعاظ
ووراءهم باعث الرياسة وحب الدنيا فلا يكون ذلك ابدا فان قلت فان علم المريد هذه المكيدة من الشيطان فاشتغل
بنفسه وترك النصح او نصح وراعا شرط الصدق والاخلاص فيه فما الذي يخاف عليه وما الذي بقي بين يديه من
الاخطار وحبائل الاغترار فاعلم انه بقي عليه اعظم هم وهو ان الشيطان يقول له قد اعجزتني وافلت مني بذكائك
وكمال عقلك وقد قدرت على جماعة من العلماء والكبراء وما قدرت عليك فما اصبرك واعظم عند الله محلك اذ قويت على
قهري ومكنك من التفطن لجميع مداخل غروري فيصغي اليه ويصدقه ويعجب بنفسه في فراره من الغرور كله فيكون
اعجابه بنفسه غاية الغرور وهو المهلك الاكبر والعجب اعظم من كل ذنب ولذلك قال الشيطان يا ابن آدم اذا ظننت
انك بعلمك افلت مني فبجهلك قد وقعت في حبائلي فان قلت فلو لم يعجب بنفسه اذ علم ان ذلك من الله تعالى لا منه فان مثله
لا يقوى على دفع الشيطان الا بتوفيق الله ومعونته ومن عرف ضعف نفسه وعجزه عن اقل القليل فاذا قدر على
مثل هذا الامر العظيم علم انه لم يقو عليه بنفسه بل بالله تعالى فما الذي يخاف عليه بعد نفي العجب فاقول يخاف عليه الغرور
بفضل الله والثقة بكرمه والامن من مكره حتى يظن انه يبقى على هذه الوتيرة في المستقبل ولا يخاف من الفترة والانقلاب
فيكون حاله الاتكال على فضل الله فقط دون ان يقارنه الخوف من مكره ومن امن من مكر الله فهو خاسر جدا
بل طريقه ان يكون مشاهدا لجملة ذلك من فضل الله ثم خائفا على نفسه ان يكون قد شذ عنه صفة من صفات
قلبه من حب دنيا ورياء وخلق والتفات الى غير وهو غافل عنه ويكون خائفا ان يسلب حاله في كل طرفة عين
غير امن من مكر الله تعالى ولا غافل عن خطر الخاتمة وهذا خطر لا محيص عنه وخوف لا نجاة منه الا بعد مجاوزة الصراط
ولذلك تمثل الشيطان لبعض الاولياء في وقت النزع وكان قد بقي له نفس فقال افلت مني يا فلان فقال لا امن بعد
ولذلك قيل الناس كلهم هلكى الا العالمون والعالمون كلهم هلكى الا العاملون والعاملون كلهم هلكى الا
المخلصون والمخلصون على خطر عظيم فاذن المغرور هالك والمخلص الفار من الغرور على خطر فلذلك لا يفارق
الخوف والحذر قلوب اولياء الله ابدا فنسال الله تعالى حسن الخاتمة فان
الامور بخواتيمها كمل كتاب الغرور بحمد الله وعونه وبه تم ربع المهلكات

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

الحمد لله الذي بتحميده يستفتح كل كتاب وبذكره يصدر كل خطاب وبحمده يتنعم اهل النعيم في دار الثواب وباسمه يتسلى الاشقياء وان ارخي دونهم الحجاب وضرب بينهم وبين السعداء بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ويتوب اليه توبة من يوقن انه رب الارباب ومسبب الاسباب ونرجو رجاء من يعلم انه الملك الرحيم العفو التواب ونمزج برجائنا الخوف مزج من لا يرتاب انه مع كونه غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ونصلي على محمد وصحبه الاكرمين صلوة تنقذنا من هول المطلع يوم العرض والحساب وتمهد لنا عند الله زلفا وحسن مآب اما بعد فان التوبة عن الذنوب بالرجوع الي ستار العيوب وعلام الغيوب مبدا طريق السالكين وراس مال الفائزين واول اقدام المريدين ومفتاح استقامة المائلين ومطلع الاصطفاء والاجتباء للمقربين وللانبياء آدم صلوات الله عليه وعلى ساير الانبياء اجمعين وما اجدر بالاولاد الاقتداء بالآباء والاجداد فلا عجب ان اذنب الآدمي واجترم فهي شنشنة يعرفها من اخزم ومن اشبه اباه فما ظلم ولكن الاب اذا جبر بعد ان كسر وعمر بعد ان هدم فليكن النزوع اليه في كل طرفي النفي والاثبات والوجود والعدم ولقد قرع آدم سن الندم وتندم على ما سبق منه وتقدم فمن اتخذه قدوة في الذنب دون التوبة فقد زلت به القدم بل التجرد لمحض الخير داب الملائكة المقربين والتجرد للشر دون التلافي سجية الشياطين والرجوع الى الخير بعد الوقوع في الشر ضرورة الآدمي فالمتجرد للخير ملك مقرب عند الملك الديان والمتجرد للشر شيطان والمتلافي للشر بالرجوع الي الخير بالحقيقة انسان فقد ازدوج في طينة الانسان شائبتان واصطحب فيه سجيتان وكل عبد مصحح نسبه اما الي الملك او الي آدم او الي الشيطان فالتائب قد اقام البرهان على صحة نسبه الي آدم بملازمة حد الانسان والمصر على الطغيان مسجل على نفسه بنسب الشيطان فاما تصحيح النسب بالتجرد لمحض الخير الي الملائكة فخارج عن حيز الامكان فان الشر معجون مع الخير في طينة آدم عجنا محكما لا يخلصه الا احدى النارين نار الندم او نار جهنم فالاحراق بالنار ضروري في تخليص جوهر الانسان

عن خبايث الشيطان واليك الآن اختيار اهون الشرين والمبادرة الي اخف النارين قبل ان يطوى
بساط الاختيار وتساق الي دار الاضطرار اما الي الجنة او الي النار واذا كانت التوبة موقعها من الدين
هذا الموقع وجب تقديمها في صدر ربع المنجيات بشرح حقيقتها وشروطها وسببها وعلامتها وثمرتها
والآفات المانعة منها والادوية الميسرة لها ويتضح ذلك بذكر اربعة اركان الركن الاول في
نفس التوبة وبيان حدها وحقيقتها وانها واجبة على الفور وعلي جميع الاشخاص في جميع الاحوال
وانها اذا صحت كانت مقبولة الركن الثاني فيما عنه التوبة وهو الذنوب وبيان انقسامها
الي صغاير وكباير وما يتعلق بالعباد وما يتعلق بحق الله وبيان كيفية توزع الدرجات والدركات على
الحسنات والسيئات وبيان الاسباب التي بها تعظم الصغاير الركن الثالث في بيان
شروط التوبة في دوامها وكيفية تدارك ما مضى من المظالم وكيفية تكفير الذنوب وبيان اقسام
التايبين في دوام التوبة الركن الرابع في السبب الباعث على التوبة وكيفية العلاج في
حل عقدة الاصرار من المذنبين ويتم به المقصود بهذه الاركان الاربعة ان شاء الله الركن الاول
في نفس التوبة وبيان حقيقة التوبة وحدها اعلم ان التوبة عبارة عن معنى ينتظم ويلتئم من ثلثه
امور مرتبة علم وحال وفعل فالعلم اول والحال ثان والفعل ثالث والاول موجب للثاني والثاني
موجب للثالث ايجابا اقتضاه اطراد سنة الله تعالي في الملك والملكوت اما العلم فهو معرفة عظم
ضرر الذنوب وكونها حجابا بين العبد وبين كل محبوب فاذا عرف ذلك معرفة محققة بيقين غالب علي
قلبه ثار من هذه المعرفة تألم للقلب بسبب فوات المحبوب فان القلب مهما شعر بفوات محبوبه تألم
وذلك فان كان فواته بفعله تأسف علي الفعل المفوت فيسمى تألمه بسبب فعله المفوت لمحبوبه
ندما فاذا غلب هذا الالم على القلب واستولي انبعث من هذا الالم في القلب حالة اخرى تسمى
ارادة وقصدا الى فعل له تعلق بالحال وبالماضي وبالاستقبال اما تعلقه بالحال فبالترك للذنب
الذي كان ملابسا واما بالاستقبال فبالعزم على ترك الذنب المفوت للمحبوب الى آخر العمر واما بالماضي
فبتلافي ما فات بالجبر والقضاء ان كان قابلا للجبر فالعلم هو الاول وهو مطلع هذه الخيرات
واعني بهذا العلم الايمان واليقين فان الايمان عبارة عن التصديق بان الذنوب سموم مهلكة
واليقين عبارة عن تأكد هذا التصديق وانتفاء الشك عنه واستيلائه على القلب فيثمر هذا
الايمان مهما اشرق على القلب حيث يبصر باشراق نور الايمان انه صار محجوبا عن محبوبه كمن يشرق
عليه نور الشمس وقد كان في ظلمة فسطع النور عليه بانقشاع سحاب او انحسار حجاب فرأى

محبوبه وعداته على الهلاك فتشتعل نيران الحب في قلبه فتشعب بتلك النيران الارادة للانتهاض
للتدارك فالعلم والندم والقصد المتعلق بالترك في الحال والاستقبال والتلافي للماضي ثلثة
معاني مترتبة في الحصول يطلق اسم التوبة على معنى الندم وحده ويجعل العلم كالسابق والمقدمة
والترك كالثمرة والتابع المتاخر وبهذا الاعتبار قال صلى الله عليه وسلم الندم توبة اذ لا يخلو الندم
عن علم اوجبه واثمره وعن عزم يتبعه ويتلوه فيكون الندم محفوفا بطرفيه اعني ثمرته ومثمره وبهذا
الاعتبار قيل في حد التوبة انه ذوبان الحشا لما سبق من الخطا فان هذا يعرض لمجرد الالم ولذلك
قيل هو نار في القلب تلتهب وصدع في الكبد لا تنشعب وباعتبار معنى الترك قيل في حد التوبة
انه خلع لباس الجفا ونشر بساط الوفا وقال سهل التستري التوبة تبديل الحركات المذمومة بالحركات
المحمودة ولا يتم ذلك الا بالخلوة والصمت واكل الحلال وكانه اشار الى المعنى الثالث من التوبة
والاقاويل في حدود التوبة لا تنحصر واذا فهمت هذه المعاني الثلاثة وتلازمها وترتيبها عرفت ان جميع
ما قيل في حدودها قاصر عن الاحاطة بجميع معانيها وطلب العلم بحقائق الامور اهم من طلب الالفاظ
المجردة **بيان وجوب التوبة وفضلها** اعلم ان وجوب التوبة ظاهر بالاخبار والايات وهو
واضح بنور البصيرة عند من انفتحت بصيرته وشرح الله بنور الايمان صدره حتى اقتدر على ان يسعى
بنوره الذي بين يديه في ظلمات الجهل مستغنيا عن قائد يقوده في كل خطوة فالسالك اما اعمى لا
يستغني عن القائد في خطوه واما بصير يهدى الى اول الطريق ثم يهتدي بنفسه وكذلك الناس
في طريق الدين ينقسمون هذا الانقسام فمن قاصر لا يقدر على مجاوزة التقليد في خطوه فيفتقر
الى ان يسمع في كل قدم نصا من كتاب الله وسنة رسوله وربما يعوزه ذلك فيتحير فسير هذا وان طال
عمره وعظم جده مختصر وخطاه قاصرة ومن سعيد شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه
فيتنبه بادنى اشارة لسلوك طريق معوصة وقطع عقبات متعبة ويشرق في قلبه نور القرآن ونور
الايمان وهو لشدة نور باطنه يجتزي بادنى بيان فكانه يكاد زيته يضيء ولو لم تمسسه نار فاذا
مسته نار فهو نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء فهذا لا يحتاج الى نص منقول في كل واقعة
فمن هذا حاله اذا اراد ان يعرف وجوب التوبة فينظر اولا بنور البصيرة الى التوبة ما هي ثم الى الوجوب
ما معناه ثم يجمع بين معنى الوجوب والتوبة فلا يشك في ثبوته لها وذلك بان يعلم ان معنى الواجب
ما هو واجب في الوصول الى سعادة الابد والنجاة من هلاك الابد فانه لولا تعلق السعادة والشقاوة
بفعل الشيء وتركه لم يكن لوصفه بكونه واجبا معنى وقول القائل صار واجبا بالايجاب حديث محض

فانّ ما الاغرض لنا عاجلاً وآجلاً في فعله وتركه فلا معنى لاشتغالنا به او وجبه علينا غيرنا اوهم يوم
فاذا عرف معنى الوجوب وانه الوسيلة الى سعادة الابد وعلم انه لا سعادة في دار البقاء الا في لقاء
الله وان كل محجوب عنه نشقى لا محالة تحول بينه وبين ما يشتهيه محترق بنار الفراق ونار جهنم وعلم
انه لا مبعد عن لقاء الله الا اتباع الشهوات والانس بهذا العالم الفاني والاكباب على حب ما لابد
من فراقه قطعا وعلم انه لا مقرب من لقاء الله الا قطع علاقة القلب عن زخرف هذا العالم والاقبال
بالكلية على الله تعالى طلبا للانس به بدوام ذكره وللمحبة له بمعرفة جلاله وجماله على قدر طاقته وعلم ان
الذنوب التي هي اعراض عن الله تعالى واتباع لمحاب الشياطين اعداء الله المبعدين عن حضرته
سبب كونه محجوبا مبعدا عن الله فلا يشك في ان الانصراف عن طريق البعد واجب للوصول الى
القرب وانما يتم الانصراف بالعلم والندم والعزم فانه ما لم يعلم ان الذنوب اسباب للبعد وما لم
يندم فلا يرجع ومعنى الرجوع الترك والعزم فلا يشك في ان المعاني الثلاثة ضروري في الوصول
الى المحبوب فهكذا يكون الايمان الحاصل عن نور البصيرة واما من لم يرشح لمثل هذا المقام المرتفع
ذروته عن حدود اكثر الخلق ففي التقليد والاتباع له مجال وجب ان يتوصل به الى النجاة من
الهلاك فيلاحظ فيه قول الله وقول رسوله وقول السلف الصالحين فقد قال الله تعالى وتوبوا الى الله جميعا
ايها المؤمنون لعلكم تفلحون وهذا امر على العموم وقال تعالى يا ايها الذين آمنوا توبوا الى الله توبة
نصوحا الآية ومعنى النصوح الخالص لله خاليا عن الشوائب ماخوذا من النصح ويدل على فضل التوبة
قوله تعالى ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم التائب حبيب
الله والتائب من الذنب كمن لا ذنب له وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم الله افرح بتوبة عبده المؤمن
من رجل نزل في ارض دوية مهلكة معه راحلته عليها طعامه وشرابه فوضع راسه فنام نومة فاستيقظ
وقد ذهبت راحلته فطلبها حتى اذا اشتد عليه الحر والعطش او ما شاء الله قال ارجع الى مكاني
الذي كنت فيه فانام حتى اموت فوضع راسه على ساعده ليموت فاستيقظ فاذا راحلته عنده عليها
زاده وشرابه فالله اشد فرحا بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته وفي بعض الالفاظ فقال من فرحه
اذا اراد شكر الله انا ربك وانت عبدي ويروى عن الحسن قال لما تاب الله عز وجل على آدم عليه
الصلوة والسلام هنته الملائكة فهبط عليه جبرئيل وميكائيل وعزرائيل فقالوا يا آدم قرت
عينك بتوبة الله عليك فقال آدم يا جبرئيل فان كان بعد هذه التوبة سوال فاين مقامي فاوحى
الله تعالى اليه يا آدم ورثت ذريتك التعب والنصب وورثتهم التوبة فمن دعاني منهم لبيته كما لبيتك

ومن سأل النبي المغفرة لم ابخل عليه لاني قريب مجيب يا آدم واحشر التائبين من القبور مستبشرين ضاحكين
ودعاءهم مستجاب والاخبار والآثار في ذلك لا يحصى والاجماع منعقد من الامة على وجوبها اذ
معناه العلم بان الذنوب والمعاصي مهلكات ومبعدات من الله تعالى وهذا داخل في وجوب
الايمان ولكن قد تدهش الغفلة عنه فمعنى هذا العلم ازالة هذه الغفلة ولا خلاف في وجوبها
ومن معانيها ترك المعاصي في الحال والعزم على تركها في الاستقبال وتدارك ما سبق من التقصير
في سابق الاحوال وذلك لا يشك في وجوبه واما الندم على ما سبق والحزن عليه فواجب وهو روح
التوبة وبه تمام تلافي فكيف لا يكون واجبا بل هو نوع الم يحصل لا محالة عقيب حقيقة المعرفة بما فات
من العمر وضاع في سخط الله فان قلت تألم القلب امر ضروري لا يدخل تحت الاختيار فكيف يوصف
بالوجوب فاعلم ان سببه تحقيق العلم بفوات المحبوب وله سبيل الى تحصيل سببه وبمثل هذا
المعنى دخل العلم تحت الوجوب لا بمعنى ان العلم يخلقه العبد ويحدثه في نفسه فان ذلك محال بل
العلم والندم والفعل والارادة والقدرة والقادر والكل من خلق الله وفعله والله خلقكم وما تعملون
هذا هو الحق عند ذوي البصائر وما سوى هذا ضلال فان قلت افليس للعبد اختيار في الفعل
والترك قلنا نعم وذلك لا يناقض قولنا ان الكل من خلق الله بل الاختيار ايضا من خلق الله والعبد
مضطر في الاختيار الذي له فان الله اذا خلق اليد الصحيحة وخلق الطعام اللذيذ وخلق الشهوة
للطعام في المعدة وخلق العلم في القلب بان هذا الطعام مسكن للشهوة وخلق الخواطر المتعارضة
في ان هذا الطعام هل فيه مضرة مع انه يسكن الشهوة وهل دونه مانع يتعذر معه تناوله
ام لا ثم خلق العلم بانه لا مانع فعند اجتماع هذه الاسباب ينجزم الارادة الباعثة على التناول فانجزام
الارادة بعد تردد الخواطر المتعارضة وبعد وقوع الشهوة للطعام يسمى اختيارا ولا بد من حصوله عند
تمام اسبابه فاذا حصل انجزام الارادة بخلق الله اياها تحركت اليد الصحيحة الى جهة الطعام لا محالة
اذ بعد تمام الارادة والقدرة يكون حصول الفعل ضروريا فتحصل الحركة فيكون الحركة بخلق الله بعد
حصول القدرة وانجزام الارادة وهما من خلق الله وانجزام الارادة يحصل بعد صدق الشهوة
والعلم بعدم الموانع وهما ايضا من خلق الله ولكن بعض هذه المخلوقات يترتب على البعض ترتبا
جرت سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا فلا يخلق الله حركة اليد بكتابة منظومة
ما لم يخلق فيها صفة تسمى قدرة وما لم يخلق فيها حيوة وما لم يخلق ارادة مجزومة ولا يخلق الارادة
المجزومة ما لم يخلق شهوة وميلا في النفس ولا ينبعث هذا الميل انبعاثا تاما ما لم يخلق علما بانه موافق

للنفس اما في الحال او في المآل ولا يخلق العلم ايضا الا باسباب آخر ترجع الي حركة وارادة وعلم فالعلم والميل
الطبع ابدا يستتبع الارادة الجازمة والارادة والقدرة ابدا يستردف الحركة وهكذا الترتيب في كل فعل
والكل من اختراع الله تعالي ولكن بعض مخلوقاته شرط لبعض فلذلك يجب تقدم البعض وتاخر البعض
كما لا يخلق الارادة الا بعد العلم ولا يخلق العلم الا بعد الحيوة ولا يخلق الحيوة الا بعد الجسم ويكون خلق الجسم
بشرط حدوث الحيوة لا ان الحيوة تتولد من الجسم ويكون خلق الحيوة شرط خلق العلم لا ان العلم تتولد
من الحيوة ولكن يستعد المحل لقبول العلم الا اذا كان حيا ويكون خلق العلم بشرط جزم الارادة لا ان
العلم يولد الارادة ولكن لا يقبل الارادة الا جسم حي عالم ولا يدخل في الوجود الا ممكن وللامكان ترتيب
ولا يقبل التغير لان تغيره محال فمهما وجد شرط الوصف استعد المحل به لقبول الوصف فحصل ذلك الوصف
من الجود الالهي والقدرة الازلية عند حصول الاستعداد ولما كان الاستعداد بسبب الشروط ترتيب كان
لحصول الحوادث بفعل الله ترتيب والعبد مجرى هذه الحوادث المرتبة وهي مرتبة في قضاء الله الذي هو
واحد كلمح بالبصر ترتيبا كليا لا يتغير وظهورها بالتفصيل مقدرة بقدر لا يتعداها وعنه العبارة بقوله
تعالي انا كل شيء خلقناه بقدر وعن القضاء الكلي الازلي العبارة بقوله وما امرنا الا واحدة كلمح بالبصر واما
العباد فانهم مسخرون تحت مجاري القضاء والقدر ومن جملة القدر خلق حركة في يد الكاتب بعد خلق
صفة مخصوصة في يده تسمى القدرة وبعد خلق ميل قوي جازم في نفسه يسمى القصد وبعد علم بما اليه
ميله يسمى الادراك والمعرفة فاذا ظهرت من باطن الملكوت هذه الامور الاربعة علي جسم عبد مسخر تحت
قهر التقدير سبق اهل عالم الملك والشهادة المحجوبين عن عالم الغيب والملكوت وقالوا ايها الرجل قد
تحركت وكتبت ورميت ونودي من وراء حجب الغيب وسرادقات الملكوت وما رميت اذ رميت ولكن الله
رمي وما قتلت اذ قتلت ولكن قاتلوهم يعذبهم الله بايديكم وعند هذا يتحير عقول القاعدين في بحبوحة
عالم الشهادة فمن قايل انه جبر محض ومن قايل انه اختراع صرف ومن متوسط مايل الي انه كسب ولو فتح
لهم ابواب السماء فنظروا الي عالم الغيب والملكوت لظهر لهم ان كل واحد صادق من وجه وان القصور
شامل لجميعهم فلم يدرك واحد منهم كنه هذا الامر ولم يحط علمه بجوانبه وتمام علمه ينال باشراق النور من
كوة نافذة الي عالم الغيب وانه تعالي عالم الغيب والشهادة فلا يظهر علي غيبه احدا الا من ارتضى وقد
يطلع علي الشهادة من لم يدخل في حيز الارتضاء ومن حرك سلسلة الاسباب والمسببات وعلم كيفية
تسلسلها ووجه ارتباط مناط سلسلتها بمسبب الاسباب انكشف له سر القدر وعلم علما يقينا ان
لا خالق الا الله ولا مبدع سواه فان قلت فقد قضيت على كل واحد من القائلين بالجبر والاختراع والكسب

بانه صادق من وجه وهو مع صدقه قاصر وهذا متناقض فكيف يمكن فهم ذلك وهل يمكن ايصال
ذلك الى الافهام بمثال فاعلم ان جماعة من العميان سمعوا انه قد حمل الى البلدة حيوان عجيب يسمى
الفيل وما كانوا قط شاهدوا صورته ولا سمعوا اسمه فقالوا لابد لنا من مشاهدته ومعرفته باللمس الذي نقدر
عليه فطلبوه فلما وصلوا اليه لمسوه فوقع يد بعض العميان على رجله ووقع يد بعضهم على نابه ووقع يد
بعضهم على اذنه فقالوا قد عرفناه فلما انصرفوا سالهم بقية العميان فاختلفت اجوبتهم فقال الذي لمس
الرجل ان الفيل ما هو الا مثل اسطوانة خشنة الظاهر الا انه الين منها وقال الذي لمس الناب ليس
كما تقول بل هو صلب لا لين فيه واملس لا خشونة فيه وليس في غلظ الاسطوانة اصلا بل هو مثل عمود
وقال الذي لمس الاذن لعمري هو لين وفيه خشونة فصدق احدهما فيه ولكن قال ما هو مثل عمود
ولا هو مثل اسطوانة وانما هو مثل جلد عريض غليظ فكل واحد من هؤلاء صدق من وجه اذ اخبر كل
واحد عما اصابه من معرفة الفيل ولم يخرج واحد في خبره عن وصف الفيل ولكنهم بجملتهم قصروا عن
الاحاطة بكنه صورة الفيل فاستبصر بهذا المثال واعتبر به مثال اكثر ما اختلف الناس فيه وان كان
هذا كلاما يناطح علوم المكاشفة ويحرك امواجها وليس ذلك من غرضنا فلنرجع الى ما كنا بصدده
وهو بيان ان التوبة واجبة بجميع اجزائها الثلاثة العلم والندم والترك وان الندم داخل في الوجوب
لكونه واقعا في جملة افعال الله المحصورة بين علم العبد وارادته وقدرته المتخللة بينها وما هذا وصفه
فاسم الوجوب يشمله **بيان ان وجوب التوبة على الفور** اما وجوبها على الفور فلا يستراب فيه
اذ معرفة كون المعاصي مهلكات من نفس الايمان وهو واجب على الفور والمتفصي عن وجوبه هو الذي
عرفه معرفة زجره ذلك عن الفعل فان هذه المعرفة ليست من علوم المكاشفات التي لا يتعلق بعمل
بل هو من علوم المعاملة وكل علم يراد ليكون باعثا على عمل فلا يقع التفصي عن عهدته ما لم يصر باعثا
فالعلم بضرر الذنوب انما اريد ليكون باعثا على تركها فمن لم يتركها فهو فاقد لهذا الجزء من الايمان
وهو المراد بقوله عليه الصلوة والسلام لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن وما اراد به نفي الايمان
الذي يرجع الى علوم المكاشفة كالعلم بالله ووحدانيته وصفاته وكتبه ورسله فان ذلك لا ينافيه
الزنا والمعاصي وانما اراد به نفي الايمان بكون الزنا مبعدا عن الله وموجبا للمقت كما اذا قال الطبيب
هذا سم فلا تتناوله فاذا تناوله يقال تناول وهو غير مؤمن لا بمعنى انه غير مؤمن بوجود الطبيب
وكونه طبيبا وغير مصدق به بل المراد انه غير مصدق بقوله انه سم مهلك فان العالم بالسم لا يتناوله اصلا
فالعاصي بالضرورة ناقص الايمان وليس الايمان بابا واحدا بل هو نيف وسبعون بابا اعلاها شهادة ان لا اله

الا الله وادناها اماطة الاذى عن الطريق ومثاله قول القايل ليس الانسان موجودا واحدا بل هو
نيف وسبعون موجودا اعلاها القلب والروح وادناها اماطة الاذى عن البشرة بان يكون
مقصوص الشارب مقلوم الاظفار نقي البشرة عن الخبث حتى يتميز عن البهايم المرسلة الملوثة
بارواثها المستكرهة الصور بطول مخالبها واظلافها وهذا مثال مطابق فالايمان كالانسان
وفقد شهادة التوحيد يوجب البطلان بالكلية كفقد الروح والذي ليس له الا شهادة التوحيد
والرسالة هو كانسان مقطوع الاطراف مفقوء العينين فاقد لجميع اعضائه الظاهرة والباطنة الا اصل
الروح وكما ان من هذا حاله قريب من ان يموت فتزايله الروح الضعيفة المنفردة التي تخلفت عنها الاعضاء
التي تمدها وتقويها فكذلك من ليس له الا اصل الايمان وهو مقصر في الاعمال قريب من ان تنقلع شجرة
ايمانه اذا صدمتها الرياح العاصفة المحركة للايمان في مقدمة قدوم ملك الموت ووروده فكل ايمان
لم يثبت في اليقين اصله ولم تنتشر في الاعمال فروعه لم يثبت على عواصف الاهوال عند ظهور ناصية
ملك الموت وخيف عليه سوء الخاتمة الا ما سقي بماء الطاعات على توالي الايام والساعات حتى رسخ
وثبت وقول العاصي للمطيع اني مؤمن كما انك مؤمن كقول شجرة القرع لشجرة الصنوبر اني شجرة وانت
شجرة وما احسن جواب الشجرة اذا قالت ستعرفين اغترارك بشمول الاسم اذا عصفت رياح الخريف
فعند ذلك تنقلع اصولك وتتناثر اوراقك وينكشف غرورك بالمشاركة في اسم الشجرة مع الغفلة
عن اسباب ثبات الاشجار وسوف ترى اذا انجلى الغبار افرس تحتك ام حمار فهذا امر يظهر عند
الخاتمة وانما انقطعت نياط العارفين خوفا من دواعي الموت ومقدماته الهايلة التي لا يثبت
عليها الا الاقلون فالعاصي اذا كان لا يخاف الخلود في النار بسبب معصيته كالصحيح المنهمك في
الشهوات المضرة اذا كان لا يخاف الموت بسبب صحته وان الموت غالبا لا يقع فجاءة فيقال له الصحيح
يخاف المرض ثم اذا مرض خاف الموت فكذلك العاصي يخاف سوء الخاتمة ثم اذا ختم له بالسوء وجب
الخلود في النار فالمعاصي للايمان كالماكولات المضرة بالابدان فلا تزال تجتمع في الباطن مغيرة
مزاج الاخلاط وهو لا يشعر بها الى ان يفسد المزاج فيمرض دفعة ثم يموت دفعة فكذلك المعاصي
فان كان الخايف من الهلاك في هذه الدنيا المنقضية يجب عليه ترك السموم وما يضره من الماكولات
في كل حال وعلى الفور فالخايف من هلاك الابد اولى بان يجب عليه ذلك وان كان متناول السم
اذا ندم يجب عليه ان يتقيا ويرجع عن تناوله بابطاله واخراجه عن المعدة على سبيل الفور
والمبادرة تلافيا لبدنه المشرف على هلاك لا يفوت عليه الا هذه الدنيا الفانية فمتناول سموم الدين

وهي الذنوب اولى بان يجب عليه الرجوع عنها بالتدارك الممكن مادام يبقى للتدارك مهلة وهو العمر
فان المخوف من هذا السم فوات الاخرة الباقية التي فيها النعيم المقيم والملك العظيم وفي فواتها نار
الجحيم والعذاب المقيم الذي يتصرم اضعاف اعمار الدنيا دون عشر عشير مدته اذ ليس لمدته اخر البتة
فالبدار البدار الى التوبة قبل ان يعمل سموم الذنوب بروح الايمان عملا يجاوز الامر فيه اختيار الاطباء ولا
ولا ينفع بعده الاحتماء فلا ينجع بعد ذلك نصح الناصحين ووعظ الواعظين وتحق الكلمة عليه بانه من الهالكين
ويدخل تحت عموم قوله تعالى انا جعلنا في اعناقهم اغلالا فهي الى الاذقان فهم مقمحون وجعلنا من بين
ايديهم سدا ومن خلفهم سدا فاغشيناهم فهم لا يبصرون وسواء عليهم اانذرتهم ام لم تنذرهم لا
يؤمنون ولا يغرنك لفظ الايمان فتقول المراد به الكافرون اذ بين لك ان الايمان بضعة وسبعون بابا وان
الزاني لا يزني وهو مؤمن فالمحجوب عن الايمان الذي هو شعب وفروع يستحجب في الخاتمة عن الايمان
الذي هو اصل كما ان الشخص الفاقد لجميع الاطراف التي هي فروع سيساق الى الموت المعدم للروح التي
هي اصل فلا بقاء للاصل دون الفرع ولا وجود للفرع دون الاصل ولا فرق بين الاصل والفرع الا في
شيء واحد وهو ان وجود الفرع وبقاءه جميعا يستدعي وجود الاصل ولكن بقاؤه يستدعي وجود الفرع
فبقاء الاصل بالفرع ووجود الفرع بالاصل فعلوم المكاشفة وعلوم المعاملة متلازمة لتلازم الاصل
والفرع فلا يستغني احدهما عن الاخر وان كان احدهما في رتبة الاصل والاخر في رتبة التابع وعلوم
المعاملة اذا لم تكن باعثة على العمل فعدمها خير من وجودها فانها ان لم تعمل عملها الذي له تراد ثم
قامت مؤكدة للحجة على صاحبها ولذلك يزاد في عذاب العالم الفاجر على عذاب الفاجر الجاهل
كما اوردنا من الاخبار في كتاب العلم **بيان ان وجوب التوبة عام في الاشخاص والاحوال فلا ينفك
عنه احد البتة** اعلم ان ظاهر الكتاب قد دل على هذا اذ قال الله تعالى وتوبوا الى الله جميعا ايها المؤمنون
فعمم الخطاب ونور البصيرة يرشد اليه اذ معنى التوبة الرجوع عن الطريق المبعد عن الله المقرب الى الشيطان
ولا يتصور ذلك الا من عاقل ولا يكمل غريزة الشهوة والغضب وسائر الصفات المذمومة التي هي وسائل
الشيطان الى اغواء الانسان اذ كمال العقل انما يكون عند مقاربة الاربعين واصله انما يكون عند
مراهقة البلوغ ومباديه تظهر بعد سبع سنين والشهوات جنود الشيطان والعقل جند الملائكة
واذا اجتمعا قام القتال بينهما بالضرورة اذ لا يثبت احدهما للاخر فانهما ضدان فالتطارد بينهما كالتطارد
بين الليل والنهار والنور والظلمة ومهما غلب احدهما ازعج الاخر بالضرورة واذا كانت الشهوات
تكمل في الصبي والشباب قبل كمال العقل فقد سبق جند الشيطان واستولى على المكان ووقع للقلب

انس ما الف لا محالة مقتضيات الشهوة بالعادة وغلب عليه وتعسر عليه النزوع عنه ثم يلوح العقل
الذي هو حزب الله وجنده ومنقذ اوليائه من ايدي اعدائه شيئا فشيئا على التدريج فان لم يقو ولم
يكمل سلمت مملكة القلب للشيطان وانجز اللعين موعوده حيث قال كما ذكر الله تعالى في كتابه فقال
لاحتنكن ذريته الا قليلا وان كمل العقل وقوي كان اول شغله قمع جنود الشيطان بكسر الشهوات
ومفارقة العادات ورد الطبع على سبيل القهر الى العبادات ولا معنى للتوبة الا هذا وهو الرجوع
عن طريق دليله الشهوة وخفيره الشيطان الى طريق الله وليس في الوجود آدمي الا وشهوته غالبة
على عقله وغريزته التي هي عدة الشيطان متقدمة على غريزته التي هي عدة الملائكة وكان الرجوع
على ما سبق اليه على مساعدة الشهوات ضروريا في حق كل انسان نبيا كان او غبيا فلا تظنن ان
هذه الضرورة اختصت بآدم عليه السلم فلا تحسبا هند الها العذر وحدها بحية نفس كل غانية هند
بل هو حكم ازلي مكتوب على جنس الانس لا يمكن فرض خلافه ما لم يتبدل السنة الالهية التي لا مطمع في
في تبديلها فاذا كل من بلغ كافرا جاهلا فعليه التوبة من كفره وجهله فان بلغ مسلما تبعا لابويه
غافلا عن حقيقة الاسلام اسلامه فعليه التوبة عن غفلته بتفهم معنى الاسلام فانه لا يغني عنه
اسلام ابويه شيئا ما لم يسلم بنفسه فان فهم ذلك فعليه الرجوع عن عادته والفته للاسترسال وراء الشهوات
من غير صارف بالرجوع الى قالب حدود الله في المنع والاطلاق والانكفاف والاسترسال وهو من
اشق ابواب التوبة وفيه هلك الاكثرون اذ عجزوا عنه وكل هذا رجوع وتوبة فدل على ان التوبة
فرض عين في حق كل شخص لا يتصور ان يستغني عنها احد من البشر كما لم يستغن آدم عنها فخلقة
الولد لا تتسع لما لا تتسع له خلقة الوالد اصلا واما بيان وجوبها على الدوام وفي كل حال هو ان
كل بشر فلا يخلو عن معصية بجوارحه اذ لم يخل عنه الانبياء كما ورد في القرآن والاخبار من خطايا
الانبياء عليهم الصلوة والسلم وتوبتهم وبكائهم على خطاياهم فان خلا في بعض الاحوال عن
معصية الجوارح فلا يخلو عن الهم بالذنوب بالقلب فان خلا عن الهم فلا يخلو عن وسواس الخاطر
بايراد الخواطر المتفرقة المذهلة عن الله تعالى فان خلا عنه فلا يخلو عن غفلة وقصور في العلم
بالله وبصفاته وافعاله وكل ذلك نقص وله اسباب وترك اسبابه بالتشاغل باضداده رجوع
عن طريق الى ضده والمراد بالتوبة الرجوع ولا يتصور الخلو في حق الآدمي عن هذا النقص وانما
يتفاوتون في المقادير فاما الاصل فلا بد منه ولهذا قال صلى الله عليه وسلم انه ليغان على قلبي
فاستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة ولذلك اكرمه الله بان قال ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك

وما تاخر واذا كان حاله فكيف حال غيره فان قلت لا يخفى ان ما يطرا على القلب من الهموم والخواطر
نقص وان الكمال في التخلي عنه وان القصور عن معرفة كنه جلال الله نقص وانه كلما ازدادت المعرفة زاد
الكمال وان الانتقال الى الكمال من اسباب النقصان رجوع والرجوع توبه ولكن هذه فضايل لا فرايض
وقد اطلقت القول بوجوب التوبة في كل حال والتوبة عن هذه الامور ليست واجبة اذ درك الكمال
غير واجب في الشرع فما المراد بقولك التوبة واجبة في كل حال فاعلم انه قد سبق ان الانسان لا يخلو
في مبدء خلقته عن اتباع الشهوات اصلا وليس معنى التوبة تركها فقط بل تمام التوبة بتدارك
ما مضى وكل شهوة اتبعها انسان ارتفع منها ظلمة الى قلبه كما يرتفع من نفس الانسان ظلمة الى وجه المرآة
الصقيلة فان تراكم ظلم الشهوات صار رينا كما يصير بخار النفس في وجه المرآة عند تراكمه خبثا
كما قال الله تعالى كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون فاذا تراكم الرين صار طبعا فيطبع على قلبه
كالخبث على وجه المرآة اذا تراكم وطال زمانه غاص في جرم الحديد وافسده وصار لا يقبل الصقل
بعده وصار كالمطبوع من الخبث ولا يكفي في تدارك اتباع الشهوات تركها في المستقبل بل لابد
من محو تلك الآثار التي انطبعت في القلب كما لا يكفي في ظهور الصور في المرآة قطع الانفاس
والبخارات المسودة لوجهها في المستقبل ما لم يشتغل بمحو ما انطبع فيها من الآثار وكما يرتفع الى
القلب ظلمة من المعاصي والشهوات فيرتفع اليه نور من الطاعات وترك الشهوات فينمحي ظلمة
المعصية بنور الطاعة واليه الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم اتبع السيئة الحسنة تمحها فاذا لا يستغني
العبد في حال من احواله عن محو آثار السيئات عن قلبه بمباشرة حسنات تضاد آثارها آثار
تلك السيئات عن قلبه بمباشرة حسنات تضاد آثارها آثار تلك السيئات هذا في قلب حصل
اولا صفاؤه وجلاؤه ثم اظلم باسباب عارضة فاما التصقيل الاول ففيه يطول الشغل اذ
ليس شغل الصيقل في ازالة الصدا عن المرآة كشغله في عمل اصل المرآة فهذه اشغال طويلة
لا تنقطع اصلا وكل ذلك يرجع الى التوبة فاما قولك ان هذا لا يسمى واجبا بل هو فضل وطلب كمال
فاعلم ان الواجب له معنيان احدهما ما يدخل في فتوى الشرع ويشترك فيه كافة الخلق وهو القدر
الذي لو اشتغل كافة الخلق به لم يخرب العالم ولو كلف الناس كلهم ان يتقوا الله حق تقاته
لتركوا المعايش ورفضوا الدنيا بالكلية ثم يؤدي ذلك الى بطلان التقوى بالكلية فانه مهما فسدت
المعايش لم يتفرغ احد للتقوى بل شغل الحياكة والحراثة والخبز يستغرق جميع عمر كل واحد فيما
يحتاج اليه فجميع هذه الدرجات ليست واجبة بهذا الاعتبار والواجب الثاني هو الذي لابد منه

للوصول به الى القرب المطلوب من رب العالمين والمقام المحمود بين الصديقين والتوبة عن جميع
ما ذكرناه واجب في الوصول اليه كما يقال الطهارة واجبة في صلوة التطوع اي لمن يريدها فانه
لا يمكن الوصول اليها الا بها فامامن رضي بالحرمان والنقصان عن فضل صلوة التطوع فالطهر
ليست واجبة عليه لاجلها كما يقال اليد والاذن والرجل شرط في وجود الانسان يعني انه شرط
لمن يريد ان يكون انسانا كاملا ينتفع بانسانيته ويتوصل بها الى درجات العلى في الدنيا
فامامن قنع باصل الحيوة ورضي بان يكون كلحم على وضم وكخرقة مطروحة فليس يشترط لمثل
هذه الحيوة عين ويد ورجل فاصل الواجبات الداخلة في فتوى العامة لا يوصل الا الى اصل
النجاة واصل النجاة كاصل الحيوة وما وراء اصل النجاة من السعادات التي بها تتهيا النجاة
تجري مجرى الاعضاء والالات التي بها تتهيا الحياة وفيه سعي الانبياء والاولياء والعلماء والامثل
فالامثل وعليه كان حرصهم وحواليه كان تطوافهم ولاجله كان رفضهم لملاذ الدنيا بالكلية
حتى انتهى عيسى عليه السلم الى ان توسد حجرا في منامه فجاء اليه الشيطان وقال اما كنت تركت
الدنيا للآخرة فقال نعم وما الذي حدث فقال توسدك لهذا الحجر تنعم بالدنيا فلم لا تضع راسك
على الارض فرمى عيسى بالحجر ووضع الراس على الارض وكان رميه الحجر توبة عن ذلك التنعم افترى
ان عيسى عليه السلام لم يعلم ان وضع الراس على الارض لا يسمى واجبا في فتاوى العامة افترى
ان نبينا صلى الله عليه وسلم لما شغله الثوب الذي كان عليه علم في صلوته حتى نزعه وشغله شراك
نعله الذي جدده حتى اعاد الشراك الخليع ما علم ان ذلك ليس بواجب في شرعه الذي شرعه لكافة
العباد فاذا علم ذلك فلم تاب عنه بتركه وهل كان ذلك الا لانه راه مؤثرا في قلبه اثرا يمنعه عن بلوغ
المقام المحمود الذي قد وعد به افترى ان الصديق رضي الله عنه بعد ان شرب اللبن وعرف انه من غير
وجهه وادخل اصبعه في حلقه ليخرجه حتى كاد ان يخرج معه روحه ما علم من الفقه هذا القدر
وهو ان ما اكله عن جهل فهو غير آثم به ولا يجب في فتوى الفقه اخراجه فلم تاب عن اكله بالتدارك
على حسب امكانه بتخلية المعدة عنه وهل كان ذلك الا لسر وقر في صدره عرفه ذلك السر ان فتوى
العامة حديث آخر وان خطر طريق الآخرة لا يعرفه الا الصديقون فتامل احوال هؤلاء الذين هم اعرف
خلق الله بالله وبطريق الله وبمكر الله ومكامن الغرور بالله واياك مرة واحدة ان تغرك الحيوة الدنيا واياك
ثم اياك الف مرة ان يغرك بالله الغرور فهذه اسرار من استنشق مبادي روائحها علم ان لزوم التوبة
النصوح لازم للعبد السالك في كل نفس من انفاسه ولو عمر عمر نوح عليه الصلوة والسلم وان ذلك

ولجب على النوم من غير مهلة ولقد صدق ابو سليمان الداراني حيث قال لو لم يبك العاقل فيما بقي من
عمره الا على فوت ما مضى منه في غير طاعة الله تعالى لكان خليقا ان يحزنه ذلك الى الممات فكيف
من يشغل ما بقي من عمره بمثل ما مضى من جهله وانما قال هذا لان العاقل اذا ملك جوهرة نفيسة اذا
ضاعت منه بغير فائدة بكى عليها لا محالة وان ضاعت منه وصار ضياعها سبب هلاكه كان بكاؤه
منه اشد وكل ساعة من العمر بل كل نفس جوهرة نفيسة لا خلف لها ولا بدل منها فانها صالحة لان
توصلك الى سعادة الابد وتنقذك من شقاوة الابد واي جوهر انفس من هذا فاذا اضعته في
الغفلة فقد خسرت خسرانا مبينا وان صرفته الى معصية فقد هلكته هلاكا فاحشا فان كنت
لا تبكي لهذه المصيبة فذلك لجهلك ومصيبتك لجهلك اعظم من كل فان نوم الغفلة يحول
بينه وبين معرفته والناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا فعند ذلك ينكشف لكل مفلس افلاسه ولكل مصاب
مصيبته وقد وقع الياس عن التدارك قال بعض العارفين ملك الموت عليه السلام اذا ظهر للعبد
اعلمه انه قد بقي من عمرك ساعة فانك لا تستاخر عنها طرفة عين فيبدو للعبد من الاسف والحسرة
ما لو كانت له الدنيا بحذافيرها لخرج منها على ان تضم الى تلك الساعة ساعة اخرى ليستعتب
ويتدارك تفريطه فلا يجد اليه سبيلا وهو اول ما يظهر من معاني قوله تعالى وحيل بينهم وبين
ما يشتهون واليه الاشارة بقوله من قبل ان ياتي احدكم الموت فيقول رب لولا اخرتني الى
اجل قريب الى قوله اجلها فقيل الاجل القريب الذي يطلبه معناه انه يقول عند كشف الغطاء
للعبد يا ملك الموت اخرني يوما اعتذر فيه الى ربي واتوب واتزود صالحا لنفسي فيقول
فنيت الايام فلا يوم فيقول اخرني ساعة فيقول فنيت الساعة فلا ساعة فيغلق عليه باب التوبة
فيتغرغر بروحه وتتردد انفاسه في شراسيفه ويتجرع غصة الياس عن التدارك وحسرة الندامة
على تضييع العمر فيضطرب اصل ايمانه في صدمات تلك الاهوال فاذا زهقت نفسه فان كانت
سبقت له من الله الحسنى خرجت روحه على التوحيد وذلك حسن الخاتمة وان سبق له القضاء
بالشقاوة والعياذ بالله خرجت روحه على الشك والاضطراب وذلك سوء الخاتمة ولمثل هذا يقال
وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى اذا حضر احدهم الموت قال اني تبت الآن ولا الذين يموتون
وهم كفار بل حال التوبة كما قال الله تعالى انما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من
قريب ومعناه عن قرب عهده بالخطيئة بان يتندم عليها ويمحو اثرها بحسنة يردفها بها قبل
ان يتراكم الدين على القلب فلا يقبل المحو ولذلك قال صلى الله عليه وسلم اتبع السيئة الحسنة تمحها

ولذلك قال لقمان لابنه يا بني لا تؤخر التوبة فان الموت ياتي بغتة ومن ترك المبادرة الي التوبة
بالتسويف كان بين خطرين عظيمين احدهما ان تتراكم الظلمة علي قلبه من المعاصي حتى يصير رينا
وطبعا فلا يقبل المحو والثاني ان يعاجله المرض والموت فلا يجد مهلة للاشتغال بالمحو ولذلك ورد في
الخبر ان اكثر صياح اهل النار من التسويف فما هلك من هلك الا بالتسويف فيكون تسويد القلب
نقدا وجلاؤه بالطاعة نسيئة الي ان يختطفه الاجل فياتي الله عز وجل بقلب غير سليم ولا ينجو الا من
اتي الله بقلب سليم فالقلب امانة الله عند عبده والعمر امانة الله عنده وكذا سائر اسباب الطاعة فمن خان
في الامانة ولم يتدارك خيانته فامره مخطر قال بعض العارفين ان لله تعالى الي عبده سرين يسرهما
اليه علي سبيل الالهام احدهما اذا خرج من بطن امه يقول له عبدي قد اخرجتك الي الدنيا طاهرا نظيفا
واستودعتك عمرك وائتمنتك عليه فانظر كيف تحفظ الامانة وانظر كيف تلقاني والثاني عند
خروج روحه يقول عبدي ماذا صنعت في امانتي عندك هل حفظتها حتى تلقاني علي العهد فالقاك
علي الوفاء او اضعتها فالقاك بالمطالبة والعقاب واليه الاشارة بقوله تعالى واوفوا بعهدي
اوف بعهدكم وبقوله تعالى والذين هم لاماناتهم وعهدهم راعون بيان ان التوبة اذا استجمعت
شرائطها فهي مقبولة لا محالة اعلم انك اذا فهمت معنى القبول لم تشك في ان كل توبة
صحيحة فهي مقبولة فالناظرون بنور البصائر المستمدون من انوار القرآن علموا ان كل قلب سليم مقبول
عند الله ومتنعم في الآخرة في جوار الله تعالى ومستعد لان ينظر بعينه الباقية الي وجه الله تعالى وعلموا ان
القلب خلق سليما في الاصل فكل مولود يولد علي الفطرة وانما تفوته السلامة بكدورة ترهق وجهه
من غبرة الذنوب وظلمتها وعلموا ان نار الندم تحرق تلك الغبرة وان نور الحسنة يمحو عن وجه القلب
ظلمة السيئة وانه لا طاقة لظلام المعاصي مع نور الحسنات كما لا طاقة لظلام الليل مع نور النهار
بل كما لا طاقة لكدورة الوسخ مع بياض الصابون فكما ان الثوب الوسخ لا يقبله الملك لان يكون لباسه
فالقلب المظلم لا يقبله الله تعالى ان يكون في جواره وكما ان استعمال الثوب في الاعمال الخسيسة
يوسخ الثوب وغسله بالصابون والماء الحار ينظفه لا محالة فاستعمال القلب في الشهوات يوسخ
القلب وغسله بماء الدموع وحرقة الندم ينظفه ويطهره ويزكيه وكل قلب زكي طاهر مقبول كما
ان كل ثوب نظيف مقبول وانما عليك التزكية والتطهير فاما القبول فمبذول قد سبق به القضاء
الازلي الذي لا مرد له وهو المسمى فلاحا في قوله تعالى قد افلح المؤمنون وفي قوله قد افلح من تزكى ومن لم يعرف
علي سبيل التحقيق معرفة اقوى واجلى من المشاهدة بالبصر ان القلب يتاثر بالمعاصي والطاعات

تاثيرا متضادا يستعار لاحدهما لفظ الظلمة كما يستعار للجهل ويستعار للآخر لفظ النور كما يستعار
للعلم وان بين النور والظلمة تضادا ضروريا لا يتصور الجمع بينهما وكانه لم يعرف من الدين الا قشره ولم
يعبق به الا اسماؤه وقلبه في غطاء كثيف عن حقيقة الدين بل عن حقيقة نفسه وصفات نفسه
ومن جهل نفسه فهو بغيره اجهل واعني به قلبه اذ بقلبه يعرف غير قلبه فكيف يعرف غيره وهو لا
يعرف نفسه فمن توهم ان التوبة تصح ولا تقبل لمن توهم ان الشمس تطلع والظلام لا يزول او الثوب
يغسل بالصابون والوسخ لا يزول الا ان يغوص الوسخ لطول تراكمه في تجاويف الثوب وخلله فلا
يقوى الصابون على قلعه فمثال ذلك ان يتراكم الذنوب حتى تصير طبعا ورينا على القلب فمثل هذا
القلب لا يرجع ولا يتوب نعم قد يقول باللسان تبت فيكون ذلك كقول القصار بلسانه قد غسلت
الثوب وذلك لا ينظف الثوب اصلا ما لم يغير صفة الثوب باستعمال ما يضاد الوصف المتمكن
منه فهذا حال امتناع اصل التوبة وهو غير بعيد بل هو الغالب على كافة الخلق المقبلين على
الدنيا المعرضين عن الله بالكلية فهذا البيان كاف عند ذوي البصائر في قبول التوبة ولكنا
نعضد جناحه بنقل الآيات والاخبار والآثار فكل استبصار لا يشهد له الكتاب والسنة
لا يوثق به وقد قال الله تعالى وهو الذي يقبل التوبة عن عباده وقال تعالى غافر الذنب وقابل
التوب الى غير ذلك من الآيات وقال صلى الله عليه وسلم لله افرح بتوبة العبد الحديث والفرح وراء
القبول فهو دليل على القبول وزيادة وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله عز وجل يبسط يده
بالتوبة لمسيء الليل الى النهار ولمسيء النهار الى الليل حتى تطلع الشمس من مغربها وفي الحديث
دلالة على طلب التوبة من العبد والطالب وراء القابل فرب قابل ليس بطالب ولا طالب الا وهو
قابل وقال صلى الله عليه وسلم لو عملتم الخطايا حتى تبلغ السماء ثم ندمتم لتاب الله عليكم وقال ايضا صلعم
ان العبد ليذنب الذنب فيدخل به الجنة قيل كيف ذلك يا رسول الله قال يكون نصب عينيه تائبا
فارا حتى يدخل الجنة وقال صلى الله عليه وسلم كفارة الذنب الندامة وقال صلى الله عليه وسلم التائب
من الذنب كمن لا ذنب له ويروى ان حبشيا قال يا رسول الله صلى الله عليه وسلم اني كنت اعمل الفواحش
فهل لي من توبة قال نعم فولى ثم رجع فقال يا رسول الله اكان يراني وانا اعملها قال نعم فصاح
الحبشي صيحة خرجت فيها نفسه ويروى ان الله عز وجل لما لعن ابليس سأله النظرة فانظره الى
يوم القيمة فقال وعزتك لا خرجت من قلب ابن آدم ما دام فيه الروح فقال الله تعالى وعزتي لا حجبت
عنه التوبة ما دام فيه الروح فقال الله تعالى وقال صلى الله عليه وسلم ان الحسنات يذهبن السيئات

كما يذهب الماء الوسخ والاخبار في هذا لا تحصى واما الآثار فقد قال سعيد بن المسيب انزل قوله تعالى
انه كان للاوابين غفورا في الرجل يذنب ثم يتوب ثم يذنب ثم يتوب وقال الفضيل قال الله عز وجل بشر
المذنبين انهم ان تابوا قبلت منهم وحذر وحذر الصديقين اني ان وضعت عليهم عدلي عذبتهم وقال
طلق بن حبيب ان حقوق الله تعالى اعظم من ان يقوم بها العبد ولكن اصبحوا تائبين وامسوا تائبين
وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما من ذكر خطيئة الم بها فوجل منها قلبه محيت عنه في ام الكتاب وروي
ان نبيا من انبياء بني اسرائيل اذنب فاوحى الله اليه وعزتي لئن عدت لاعذبنك فقال يا رب
انت انت وانا انا وعزتك لان لم تعصمني لاعودن فعصمه الله عن ذلك وقال بعضهم ان العبد ليذنب
الذنب فلا يزال نادما حتى يدخل الجنة فيقول ابليس ليتني لم اوقعه في الذنب وقال حبيب بن ابي
ثابت يعرض على الرجل ذنوبه يوم القيمه فيمر بالذنب فيقول اما اني كنت مشفقا منك فيغفر له
ويروى ان رجلا سال ابن مسعود رضي الله عنه عن ذنب الم به هل له من توبة فاعرض عنه ابن
مسعود ثم التفت اليه فرأى عينيه تذرفان فقال له ان للجنة ثمانية ابواب كلها تفتح وتغلق
الا باب التوبة فان عليه ملكا موكلا به لا يغلقه فاعمل ولا تياس وقال عبد الرحمن بن ابي القاسم
تذاكرنا مع عبد الرحمن توبة الكافر وقول الله تعالى ان ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف فقال اني لارجوا
ان يكون المسلم احسن حالا عند الله ولقد بلغني ان توبة المسلم كاسلام بعد اسلام وقال عبد الله بن
سلام رضي الله عنه لا احدثكم الا عن نبي مرسل او كتاب منزل ان العبد اذا عمل ذنبا ثم ندم عليه
طرفة عين سقط عنه اسرع من طرفة عين وقال عمر رضي الله عنه اجلسوا الى التوابين فانهم ارق
افئدة وقال بعضهم انا اعلم متى يغفر الله لي قيل ومتى قال اذا تاب علي وقال اخر انا من ان احرم
التوبة اخوف من ان احرم المغفرة اي المغفرة من لوازم التوبة وتوابعها لا محالة ويروى انه كان
في بني اسرائيل شاب عبد الله عشرين سنة ثم عصاه عشرين سنة ثم نظر في المرآة فرأى الشيب
في لحيته فساءه ذلك فقال الهي اطعتك عشرين سنة ثم عصيتك عشرين سنة فان رجعت اليك
تقبلني فسمع قائلا يقول ولا يرى شخصا اجبتنا دعوتنا فاجبناك وتركتنا فتركناك وعصيتنا فامهلناك
فان رجعت الينا قبلناك وقال ذو النون المصري رحمة الله عليه ان لله عبادا نصبوا اشجار الخطايا
نصب روامق القلوب وسقوها بماء التوبة فاثمرت ندما وحزنا فجنوا من غير جنون وتبلدوا
من غير عي ولا بكم وانهم هم البلغاء الفصحاء العارفون بالله ورسوله ثم شربوا بكاس الصفا فورثوا
الصبر على طول البلاء ثم تولهت قلوبهم في الملكوت وجالت فكرهم بين سرايا حجب الجبروت واستظلوا

تحت رواق الندم وقرؤا صحيفة الخطايا فاورثوا انفسهم الجزع حتى وصلوا الى علم الزهد بسلم الورع فاستعذبوا مرارة ترك الدنيا واستلانوا خشونة المضجع حتى ظفروا بحبل النجاة وعروة السلامة وسرحت ارواحهم في العلى حتى اناخوا في رياض النعيم وخاضوا في بحر الحياة وردموا خنادق الجزع وعبروا جسور الهوى حتى نزلوا بفناء العلم واستقوا من غدير الحكمة وركبوا سفينة الفطنة واقلعوا بريح النجاة في بحر السلامة حتى وصلوا الى رياض الراحة ومعدن العز والكرامة فهذا القدر كاف في بيان ان كل توبة صحيحة مقبولة فان قلت افتقول ما قالت المعتزلة من ان قبول التوبة واجب على الله فاقول لا اعنى بما ذكرته من ان التوبة اذا كانت صحيحة مقبولة لا محالة الا ما يريده القايل بقوله ان الثوب اذا غسل بالصابون وجب زوال الوسخ لا محالة وان العطشان اذا شرب وجب زوال العطش وانه اذا منع الماء مدة وجب العطش وانه اذا دام العطش وقع الموت لا محالة وليس في شي من ذلك ما يريده المعتزلة بالايجاب على الله تع بل اقول قدر الله ان الطاعة يكون مكفرة للمعصية والحسنة يكون ماحية للسيئة كما قدر ان الماء يكون مزيلا للعطش والقدرة متسعة لخلافه ولو سبقت به المشية فلا واجب على الله ولكن ما سبقت به ارادته الازلية فواجب كونه لا محالة فان قلت فما من تايب الا وهو شاك في قبول توبته والشارب لا يشك في زوال عطشه فلم يشك فيه فاقول شكه في القبول لشكه في وجود شرايط الصحة فان للتوبة اركانا وشرايط دقيقة كما سياتي وليس يتحقق وجود جميع شروطها كالذي يشك في دواء شربه للاسهال في انه هل يسهل وذلك لشكه في حصول شروط الاسهال في الدواء باعتبار الحال والوقت وكيفية خلط الدواء وطبخه وجودة عقاقيره وادويته فهذا وامثاله موجب للخوف بعد التوبة وموجب للشك في قبولها لا محالة على ما سياتي في شروطها الركن الثاني فيما عنه التوبة وهو الذنوب صغايرها وكبايرها اعلم ان التوبة ترك للذنب ولا يمكن ترك الشي الا بعد معرفته واذا كانت التوبة واجبة كان ما لا يتوصل اليها الا به واجبا فمعرفة الذنوب اذا واجب والذنب عبارة عن كل ما هو مخالف لامر الله تعالى من ترك او فعل وتفصيل ذلك يستدعي شرح التكليفات من اولها الى اخرها وليس ذلك من غرضنا ولكنا نشير الى مجامعها وروابط اقسامها بيان اقسام الذنوب بالاضافة الى صفات العبد اعلم ان للانسان اخلاقا واوصافا كثيرة على ما عرف شرحه في كتاب عجايب القلب وغوايله ولكن تنحصر مثارات الذنوب في اربع صفات صفات ربوبية وصفات بهيمية وصفات شيطانية وصفات سبعية

وذلك لان طينة الانسان عجنت من اخلاط مختلفة فاقتضى كل واحد من الاخلاط من المعجون
منه اثرا من الآثار كما يقتضي السكر والخل في السكنجبين آثارا مختلفة فاما ما يقتضيه النزوع
الي الصفات الربوبية فمثل الكبر والفخر والجبرية وحب المدح والثناء والعز والغنا وحب
دوام البقاء وطلب الاستعلاء علي الكافة حتى كانه يريد ان يقول انا ربكم الاعلى وهذا ينشعب
منه من جملة كباير الذنوب غفل عنها الخلق ولم يعدوها ذنوبا وهي المهلكات العظيمة التي هي
كالامهات لاكثر المعاصي كما استقصينا في ربع المهلكات الصفة الثانية الشيطانية التي بها
ينشعب الحسد والبغي والحيلة والخداع والامر بالفساد والمنكر وفيه يدخل الغش والنفاق والدعوة
الي البدع والضلال الثالثة الصفة البهيمية ومنها ينشعب الشره والتكلب والحرص علي قضاء
شهوة البطن والفرج ومنه ينشعب الزنا واللواط والسرقة واكل مال اليتيم وجمع الحطام لاجل
الشهوات الرابعة صفة السبعية ومنها ينشعب الغضب والحقد والتهجم على الناس بالضرب
والشتم والقتل واستهلاك الاموال ويتفرع عنها جمل من الذنوب وهذه الصفات لها تدرج
في الفطرة فالصفة البهيمية هي التي تغلب اولا ثم تتلوها الصفة السبعية ثانيا ثم اذا
اجتمعا استعملا العقل في الخداع والمكر والحيلة وهي الصفة الشيطانية ثم بالآخرة تغلب
الصفات الربوبية وهي الفخر والعز والعلو وطلب الكبرياء وقصد الاستيلاء علي جميع الخلق
فهذه امهات الذنوب ومنابعها ثم تنفجر الذنوب من هذه المنابع على الجوارح فبعضها في القلب
خاصة كالكفر والبدعة والنفاق واضمار السوء للناس وبعضها على العين والسمع وبعضها على
اللسان وبعضها على البطن والفرج وبعضها على اليدين والرجلين وبعضها على جميع البدن ولا
حاجة الي بيان تفصيل ذلك فانه واضح قسمة ثانية اعلم ان الذنوب تنقسم الي ما بين العبد
وبين الله والي ما يتعلق بحقوق العباد فما يتعلق بالعبد خاصة كترك الصلوة والصوم والواجبات
الخاصة وما يتعلق بحقوق العباد كترك الزكوة وقتل النفس وغصب الاموال وشتم الاعراض
وكل متناول من حق الغير فاما نفس او طرف او مال او عرض او دين او جاه وتناول الدين
بالاغواء والدعاء الي البدعة والترغيب في المعاصي وتهييج اسباب الجرأة على الله تعالى كما
يفعله بعض الوعاظ بتغليب جانب الرجاء على الخوف وما يتعلق بالعباد فالامر فيه اغلظ
وما بين العبد وبين الله تعالى اذا لم يكن شركا فالعفو فيه ارجى واقرب وقد جاء في الخبر
الدواوين ثلثة ديوان يغفر وديوان لا يغفر وديوان لا يترك فالديوان الذي يغفر ذنوب

العباد بينهم وبين الله تعالى واما الديوان الذي لا يترك فمظالم العباد واما الديوان الذي لا يغفر فالشرك اي لا بد ان يطالب بها حتى يتقضى عنها قسمة ثالثة اعلم ان الذنوب تنقسم الى صغاير وكباير وقد ذكر اختلاف الناس فيها فقال قايلون لا صغيرة بل كل مخالفة لله فهي كبيرة وهذا ضعيف اذ قال الله تعالى ان تجتنبوا كباير ما تنهون عنه نكفر عنكم سيياتكم وقال تعالى الذين يجتنبون كباير الاثم والفواحش الا اللمم وقال صلى الله عليه وسلم الصلوات الخمس والجمعة الى الجمعة تكفر ما بينهن ان اجتنب الكباير وفي لفظ آخر كفارة ما بينهن الا الكباير وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم فيما رواه عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه الكباير الاشراك بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس واليمين الغموس واختلف الصحابة والتابعون في عدد الكباير من اربع الى سبع الى تسع الى احدى عشرة فما فوق ذلك فقال ابن مسعود هن اربع وقال ابن عمر وابن مسعود رضي الله عنهما هن سبع وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنه هن تسع وكان ابن عباس رضي اذا بلغه قول ابن عمر الكباير سبع يقول هن الى سبعين اقرب منها الى سبع وقال مرة كل ما نهى الله عنه فهي كبيرة وقال غيره وكل ما اوعد الله عليه بالنار فهو من الكباير وقال بعض السلف كل ما اوجب الحد في الدنيا فكبيرة وقال انها مبهمة لا يعرف عددها كليلة القدر وساعة يوم الجمعة وقال ابن مسعود رضي الله عنه لما سيل عنها اقرا من سورة النساء الى راس ثلثين آية منها عند قوله ان تجتنبوا كباير ما تنهون نكفر عنكم سيياتكم فكل ما نهى الله عنه في هذه السورة الى ههنا فهي كبيرة وقال ابو طالب المكي الكباير سبع عشرة جمعتها من جملة الاخبار وجملة ما اجتمع من قول ابن عباس وابن مسعود وابن عمر وغيرهم رضي الله عنهم اربعة في القلب وهي الشرك بالله والاصرار على معصيته والقنوط من رحمته والامن من مكر الله واربعة في اللسان وهي شهادة الزور وقذف المحصن واليمين الغموس وهي التي يحق بها باطلا او يبطل بها حقا وقيل هي التي يقتطع بها مال مسلم باطلا ولو سواكا من اراك وسميت غموسا لانها تغمس صاحبها في النار والسحر وهو كل كلام يغير الانسان وساير الاجسام عن موضوعات الخلقة وثلثة في البطن وهو شرب الخمر والمسكر من كل شراب واكل مال اليتيم ظلما واكل الربوا وهو يعلم واثنان في الفرج وهما الزنا واللواط واثنتان في اليدين وهو القتل والسرقة وواحدة في الرجلين وهو الفرار من الزحف الواحد من اثنين والعشرة من العشرين وواحدة في جميع الجسد وهو عقوق الوالدين قال وجملة عقوقهما

ان يقسما عليه في حق فلا تبر قسمهما وان يسالا حاجة فلا تعطيهما وان يسبّاه فيضربهما وان
يجوعا فلا يطعمهما هذا ما قال وهو قريب ولكن ليس يحصل به تمام الشفاء اذ يمكن الزيادة عليه
والنقصان منه فانه جعل اكل الربوا ومال اليتيم من الكباير وهو جناية على الاموال ولم يذكر في
كباير اليدين الا القتل فاما فقؤ العينين وقطع اليدين وغير ذلك من تعذيب المسلمين بالضرب
وانواع العذاب لم يتعرض له وضرب اليتيم وتعذيبه وقطع اطرافه لا شك في انه اكبر من اكل ماله
كيف وفي الخبر من الكباير السبتان بالسبة ومن الكباير استطالة الرجل في عرض اخيه المسلم
وهذا زايد على قذف المحصن وقال ابو سعيد الخدري وغيره من الصحابة رضي الله عنهم انكم
لتعملون اعمالا هي ادق في اعينكم من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم
من الكباير وقالت طايفة كل عمد كبيرة وكل ما نهى الله عز وجل عنه فهو كبيرة وكشف الغطاء عن
هذا ان نظر الناظر في السرقة اهي كبيرة ام لا لا يصح ما لم يفهم معنى الكبيرة والمراد بها كقول القايل
السرقة حرام ام لا مطمع في معرفته الا بعد تقديم معنى الحرام اولا ثم البحث عن وجوده في السرقة
والكبيرة من حيث اللفظ مبهم ليس له موضوع خاص في اللغة ولا في الشرع وذلك لان الكبيرة
والصغيرة من المضافات وما من ذنب الا وهو كبير بالاضافة الى ما دونه وصغير بالاضافة الى
ما فوقه فالمضاجعة مع الاجنبية كبيرة بالاضافة الى النظر صغيرة بالاضافة الى الزنا وقطع
يد المسلم كبيرة بالاضافة الى ضربه صغيرة بالاضافة الى قتله نعم للانسان ان يطلق على ما توعد
بالنار على فعله خاصة اسم الكبيرة ونعني بوصفه بالكبيرة ان العقوبة بالنار عظيمة وله ان يطلق
على ما اوجب الحد عليه مصيرا الى ان ما عجل عليه في الدنيا عقوبة واجبة عظيم وله ان يطلق
على ما ورد في نص الكتاب النهي عنه فنقول تخصيصه بالذكر في القرآن يدل على عظمه ثم يكون
عظيما وكبيرا لا محالة بالاضافة اذ منصوصات القرآن ايضا يتفاوت درجاتها فهذه الاطلاقات
لا حرج فيها وما نقل من الفاظ الصحابة رضي الله عنهم يتردد بين هذه الجهات ولا يبعد تنزيلها
على شيء من هذه الاحتمالات نعم من المهمات ان يعلم معنى قول الله تعالى ان تجتنبوا
كباير ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلوات الخمس كفارات
لما بينهن الا الكباير وقوله صلى الله عليه وسلم رمضان الى رمضان كفارة لما بينهن فان
هذا اثبات حكم للكباير والحق في ذلك ان الذنوب منقسمة في نظر الشرع الى ما يعلم استعظامه
اياها والى ما يعلم انها معدودة في الصغاير والى ما يشك فيه فلا يدري حكمه فالطمع في معرفة

حد حاصر او عدد جامع مانع طلب لما لا يمكن فان ذلك لا يمكن الا بالسماع من رسول الله صلى الله عليه وسلم
بان يقول اني اردت بالكباير عشرا او خمسا ويفصلها فاذا لم يرد هذا بل ورد في بعض الالفاظ ثلث
من الكباير وفي بعض سبع من الكباير ثم ورد ان السبتين بالسبة الواحدة من الكباير وهو خارج
عن السبع والثلث علم انه لم يقصد به العدد والحصر فكيف نطمع في عدد ما لم يعدده الشرع وربما
قصد الشرع ابهامه ليكون العباد منه على وجل كما ابهم ليلة القدر ليعظم جد الناس في طلبها
نعم لنا سبيل كلي يمكننا ان نعرف به اجناس الكباير وانواعها بالتحقيق واما اعيانها فنعرفها بالظن
والتقريب ونعرف ايضا اكبر الكباير فاما اصغر الصغاير فلا سبيل الى معرفته وبيانه انا نعلم بشواهد
الشرع وانوار البصاير جميعا ان مقصود الشرايع كلها سياقة الخلق الى جوار الله تعالى وسعادة
لقائه وانه لا وصول لهم الى ذلك الا بمعرفة الله تعالى ومعرفة صفاته ورسله وكتبه واليه الاشارة بقوله
تعالى وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون اي ليكونوا عبيدا لي ولا يكون العبد عبدا ما لم يعرف
ربه بالربوبية ونفسه بالعبودية فلا بد ان يعرف نفسه وربه فهذا هو المقصود الاقصى ببعثة
الانبياء صلوات الله عليهم ولكن لا يتم هذا الا في الحيوة الدنيا وهو المعنى بقوله صلى الله عليه وسلم
الدنيا مزرعة الاخرة فصار حفظ الدنيا ايضا مقصودا تابعا للدين لانه وسيلة اليه والمتعلق
بالدنيا من الاخرة شيئان النفوس والاموال وكل ما يسد باب معرفة الله فهو اكبر الكباير ويليه ما يسد
باب حيوة النفوس ويلي ذلك ما يسد باب المعاش التي بها حيوة النفوس فهذه ثلث مراتب
فحفظ المعرفة على القلوب والحيوة على الابدان والاموال على الاشخاص ضروري في مقصود
الشرايع كلها وهذه ثلثة امور لا يتصور ان تختلف فيها الملل فلا يجوز ان يبعث الله نبيا يريد
ببعثته اصلاح الخلق في دينهم ودنياهم ثم يامرهم بما يمنعهم من معرفته ورسله او يامرهم باهلاك
النفوس واهلاك الاموال فحصل من هذا ان الكباير على ثلث مراتب الاولى ما يمنع من معرفة الله
تعالى ومعرفة رسله وهو الكفر فلا كبيرة فوق الكفر اذ الحجاب بين العبد وبين الله هو الجهل والوسيلة
المقربة له اليه هو العلم والمعرفة وقربه بقدر معرفته وبعده بقدر جهله ويتلوه الجهل الذي يسمى
كفرا الامن من مكر الله تعالى والقنوط من رحمته فان هذا ايضا عين الجهل فمن عرف الله عز وجل
لم يتصور ان يكون آمنا ولا ان يكون آيسا ويتلو هذه الرتبة البدع كلها المتعلقة بذات الله تعالى
وصفاته وافعاله وبعضها اشد من بعض وتفاوتها على حسب تفاوت الجهل بها وعلى حسب
تعلقها بذات الله تعالى وشرايعه واوامره ونواهيه ومراتب ذلك لا تنحصر وهي تنقسم الى ما يعلم انها داخلة

عن ذكر الكباير المذكورة في القرآن والي ما يعلم انه لا يدخل والي ما يشك فيه وطلب رفع الشك في
القسم المتوسط طمع في غير مطمع الرتبه الثانيه النفوس اذ ببقايها وحفظها تدوم الحيوة وتحصل
المعرفة بالله عز وجل فقتل النفس لا محاله من الكباير وان كان دون الكفر لان ذلك يصدم عين المقصود
وهذا يصدم وسيله المقصود اذ حياة الدنيا لا تراد الا للآخرة والتوصل اليها بمعرفة الله تعالي ويتلو
هذه الكبيرة قطع الاطراف وكل ما يفضي الي الهلاك حتي الضرب وبعضها اكبر من بعض ويقع في هذه
الرتبه تحريم الزنا واللواطه لانه لو اجتمع الناس علي الاكتفاء بالذكور في قضاء الشهوات انقطع
النسل ودفع الوجود قريب من قطع الوجود واما الزنا فانه لا يفوت اصل الوجود ولكن يشوش
الانساب ويبطل التوارث والتناصر وجملة من الامور التي لا ينتظم العيش الا بها بل كيف يتم
النظام مع اباحة الزنا ولا ينتظم امور البهايم ما لم يتميز الفحل منها باناث يختص بها عن ساير
الفحول ولذلك لا يتصور ان يكون الزنا مباحا في شرع قصد به الاصلاح وينبغي ان يكون الزنا
في الرتبة دون القتل لانه ليس يفوت دوام الوجود ولا يمنع اصله ولكن يفوت تميز الانساب
ويحرك من الاسباب ما يكاد يفضي الي التقاتل وينبغي ان يكون اشد من اللواط لان الشهوة
داعية اليه من الجانبين فيكثر وقوعه ويعظم اثر الضرر بكثرته الرتبه الثالثه الاموال فانها معاش
الخلق فلا يجوز تسليط الناس علي تناولها كيف شاؤا حتي بالاستيلاء والسرقه وغيرهما بل
ينبغي ان تحفظ ليبقي ببقايها النفوس الا ان الاموال اذا اخذت امكن استردادها وان
اكلت امكن تغريمها فليس يعظم الامر فيها نعم اذا جري تناولها بطريق يعسر التدارك له فينبغي
ان يكون ذلك من الكباير وذلك باربعة طرق احدها الخفيه وهي السرقه فانه اذا لم يطلع عليه
غالبا فكيف يتدارك والثاني اكل مال اليتيم وهذا ايضا من الخفيه واعني به في حق الولي
والقيم فانه مؤتمن فيه وليس له خصم سوي اليتيم وهو صغير لا يعرفه فتعظيم الامر فيه واجب بخلاف
الغصب فانه ظاهر يعرف وبخلاف الخيانه في الوديعة فان المودع خصم فيه ينتصف لنفسه
الثالث تفويتها بشهادة الزور الرابع اخذ الوديعة وغيرها باليمين الغموس فان هذه طرق
لا يمكن فيها التدارك ولا يجوز ان تختلف الشرايع في تحريمها اصلا وبعضها اشد من بعض وكلها
دون الرتبه الثانيه المتعلقه بالنفوس وهذه الاربعة جديرة بان يكون مرادة بالكباير وان لم
يوجب الشرع الحد في بعضها ولكن كثر الوعيد عليها ومعظم في مصالح الدنيا والدين تاثيرها واما اكل
الربا فليس فيه الا اكل مال الغير بالتراضي مع الاخلال بشرط وضعه الشرع ولا يبعد ان يختلف

الشرايع في مثله واذا لم يجعل الغصب الذي هو اكل مال الغير بغير رضاه وبغير رضا الشرع من
الكباير فاكل الربوا وهو اكل برضا المالك ولكن دون رضا الشرع اولى ان لا يكون من الكباير ان
عظم الشرع الربا بالزجر عنه فقد عظم الظلم ايضا بالغصب وغيره وعظم الخيانة والمصير الى
ان اكل دانق بالخيانة او الغصب من الكباير فيه نظر وذلك واقع في مظنة الشك واكثر ميل
الظن الى انه غير داخل تحت الكباير بل ينبغي ان يختص الكبيرة بما لا يجوز اختلاف الشرايع فيه
ليكون ضروريا في الدين فيبقى مما ذكره ابو طالب المكي رحمه الله القذف والشرب والسحر والفرار
من الزحف وعقوق الوالدين اما الشرب لما يزيل العقل فجدير بان يكون من الكباير وقد دل
عليه تشديدات الشرع وطريق النظر ايضا لان العقل محفوظ كما ان النفس محفوظة بل لا
خير في النفس دون العقل فازالة العقل من الكباير ولكن لا يجري في قطرة من الخمر ولا شك
في انه لو شرب ماء فيه قطرة من الخمر لم يكن ذلك كبيرة وانما هو شرب ماء نجس والقطرة وحدها
في محل الشك وايجاب الشرع الحد به يدل على تعظيم امره فيعد ذلك من الكباير في الشرع وليس
في القوة البشرية الوقوف على جميع اسرار الشرع فان ثبت اجماع في انه كبيرة وجب الاتباع
والا فللتوقف فيه مجال واما القذف فليس فيه الا تناول للاعراض والاعراض دون الاموال
في الرتبة ولتناولها مراتب واعظمها التناول بالاضافة الى فاحشة الزنا وقد عظم الشرع
امره واظن ظنا غالبا ان الصحابة رضي الله عنهم كانوا يعدون كل ما يجب به الحد كبيرة فهو بهذا
الاعتبار لا يكفره الصلوات الخمس وهو الذي نريد بالكبيرة الآن ولكن من حيث انه يجوز ان
يختلف فيه الشرايع فالقياس بمجرده لا يدل على كبره وعظمته بل كان يجوز ان يرد الشرع
بان العدل الواحد اذا راى انسانا يزني فله ان يشهد ويجلد المشهود عليه بمجرد شهادته
فان لم تقبل شهادته فمجرده ليس ضروريا في مصالح الدنيا وان كان على الجملة من المصالح الظا
الواقعة في رتبة الحاجات فاذا هو ايضا يلحق بالكباير في حق من عرف حكمة الشرع فاما من
ظن ان له ان يشهد وحده او ظن انه يساعده على الشهادة غيره فلا ينبغي ان يجعل في حقه
من الكباير واما السحر فان كان فيه كفر فكبيرة والا فعظمته بحسب الضرر الذي يتولد منه من
هلاك نفس او مرض او غيره واما الفرار من الزحف وعقوق الوالدين فهذا ايضا ينبغي ان
يكون من حيث القياس في محل التوقف واذا اقطع بان سب الناس بكل شيء سوى الزنا
وضربهم وظلمهم بغصب اموالهم واخراجهم عن مساكنهم وبلادهم واجلائهم من اوطانهم ليس من

الكباير اذ لم ينقل ذلك في السبع عشرة كبيرة وهو اكبر ما قيل فيه فالتوقف في هذا ايضا غير بعيد ولكن
الحديث يدل على تسميته كبيرة فليلحق بالكباير فاذا رجع حاصل الامر الي انا نعني بالكبيرة ما لا تكفره
الصلوة الخمس بحكم الشرع وذلك مما انقسم الي ما علم انه لا تكفره قطعا والي ما ينبغي ان تكفره والي
ما يتوقف فيه بعضه مظنون بالنفي والاثبات وبعضه مشكوك فيه وهو شك لا يزيله الا نص
الكتاب او سنة واذ لا مطمع فيهما فطلب رفع الشك فيه محال فان قلت فهذا اقامة برهان على
استحالة معرفة حدها فكيف يرد الشرع بما يستحيل معرفة حده فاعلم ان كل ما لا يتعلق به حد في الدنيا
يجوز ان يتطرق اليه الابهام لان دار التكليف هي دار الدنيا والكبيرة على الخصوص لا حكم لها
في الدنيا من حيث انها كبيرة بل موجبات الحدود معلومة باساميها كالسرقة والزنا وغيرهما انما حكم
الكبيرة ان الصلوات الخمس لا تكفرها وهذا امر يتعلق بالآخرة والابهام اليق به حتى يكون الناس
على وجل وحذار فلا يجترئون على الصغاير اعتمادا على الصلوات الخمس وكذلك اجتناب الكباير
يكفر الصغاير بموجب قوله تعالى ان تجتنبوا كباير ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم ولكن اجتناب
الكبيرة انما يكفر الصغيرة اذا اجتنبها مع القدرة والارادة كمن يتمكن من امرأة ومن مواقعتها فكف
نفسه عن الوقاع واقتصر على نظر ولمس فان مجاهدته نفسه في الكف عن الوقاع اشد تاثيرا في
تنوير قلبه من اقدامه على النظر في اظلامه فهذا معنى تكفيره فان كان عنينا ولم يكن امتناعه الا
بالضرورة للعجز او كان قادرا ولكن امتنع لخوف امر آخر فهذا لا يصلح للتكفير اصلا وكل من لا يشتهي
الخمر بطبعه ولو ابيح له لما شربه فاجتنابه لا يكفر عنه الصغاير التي هي من مقدماته كسماع الملاهي
والاوتار نعم من يشتهي الخمر وسماع الاوتار فيمسك نفسه بالمجاهدة عن الخمر ويطلقها في السماع
فمجاهدة النفس بالكف ربما يمحو عن قلبه الظلمة التي ارتفعت اليه من معصية السماع وكل هذا
احكام اخروية يجوز ان يبقى بعضها في محل الشك ويكون من المتشابهات ولا يعرف تفصيلها الا
بالنص ولم يرد النص بعدد ولا حد جامع بل ورد بالفاظ مختلفة فقد روى ابو هريرة رضي الله عنه
انه صلى الله عليه وسلم قال الصلوة الي الصلوة كفارة ورمضان الي رمضان كفارة الا من ثلث اشراك
بالله وترك السنة ونكث الصفقة قيل ما ترك السنة قال الخروج من الجماعة ونكث الصفقة ان
يبايع رجلا ثم يخرج عليه بالسيف يقاتله فهذا وامثاله من الالفاظ لا يحيط بالعدد كله ولا يدل
على حد جامع فيبقى لا محالة مبهما فان قلت الشهادة لا تقبل الا ممن يجتنب الكباير والورع عن
الصغاير ليس شرطا في قبول الشهادة وهذا من احكام الدنيا فاعلم انا لا نخصص رد الشهادة

بالكبائر فلا خلاف ان من يسمع الملاهي ويلبس الديباج ويختم بخاتم الذهب ويشرب من اواني الذهب
والفضة لا تقبل ولم يذهب احد الي ان هذه الامور من الكبائر وقال الشافعي رضي الله عنه اذا شرب
الحنفي النبيذ حددته ولا ارد شهادته فقد جعله كبيرة بايجاب الحد ولم يرد به الشهادة فدل ان
الشهادة نفيا واثباتا لا تدور على الصغائر والكبائر بل كل الذنوب يقدح في العدالة الا ما لا يخلو
الانسان عنه غالبا بضرورة مجاري العادات كالغيبة والتجسس وسوء الظن والكذب في بعض
الاقوال وسماع الغيبة وترك الامر بالمعروف واكل الشبهات وسب الولد والغلام وضربهما بحكم الغضب
زايدا على حد المصلحة واكرام السلاطين الظلمة ومصادقة الفجار والتكاسل عن تعليم الاهل
والولد جميع ما يحتاجون اليه في امر الدين فهذه ذنوب لا يتصور ان ينفك الشاهد عن قليلها
او كثيرها الا بان يعتزل الناس ويتجرد لامر الآخرة ويجاهد نفسه مدة بحيث يبقى على سمته مع
المخالطة بعد ذلك ولو لم يقبل الا قول مثله لعز وجوده وبطلت الاحكام والشهادات ولبس
الحرير وسماع الملاهي واللعب بالنرد ومجالسة الشرب في وقت الشرب والخلوة بالاجنبيات
وامثال هذه الصغائر من هذا القبيل قال فمثل هذا المنهاج ينبغي ان ينظر في قبول الشهادة
وردها لا الي الكبيرة والصغيرة ثم آحاد هذه الصغائر التي لا ترد الشهادة بها لو واظب عليها اثر في
رد الشهادة كمن اتخذ الغيبة وثلب الناس عادة وكذلك مجالسة الفجار ومصادقتهم والصغيرة
تصير كبيرة بالمواظبة كما ان المباح يصير صغيرة بالمواظبة كاللعب بالطنبور والترنم بالغناء على
الدوام وغيره فهذا بيان حكم الصغائر والكبائر **بيان كمية تنوع الدرجات والدركات في
الآخرة على الحسنات والسيئات في الدنيا** اعلم ان الدنيا من عالم الملك والشهادة والآخرة من عالم الغيب
والملكوت واعني بالدنيا حالتك قبل الموت وبالآخرة حالتك بعد الموت فدنياك وآخرتك صفاتك
واحوالك يسمى القريب الداني منها دنيا والمتأخر آخرة ونحن الآن نتكلم من الدنيا في الآخرة
فانا الآن في الدنيا وهي عالم الملك وغرضنا شرح الآخرة وهي عالم الملكوت ولا يتصور شرح عالم
الملكوت في عالم الملك الا بضرب الامثال ولذلك قال الله تعالى وتلك الامثال نضربها للناس وما
يعقلها الا العالمون وهذا لان عالم الملك نوم بالاضافة الي عالم الملكوت ولذلك قال صلى الله
عليه وسلم الناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا وما سيكون في اليقظة لا يتبين لك في النوم الا بضرب
المثال المحوجة الي التعبير فكذلك ما سيكون في يقظة الآخرة لا يتبين في نوم الدنيا الا بكسوة
الامثال واعني بكسوة الامثال ما يعرفه من علم التعبير ويكفيك منه ان كنت فطنا ثلثة امثلة فقد

جاء رجل الى ابن سيرين وقال رايت كان في يدي خاتما اختم بها افواه الرجال وفروج النسا
فقال انك موذن تؤذن في رمضان قبل الصبح فقال صدقت وجاء آخر فقال رايت كاني
اصب الزيت في الزيتون فقال ان كان تحتك جارية اشتريتها ففتش عن حالها فانها امك لان
الزيتون اصل الزيت فهو رد الي الاصل فنظر فاذا جاريته كانت امه وقد سبيت في صغره
وقال آخر رايت كاني اقلد الدر في اعناق الخنازير فقال انك تعلم الحكمة غير اهلها فكان
كما قال والتعبير من اوله الى آخره مثال يعرفك طريق ضرب الامثال وانما نعني بالمثل اداء المعنى
في صورة ان نظر الي معناه وجد صادقا وان نظر الي صورته وجد كاذبا فالموذن ان نظر
الي صورة الخاتم والختم به علي الفروج رآه كاذبا لانه لم يختم به قط وان نظر الي معناه وجده صادقا
اذا قد صدر منه روح الختم ومعناه وهو المنع الذي يراد الختم له وليس للانبياء ان يتكلموا مع الخلق
الا بضرب الامثال لانهم كلفوا ان يكلموا الناس علي قدر عقولهم وقدر عقولهم انهم في نوم والنايم
لا يكشف له شي الا بمثل فاذا ماتوا انتبهوا وعرفوا ان المثل صادق وقد ورد في امر الآخرة
ضرب امثلة يكذب بها الملحد الجمود نظر على ظاهر المثال وتناقضه عنده كقوله صلى الله عليه
وسلم يؤتى بالموت يوم القيمة في صورة كبش املح فيذبح فيثور الملحد ويكذبه ويستدل به
على كذب الانبياء ويقول يا سبحان الله الموت عرض والكبش جسم فكيف ينقلب العرض جسما
وهل هذا الا محال ولكن الله تعالى عزل هؤلاء الحمقى عن معرفة اسرار الله تعالى فقال وما يعقلها
الا العالمون ولا يدري المسكين ان من قال رايت في منامي انه جيء بكبش وقيل هذا هو
الوباء الذي في البلد وذبح فقال المعبر صدقت والامر كما رايت وهذا يدل على ان هذا الوباء
ينقطع ولا يعود قط لان المذبوح وقع الياس عنه فاذا المعبر صادقا في تعبيره وهو صادق في
رويته ويرجع حقيقته الى ان الملك الموكل بالرويا وهو الذي يطلع الارواح عند النوم على
ما في اللوح المحفوظ عرفه ما في اللوح المحفوظ بمثال ضربه له لان النايم انما يحتمل المثال
فكان مثاله صادقا وكان معناه صحيحا فالرسل ايضا انما يكلمون الناس في الدنيا وهو
بالاضافة الي الآخرة نوم فيوصلون المعاني الى افهامهم بالامثلة حكمة من الله تعالى ولطفا
بعباده وتيسيرا لادراك ما يعجزون عن ادراكه دون ضرب المثل فقوله يؤتى بالموت يوم
القيمة في صورة كبش مثال ضربه ليوصل الى الافهام حصول الياس عن الموت وقد جبلت
القلوب على التاثر بالامثلة وثبوت المعاني فيها بواسطتها وقد اشرنا الى حكمة ذلك في كتاب

قواعد العقائد فلنرجع الآن الى الغرض فالمقصود ان تعريف توزع الدرجات والدركات على
الحسنات والسيئات لا يمكن الا بضرب الامثال فليفهم من المثل الذي نضربه معناه لا صورته فنقول
الناس في الآخرة ينقسمون اصنافا وتتفاوت درجاتهم في السعادة والشقاوة تفاوتا لا يدخل
تحت الحصر كما تتفاوت في سعادة الدنيا وشقاوتها ولا تفارق الآخرة الدنيا في هذا المعنى اصلا
فان مدبر الملك والملكوت واحد لا شريك له وسنته الصادرة عن ارادته الازلية مطردة لا
تبديل لها الا انا ان عجزنا عن آحاد الدرجات فلا نعجز عن احصاء الاجناس فنقول الناس في
الآخرة ينقسمون بالضرورة الى اربعة اقسام هالكين ومعذبين وناجين وفائزين ومثاله
من الدنيا ان يستولي ملك من الملوك على اقليم فيقتل بعضهم فهم الهالكون ويعذب بعضهم مدة
ولا يقتلهم فهم المعذبون ويخلي بعضهم فهم الناجون ويخلع على بعضهم فهم الفائزون
فان كان الملك عادلا لم يقسمهم كذلك الا باستحقاق فلا يقتل الا جاحدا لاستحقاق الملك معاندا
له في اصل الدولة ولا يعذب الا من قصر في خدمته مع الاعتراف بملكه وعلو درجته ولا يخلي
الا معترفا له برتبة الملك لكنه لم يقصر ليعذب ولم يخدم ليخلع عليه ولا يخلع الا على من ابلى عذره
في الخدمة والنصرة بل ينبغي ان يكون خلع الفائزين متفاوتة الدرجات بحسب درجات خدمتهم
واهلاك الهالكين اما تحقيقا بحز الرقبة او تنكيلا بالمثلة بحسب درجات معاندتهم وتعذيب
المعذبين في الخفة والشدة وطول المدة وقصرها واتحاد انواعها واختلافها بحسب درجات تقصيرهم
فتنقسم كل رتبة من هذه الرتب الى درجات لا تنحصر فكذلك فافهم ان الناس في الآخرة هكذا
يتفاوتون فمن هالك ومن معذب مدة ومن ناج يحل في دار السلامة ومن فائز والفائزون
ينقسمون الى من يحلون في جنات عدن او جنات المأوى او جنات الفردوس والمعذبون ينقسمون
الى من يعذب قليلا والى من يعذب الف سنة الى سبعة آلاف سنة وذلك آخر من يخرج من النار
كما ورد في الخبر وكذا الهالكون الآيسون عن رحمة الله تعالى تتفاوت دركاتهم وهذه الدركات والدرجات
بحسب اختلاف المعاصي والطاعات فلنذكر كيفية توزعها عليها اما الرتبة الاولى وهي الهلاك
ونعني بالهالكين الآيسين من رحمة الله عز وجل اذ الذي قتله الملك في المثال الذي ضربناه آيس من
رضا الملك واكرامه فلا تغفل عن معاني المثال وهذه الدرجة لا تكون الا للجاحدين والمعرضين
المتجردين للدنيا المكذبين بالله وبرسله وكتبه فان السعادة الاخروية في القرب من الله والنظر الى
وجهه وذلك لا ينال اصلا الا بالمعرفة التي يعبر عنها بالايمان والتصديق والجاحدون هم المنكرون

والمكذبون فهم الآيسون عن رحمة الله تعالى ابد الآباد وهم الذين يكذبون برب العالمين
وبانبيائه المرسلين وهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون لا محالة وكل محجوب عن محبوبه فمحول بينه
وبين ما يشتهيه فهو لا محالة يكون محترقا مع نار جهنم بنار الفراق ولذلك قال العارفون ليس خوفنا
من نار جهنم ولا رجاؤنا للحور العين انما مطلبنا اللقاء ومهربنا من الحجاب فقط وقالوا من
يعبد الله لغرض فهو لئيم اذ يعبده لطلب جنته او لخوف ناره بل العارف يعبده لذاته فلا يطلب
الا ذاته فقط فاما الحور والفواكه فقد لا يشتهيها واما النار فقد لا يتقيها اذ نار الفراق نار
الله الموقدة التي تطلع على الافئدة ونار جهنم لا شغل لها الا مع الاجسام والم الاجساد
يستحقر مع الم الفؤاد ولذلك قيل ففي فؤاد المحب نار هوى احر نار الجحيم ابردها ولا ينبغي ان
تنكر هذا في عالم الآخرة اذ له نظير مشاهد في عالم الدنيا فقد روي من غلب عليه الوجد فعدا
على النار وعلى اصول القصب الجارحة للقدم وهو لا يحس به لفرط غلبة ما في قلبه وترى الغضبان
يستولي عليه الغضب في القتال فتصيبه جراحات وهو لا يشعر بها في الحال لان الغضب
نار في القلب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الغضب قطعة من النار واحتراق الفؤاد اشد
من احتراق الاجساد والاشد يبطل الاحساس بالاضعف كما تراه فليس الهلاك من النار والسيف
الا من حيث انه يفرق بين جزئين احدهما يرتبط بالآخر رابطة التأليف الممكن في الاجسام
فالذي يفرق بين القلب وبين محبوبه المرتبط به رابطة تأليف اشد احكاما من تأليف الاجسام
فهو اشد ايلاما ان كنت من ارباب البصائر وارباب القلوب ولا يبعد ان لا يدرك من لا قلب
له شدة هذا الالم ويستحقره بالاضافة الى الم الجسم فالصبي لو خير بين الم الحرمان عن الكرة
والصولجان وبين الم الحرمان عن رتبة السلطان لم يحس بالم الحرمان عن رتبة السلطان
اصلا ولم يعد ذلك الما وقال العدو في الميدان مع الصولجان احب الي من سرير الملك والسلطان
مع الجلوس عليه بل من يغلبه شهوة البطن لو خير بين الهريسة والحلواء وبين لذة الجاه والعلى
لاختار الهريسة والحلواء وهذا كله لفقد المعنى الذي يصير الجاه محبوبا ووجود المعنى الذي
بوجوده يصير الطعام لذيذا وذلك لمن سترته صفات البهائم والسباع ولم يظهر فيه الصفات
الملكية التي لا تناسبها ولا يلذها الا القرب من رب العالمين ولا يولمها الا البعد والحجاب
وكما لا يكون الذوق الا في اللسان والسمع الا في الآذان فلا تكون هذه الصفة الا في القلب
فمن لا قلب له ليس له هذا الحس كمن لا سمع له ولا بصر ليس له لذة الالحان وحسن الصور والالوان

وليس لكل انسان قلب ولو كان لما صح قوله تعالى ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب فجعل من لم
يتذكر بالقرآن مفلسا من القلب ولست اعني بالقلب هنا اللحم الذي يكشفه عظام الصدر بل
اعني به السر الذي هو من عالم الامر وهذا اللحم الذي هو من عالم الخلق عرشه والصدر كرسيه وسائر
الاعضاء عالمه ومملكته ولله الخلق والامر جميعا ولكن ذلك السر الذي قال الله تعالى فيه قل الروح
من امر ربي وهو الملك والامير لان بين عالم الامر وبين عالم الخلق ترتيبا وعالم الامر امير عالم الخلق
وهي اللطيفة التي اذا صلحت صلح لها سائر الجسد من عرفها فقد عرف نفسه ومن عرف نفسه
عرف ربه وعند ذلك يشم العبد مبادي روائح المعنى والحقيقة المطوي تحت قوله صلى الله عليه وسلم
ان الله خلق آدم على صورته وينظر بعين الرحمة الى الجامدين على ظاهر لفظه والى المتعسفين في
طرف تاويله وان كان رحمته على الجامد على اللفظ اكثر من رحمته على المتعسف في التاويل
لان الرحمة على قدر المصيبة ومصيبة اولئك اكثر وان اشتركوا في مصيبة الحرمان عن حقيقة الامر
فالحقيقة فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم وهي حكمة يختص بها من يريد ومن يؤت
الحكمة فقد اوتي خيرا كثيرا ولنعد الى الغرض فقد ارخينا الطول وطولنا النفس في امر هو على
من علوم المعاملة التي نقصدها في هذا الكتاب فقد ظهر ان رتبة الهلاك ليس الا للجهال
المكذبين وشهادة ذلك من كتاب الله تعالى وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تدخل تحت الحصر
فلذلك لم نورده الرتبة الثانية رتبة المعذبين وهذه رتبة من تحلى باصل الايمان ولكن قصر في
الوفاء بمقتضاه فان راس الايمان هو التوحيد وهو ان لا يعبد الا الله ومن اتبع هواه فقد اتخذ
الهه هواه فهو موحد بلسانه لا بالحقيقة بل معنى قولك لا اله الا الله قوله تع قل الله ثم ذرهم وهو ان
تذر بالكلية غير الله تعالى ومعنى قوله تعالى ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ولما كان الصراط
المستقيم الذي لا يكمل التوحيد الا بالاستقامة عليه ادق من الشعر واحد من السيف مثل
الصراط الموصوف في الآخرة لا ينفك بشر عن ميل عن الاستقامة ولو في امر يسير ولا يخلو عن اتباع
الهوى ولو في فعل قليل وذلك قادح في كمال التوحيد بقدر ميله عن الصراط المستقيم فذلك يقتضي
لا محالة نقصانا في درجة القرب ومع كل نقصان ناران نار الفراق لذلك الكمال الفائت بالنقصان
ونار جهنم كما وصفها القرآن فيكون كل مائل عن الصراط المستقيم معذبا مرتين من وجهين ولكن
شدة ذلك العذاب وخفته وتفاوته بحسب طول المدة وقصرها انما يكون بسبب امرين احدهما
قوة الايمان وضعفه والثاني كثرة اتباع الهوى وقلته واذ لا يخلو بشر في غالب الامر عن واحد من

٦٣٦

الامرين قال الله تعالى وان منكم الا واردها كان على ربك حتما مقضيا ثم ننجي الذين اتقوا ١
ونذر الظالمين فيها جثيا ولذلك قال الخايفون من السلف انما خوفنا لانا تيقنا انا على
النار واردون وشككنا في النجاة ولما روى الحسن الخبر الوارد فيمن يخرج من النار بعد
الف عام وانه ينادي يا حنان يا منان قال الحسن يا ليتني كنت ذلك الرجل واعلم ان في
الاخبار ما يدل على ان آخر من يخرج من النار بعد سبعة الآف سنة وانما الاختلاف في
في المدة بين اللحظة وبين سبعة الآف سنة حتى انه يجوز بعضهم على النار كبرق خاطف ولا يكون
له فيها لبث وبين اللحظة وبين سبعة الآف سنة درجات متفاوتة من اليوم والاسبوع والشهر
وساير المدد وان الاختلاف بالشدة لا نهاية لاعلاه وادناه التعذيب بالمناقشة في الحساب
كما ان الملك قد يعذب بعض المقصرين في الاعمال بالمناقشة في الحساب ثم يعفو وقد يضرب
بالسياط وقد يعذب بانواع اخر من العذاب ويتطرق الى العذاب اختلاف ثالث في غير المدة
والشدة وهو اختلاف الانواع اذ ليس من يعذب بمصادرة المال فقط كمن يعذب باخذ المال
وقتل الولد واستباحة الحريم وتعذيب الاقارب والضرب وقطع اليد واللسان والانف والاذن
وغيره فهذه الاختلافات ثابتة في عذاب الآخرة دل عليها قواطع الشرع وهي بحسب اختلاف
قوة الايمان وضعفه وكثرة الطاعات وقلتها وكثرة السيئات وقلتها اما شدة العقاب
فبشدة قبح السيئات وكبرها واما كثرته فبكثرتها واما اختلاف انواعه فباختلاف انواع السيئات
وقد انكشف هذا لارباب القلوب مع شواهد القرآن بنور الايمان وهو المعني بقوله تعالى
وما ربك بظلام للعبيد وبقوله تعالى اليوم تجزى كل نفس بما كسبت وبقوله وان ليس للانسان
الا ما سعى وقوله فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره الى غير ذلك مما ورد في
الكتاب والسنة في كون الثواب والجزاء والعقاب جزاء على الاعمال وكل ذلك بعدل لا ظلم
فيه وجانب العدل والرحمة ارجح اذ قال تعالى فيما حكى عنه نبيه صلى الله عليه وسلم سبقت رحمتي
غضبي وقال تعالى وان تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه اجرا عظيما فاذا هذه الامور الكلية
من ارتباط الدرجات والدركات بالحسنات والسيئات معلومة بقواطع الشرع ونور المعرفة
فاما التفصيل فلا يعرف الا ظنا ومستنده ظواهر الاخبار ونوع حدس يستمد من انوار الاستبصار
بعين الاعتبار فنقول كل من احكم اصل الايمان واجتنب جميع الكبائر واحسن جميع الفرائض اعني
الاركان الخمسة ولم يكن منه الا صغائر متفرقة لم يصر عليها فيشبه ان يكون عذابه بالمناقشة

في الحساب فقط فانه اذا حوسب رجحت حسناته علي سيئاته اذ ورد في الاخبار ان الصلوات
الخمس والجمعة وصوم رمضان كفارة لما بينهن وكذلك اجتناب الكباير بحكم نص القرآن مكفر
للصغاير واقل درجات التكفير ان يدفع العذاب ان لم يدفع الحساب وكل من هذا حاله فقد
ثقلت موازينه فينبغي ان يكون بعد ظهور الرجحان في الميزان وبعد الفراغ من الحساب
في عيشة راضية نعم الحاقه باصحاب اليمين او بالمقربين ونزوله في جنات عدن او الفردوس
الاعلي فذلك يتبع اصناف الايمان لان الايمان ايمانان ايمان تقليدي كايمان العوام يصدقون
بما يسمعون ويستمرون عليه وايمان كشفي يحصل بانشراح الصدر بنور الله تعالي حتي ينكشف
فيه الوجود كله علي ما هو عليه فيتضح ان الكل الي الله مرجعه ومصيره اذ ليس في الوجود الا الله
وصفاته وافعاله فهذا الصنف هو المقربون النازلون في الفردوس الاعلي وهم علي غاية
القرب من الملاء الاعلي وهم ايضا علي اصناف فمنهم السابقون ومنهم من دونهم وتفاوتهم
بحسب تفاوت معرفتهم بالله ودرجات العارفين في المعرفة لا تنحصر اذ الاحاطة بكنه جلال الله
غير ممكن وبحر المعرفة ليس له ساحل وعمق وانما يغوص فيه الغواصون بقدر قواهم وبقدر ما سبق
لهم من الله تعالي في الازل فالطريق الي الله تعالي لا نهاية لمنازله والسالكون لسبيل الله لا نهاية
لدرجاتهم واما المؤمن ايمانا تقليديا فهو من اصحاب اليمين ودرجته دون درجة المقربين
وهم ايضا علي درجات فالاعلي من درجات اصحاب اليمين تقارب رتبته رتبة الادني
من درجات المقربين هذا حال من اجتنب كل الكباير وادي الفرايض كلها اعني الاركان
الخمسة التي هي النطق بكلمة الشهادة باللسان والصلوة والزكوة والصوم والحج فاما من
ارتكب كبيرة او كباير او اهمل بعض اركان الاسلام فان تاب توبة نصوحا قبل قرب الاجل
التحق بمن لم يرتكب لان التايب من الذنب كمن لا ذنب له والثوب المغسول كالذي لم يتوسخ
اصلا وان مات قبل التوبة فهذا امر مخطر عند الموت اذ ربما يكون موته علي الاصرار سببا
يزلزل ايمانه فيختم له بسوء العاقبة لاسيما اذا كان ايمانه تقليديا وان كان جزما فهو قابل
للانحلال بادني شك وخيال والعارف البصير ابعد من ان اخاف عليه سوء الخاتمة وكلاهما
ان ماتا علي الايمان يعذبان الا ان يعفو الله عذابا يزيد علي عذاب المناقشة في الحساب
ويكون كثرة العقاب من حيث المدة بحسب كثرة مدة الاصرار ومن حيث الشدة بحسب قبح الكباير
ومن حيث اختلاف النوع بحسب اختلاف اصناف السيآت وعند انقضاء مدة العقاب

يترك البله المقلدون في درجات اصحاب اليمين والعارفون المستبصرون في اعلى عليين فمن اخر
من يخرج من النار يعطى مثل الدنيا كلها عشر اضعاف ولا تظن ان المراد به تقديره بالمساحة لاطراف
الاجسام بان يقابل فرسخ بفرسخين او عشرة فان هذا جهل بطريق ضرب الامثال بل هذا
كقول القايل اخذ منه جملا واعطاه عشرة امثاله وكان الجمل مثلا يسوي عشرة دنانير فاعطاه
مائة دينار فانه لم تفهم من المثل الا المثل في الوزن والثقل فلا يكون مائة دينار لو وضعت
في كفة الميزان والجمل في كفة اخرى عشر عشيرها بل هو موازنة معاني الاجسام وارواحها
دون اشخاصها وهياكلها فان الجمل لا يقصد لثقله وطوله وعرضه ومساحته بل لماليته فروحه
المالية وجسمه اللحم والدم ومائة دينار عشرة امثاله بالموازنة الروحانية لا بالموازنة الجسمانية
وهذا صادق عند من يعرف روح المالية من الذهب والابل بل لو اعطاه جوهرة وزنها مثقال
قيمتها مائة دينار وقال اعطيته عشرة امثاله كان صادقا ولكن لا يدرك صدقه الا الجوهري
فان روح الجوهرة لا تدرك بمجرد البصر بل بفطنة اخرى وراء البصر ولذلك يكذب به الصبي بل
القروي والبدوي ويقول ما هذه الجوهرة الا حجر وزنها مثقال ووزن الجمل الف الف مثقال
فقد كذب في قوله اني اعطيته عشرة امثاله والكاذب بالتحقيق هو الصبي ولكن لا سبيل الى
تحقيق ذلك عنده الا بان ينتظر به البلوغ والكمال وان يحصل في قلبه النور الذي يدرك به
ارواح الجواهر وساير الاموال فعند ذلك ينكشف له الصدق والعارف عاجز عن تفهيم المقلد
القاصر صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الموازنة اذ يقول الجنة في السموات كما ورد
في الاخبار والسموات من الدنيا فكيف يكون عشرة امثال الدنيا في الدنيا وهذا كما يعجز البالغ
عن تفهيم الصبي تلك الموازنة وكذلك تفهيم البدوي وكما ان الجوهري مرحوم اذا بلي بالبدوي
والقروي في تفهيم تلك الموازنة فالعارف مرحوم اذا بلى بالبليد الابله في تفهيم هذه الموازنة
ولذلك قال صلى الله عليه وسلم ارحموا ثلثة عالما بين الجهال وغنى قوم افتقر وعزيز قوم ذل
والانبياء مرحومون بين الامة بهذا السبب ومقاساتهم لقصور عقول الامة فتنة لهم وامتحان
وابتلاء من الله عز وجل وبلاء موكل بهم سبق بتوكيله القضاء الازلي وهو المعنى بقوله صلى الله عليه
وسلم البلاء موكل بالانبياء ثم الاولياء ثم الامثل فالامثل فلا تظنن ان البلاء بلاء ايوب عليه السلم
فحسب وهو الذي ينزل بالبدن فان بلاء نوح عليه السلام ايضا كان من البلاء العظيم اذ بلى
بجماعة كان لا يزيدهم دعاؤه الى الله الا فرارا ولذلك لما تاذى رسول الله صلى الله عليه وسلم بكلام بعض

الناس قال رحم الله اخي موسى لقد اوذي باكثر من هذا فصبر فاذا كما لا يخلو الانبيا عن الابتلا
بالجاحدين فلا يخلو العلما والاوليا عن الابتلا بالجاهلين ولذلك قلما انفك الاوليا عن
ضروب من الايذا وانواع البلا بالاخراج من البلاد والسعاية بهم الى السلاطين والشهادة
عليهم بالكفر والخروج من الدين وواجب ان يكون اهل المعرفة عند اهل الجهل من الكافرين
كما يجب ان يكون المعتاض عن الجمل الكبير جوهرة صغيرة عند الجاهلين من المبذرين المضيعين
فاذا عرفت هذه الدقايق فآمن بقوله صلى الله عليه وسلم انه يعطى آخر من يخرج من النار
مثل الدنيا عشرة مرات واجتهد ان لا يعجز عن درك النكتة والدقيقة التي ذكرناها فانما انت
مفارق للعاجزين عنها بسر الهي عرض على السموات والارض والجبال فابين ان يحملنها
واشفقن منه فادراك ما يخرج عن عالم الحواس الخمس لا يصادف الا في عالم ذلك السر
فمن ذهل عن ذلك وعطله واهمله فهو الذي اهلك نفسه بتعطيلها ونسيها بالاعراض
عنها والله تعالى يقول ولا تكونوا كالذين نسوا الله فانساهم انفسهم فكل من لم يعرف الا المدرك
بالحواس فقد نسي الله اذ ليس من ادراك الله مدركا في هذا العالم بالحواس الخمس وكل من نسي الله
انساه الله لا محالة نفسه ونزل الى رتبة البهايم وترك الرتقي الى افق الملاء الاعلى وخان في
الامانة التي اودعه الله تعالى وانعم بها عليه كافرا لنعمته ومتعرضا لنقمته الا انه اسوء حالا
من البهيمة تتخلص بالموت واما هذا فعنده امانة سترجع لا محالة الى مودعها فاليه مرجع الامانة
ومصيرها وتلك الامانة كالشمس الزاهرة وانما هبطت الى هذا القالب الفاني وغربت فيه
وستطلع هذه الشمس عند خراب القالب الفاني وغربت فيه وستطلع هذه الشمس عند
من مغربها وتعود الى باريها وخالقها اما مظلمة منكسفة واما زاهرة مشرقة والزاهرة
المشرقة غير محجوبة عن الحضرة الربوبية والمظلمة ايضا راجعة الى الحضرة الربوبية اذ المرجع
والمصير للكل اليه الا انها ناكسة روسها عن جهة اعلى عليين الى جهة اسفل السافلين
ولذلك قال تعالى ولو ترى اذ المجرمون ناكسوا رؤسهم عند ربهم فبين انهم عند ربهم
فبين انهم عند ربهم الا انهم منكوسون منحوسون قد انقلبت وجوههم الى قفيتهم
وانتكست رؤسهم عن جهة فوق الى جهة اسفل وذلك حكم الله فيمن حرمه توفيقه ولم يهد
طريقه فنعوذ بالله من الضلال والتروك في منازل الجهال فهذا حكم انقسام من يخرج من النار
ويعطى مثل عشرة امثال الدنيا او اكثر ولا يخرج من النار الا موحد ولست اعني بالتوحيد ان يقول

بلسانه لا اله الا الله فان اللسان من عالم الملك والشهادة فلا ينفع الا في عالم الملك فيدفع السيف
عن رقبته وايدي الغانمين عن ماله ومدة الرقبة والمال الحيوة فحيث لا تبقى رقبة ولا مال لا ينفع
القول باللسان وانما ينفع الصدق في التوحيد وكمال التوحيد ان لا يرى الامور كلها الا من الله
عز وجل وعلامته ان لا يغضب على احد من الخلق بما يجري عليه اذ لا يرى الاواسط وانما يرى مسبب
الاسباب كما سياتي تحقيقه في التوكل وهذا التوحيد متفاوت فمن الناس من له التوحيد
مثل الجبال ومنهم من له مثقال ومنهم من له مقدار خردلة وذرة فمن في قلبه مثقال دينار فهو
اول من يخرج من النار وفي الخبر يقال اخرجوا من النار من في قلبه مثقال دينار من ايمان وآخر
من يخرج من النار من في قلبه مثقال ذرة من الايمان وما بين المثقال والذرة على تفاوت درجاتهم
يخرجون بين طبقة المثقال وبين طبقة الذرة والموازنة بالمثقال والذرة على سبيل ضرب
المثل كما ذكرناه من الموازنة بين اعيان الاموال وبين النقود واكثر ما يدخل الموحدين النار
مظالم العباد فديوان العباد هو الديوان الذي لا يترك فاما بقية السيئات فيتسارع العفو
والتكفير اليها ففي الاثر ان العبد ليوقف بين يدي الله تعالى وله من الحسنات امثال الجبال
لو سلمت لكان من اهل الجنة فيقوم اصحاب المظالم فيكون قد سب عرض هذا واخذ مال هذا
وضرب هذا فيقتص من حسناته حتى لا يبقى حسنة فيقول الملائكة يا ربنا قد فنيت حسناته وبقي
طالبون كثير فيقال القوا من سيئاتهم على سيئاته وصكوا له صكا الى النار وكما يهلك هو بسيئة
غيره بطريق القصاص فكذلك ينجو المظلوم بحسنة الظالم اذ تنقل اليه عوضا عما ظلم به وقد
حكي عن ابن الجلاء ان بعض اخوانه اغتابه ثم ارسل اليه يستحله فقال لا افعل ليس في صحيفتي
حسنة افضل منها فكيف امحوها وقال هو وغيره ذنوب اخواني من حسناتي اريد ان ازين
بها صحيفتي فهذا ما اردنا ان نذكره من اختلاف العباد في المعاد في درجات السعادة
والشقاوة والشقاوة وكل ذلك حكم بظاهر الاسباب يضاهي حكم الطبيب على مريض بانه يموت
لا محالة ولا يقبل العلاج وعلى مريض آخر بان عارضه خفيف وعلاجه هين فان ذلك
ظن يصيب في اكثر الاحوال ولكن قد يشوب الى المشرف على الهلاك نفسه من حيث لا يشعر الطبيب
وقد يساق الى ذي العارض الخفيف اجله من حيث لا يطلع عليه وذلك لاسرار الله تعالى
الخفية في ارواح الاحياء وغموض الاسباب التي رتبها مسبب الاسباب بقدر معلوم اذ
ليس في قوة البشر الوقوف على كنهها فكذلك النجاة والفوز في الآخرة لهما اسباب خفية ليس في

قوة البشر الاطلاع عليها يعبر عن ذلك السبب الخفي المفضي الي النجاة بالعفو والرضا وعما يفضي
الهلاك بالغضب والانتقام ووراء ذلك سر المشية الازلية التي لا يطلع الخلق عليها فلذلك يجب علينا
ان نجوز العفو عن العاصي وان كثرت سيآت الظاهرة والغضب علي المطيع وان كثرت طاعاته
الظاهرة فان الاعتماد علي التقوى والتقوى في القلب وهو اغمض من ان يطلع عليه صاحبه
فكيف غيره ولكن قد انكشف لارباب القلوب انه لا عفو عبد الا بسبب خفي فيه يقتضي العفو ولا غضب
الا بسبب باطن يقتضي البعد من الله ولولا ذلك لم يكن العفو والغضب جزاء علي الاعمال والاوصاف
ولو لم يكن جزاء لم يكن عدلا ولو لم يكن عدلا لم يصح قوله تعالى وما ربك بظلام للعبيد ولا قوله ان الله
لا يظلم مثقال ذرة وكل ذلك صحيح فليس للانسان الا ما سعى وسعيه هو الذي يرى وكل نفس
بما كسبت رهينة فلما زاغوا ازاغ الله قلوبهم ولما غيروا انفسهم غير الله ما بهم تحقيقا لقوله تعالى
ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم وهذا كله قد انكشف لارباب القلوب انكشافا اوضح
من المشاهدة بالبصر اذ البصر يمكن الغلط فيه اذ قد يرى البعيد قريبا والكبير صغيرا ومشاهدة
القلب لا يمكن الغلط فيها وانما الشأن في انفتاح بصيرة القلب والا فما ترى بها بعد الانفتاح
فلا يتصور فيه الكذب واليه الاشارة بقوله ما كذب الفؤاد ما رأى الرتبة الثالثة رتبة الناجين
واعني بالنجاة السلامة فقط دون السعادة والفوز وهم قوم لم يخدموا فيخلع عليهم ولم يقصروا
فيعذبوا ويشبه ان يكون هذا حال المجانين والصبيان من الكفار والمعتوهين والذين لم
تبلغهم الدعوة في اطراف البلاد وعاشوا علي البله وعدم المعرفة فلم يكن لهم معرفة ولا جحود
ولا طاعة ولا معصية ولا وسيلة تقربهم ولا جناية تبعدهم فما هم من اهل الجنة ولا من اهل النار
بل ينزلون في منزلة بين المنزلتين ومقام بين المقامين عبر الشرع عنه بالاعراف وحلول
طايفة من الخلق فيه معلوم يقينا من الايات والاخبار ومن انوار الاعتبار فاما الحكم على
التعيين كالحكم مثلا فان الصبيان منهم فهذا مظنون وليس بمستيقن والاطلاع عليه يقينا
في عالم النبوة ويبعد ان يرتقي اليه رتبة العلماء والاولياء والاخبار في حق الصبيان ايضا
متعارضة حتى قالت عايشه رضي الله عنها لما مات بعض الصبيان عصفور من عصافير الجنة
فانكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك وقال ما يدريك فاذا الاشكال والاشتباه اغلب في هذا
المقام الرتبة الرابعة الفايزون وهم العارفون دون المقلدين وهم المقربون السابقون
فان المقلد وان كان له فوز على الجملة بمقام في الجنة فهو من اصحاب اليمين وهولاء هم المقربون

وما يلقى هؤلاء يجاوز حد البيان والقدر الممكن ذكره ما فصله القرآن فليس بعد بيان الله تعالى
بيان والذي لا يمكن التعبير عنه في هذا العالم هو الذي اجمله قوله تع فلا تعلم نفس ما اخفي لهم
من قرة اعين وقوله حكاية عن الله اعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رات ولا اذن سمعت
ولا خطر على قلب بشر والعارفون مطلبهم تلك الحالة التي لا يتصور ان يخطر على قلب بشر في هذا
العالم فاما الحور والقصور والفواكه واللبن والعسل والخمر والحلي والاساور فانهم لا يحرصون
عليها ولو اعطوها لم يقنعوا بها ولا يطلبون الا لذة النظر الى وجه الله تع الكريم فهي غاية السعادات
ونهاية اللذات ولذلك قيل لرابعة العدوية رحمها الله كيف رغبتك في الجنة فقالت الجار ثم
الدار فهؤلاء قوم شغلهم حب رب الدار عن الدار وزينتها بل عن كل شيء سواه حتى عن انفسهم
ومثالهم مثال العاشق المستهتر بمعشوقه المستوفي همه بالنظر الى وجهه او الفكر فيه فانه
في حال الاستغراق غافل عن نفسه لا يحس بما يصيبه في بدنه ويعبر عن هذه الحالة بانه
فني عن نفسه ومعناه انه صار مستغرقا بغيره وصارت همومه هما واحدا وهو محبوبه ولم يبق فيه
متسع لغير محبوبه حتى يلتفت اليه لا نفسه ولا غير نفسه وهذه الحالة التي توصل في الاخرة
الى قرة عين لا يتصور ان تخطر في هذا العالم على قلب بشر كما لا يتصور ان يخطر صورة الالوان
والالحان على قلب الاصم والاكمه الى ان يرفع الحجاب عن سمعه وبصره فعند ذلك يدرك حاله
ويعلم قطعا انه لم يتصور ان يخطر بباله قبل ذلك صورته فالدنيا حجاب على التحقيق وبرفعه
ينكشف فعند ذلك يدرك ذوق الحيوة الطيبة وان الدار الاخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون
فهذا القدر كاف في بيان توزع الدرجات على الحسنات بيان ما يعظم به الصغائر
من الذنوب اعلم ان الصغيرة تكبر باسباب منها الاصرار والمواظبة ولذلك قيل لا صغيرة
مع اصرار ولا كبيرة مع استغفار فكبيرة واحدة تنصرم ولا يتبعها مثلها لو تصور ذلك كان العفو
عنها ارجى من صغيرة يواظب العبد عليها ومثال ذلك قطرات من الماء تقع على الحجر
على توال فتؤثر فيه وذلك القدر من الماء لو صب عليه دفعة لم تؤثر ولذلك قال رسول الله صلعم
خير الاعمال ادومها وان قل والاشياء تستبين باضدادها فاذا كان النافع من العمل هو
الدائم وان قل فالكثير المنصرم قليل النفع في تنوير القلب وتطهيره فكذلك القليل من السيئات
اذا دام عظم تاثيره في اظلام القلب الا ان الكبيرة قلما يتصور الهجوم عليها بغتة من غير سوابق
ولواحق من جملة الصغائر فقلما يزني الزاني بغتة من غير مراودة ومقدمات وقلما يقتل

نفسه من غير مناصحة سابقة ومعاداة سالفة فكل كبيرة تكتنفها صغائر سابقة ولاحقة
ولو تصورت كبيرة وحدها بغتة ولم يتفق اليها عود ربما كان العفو فيها ارجى من صغيرة
واظب الانسان عليها عمره ومنها ان يستصغر الذنب فان الذنب كلما استعظمه العبد
من نفسه صغر عند الله وكلما استصغره كبر عند الله لان استعظامه يصدر عن نفور القلب
وكراهيته وذلك النفور يمنع من شدة تاثره به واستصغاره يصدر عن الالفة به وذلك يوجب
شدة الاثر في القلب والقلب هو المطلوب تنويره بالطاعات والمحذور تسويده بالسيئات
ولذلك لا يؤاخذ بما يجري عليه في الغفلة وقد جاء في الخبر المؤمن يرى ذنبه كالجبل فوقه
يخاف ان يقع عليه والمنافق يرى ذنبه كذباب مر على انفه فاطاره وقال بعضهم الذنب
الذي لا يغفر قول العبد ليت كل شيء عملته مثل هذا وانما يعظم الذنوب في قلب المؤمن لعلمه
بجلال الله فاذا نظر الى عظم من عصى به راى الصغير كبيرا وقد اوحى الله تعالى الى بعض انبيائه
لا تنظر الى قلة الهدية وانظر الى عظم مهديها ولا تنظر الى صغر الخطيئة وانظر الى كبرياء من
واجهته وبهذا الاعتبار قال بعض العارفين لا صغيرة بل كل مخالفة فهي كبيرة ولذلك
قال بعض الصحابة رضي الله عنهم للتابعين رحمهم الله انكم لتعملون اعمالا هي ادق في اعينكم
من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الموبقات اذ كانت معرفة
الصحابة اتم وكانت الصغائر عندهم بالاضافة الى جلال الله كبائر وبهذا السبب يعظم
من العالم ما لا يعظم من الجاهل ويتجاوز من العامي في امور لا يتجاوز عن العارف في امثالها
لان الذنب والمخالفة يكبر بقدر معرفة قدر المخالف ومنها السرور بالصغيرة والفرح والتبجح بها
واعتداد التمكن من ذلك نعمة والغفلة عن كونه سبب الشقاوة فكلما غلبت حلاوة الصغيرة
عند العبد كبرت الصغيرة وعظم اثرها في تسويد القلب حتى ان من المذنبين من يتمدح بذنبه
ويتبجح به لشدة فرحه بمقارفته اياه كما يقول اما رايتني كيف مزقت عرضه ويقول المناظر
في مناظرته اما رايتني كيف فضحته وكيف ذكرت مساويه حتى اخجلته وكيف استخففت به
وكيف لبست عليه ويقول المعامل في تجارته اما رايت كيف روجت عليه الزيف وكيف
خدعته وكيف غبنته في ماله وكيف استحمقته فهذا وامثاله تكبر به الصغائر فان الذنوب
مهلكات واذا دفع اليها العبد وظفر الشيطان به في الحمل عليها فينبغي ان يكون في مصيبة
وتاسف بسبب غلبة العدو عليه وبسبب بعده من الله تعالى فالمريض الذي يفرح بان ينكسر

اناؤه الذي فيه دواء حتى يتخلص من الم الشهوة لا يرجى شفاؤه ومنها ان يتهاون بستر الله
عليه وحلمه عنه وامهاله اياه ولا يدري انه انما يمهل ليزداد بالامهال اثما فيظن ان تمكينه
من المعاصي عناية من الله تعالي به فيكون ذلك لامنه من مكر الله تعالي وجهله بمكامن الغرور
بالله تعالي كما قال تعالي ويقولون في انفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها
وبئس المصير ومنها ان ياتي الذنب ويظهره بان يذكره بعد اتيانه او ياتيه في مشهد غيره فان
ذلك منه جناية على ستر الله تعالي الذي اسدله عليه لرغبة الشر فيمن اسمعه ذنبه او اشهده فعله
فهما جنايتان انضمتا الي جنايته فغلظت به فان انضاف الي ذلك الترغيب للغير فيه والحمل
عليه وتهيئة الاسباب له صارت جناية رابعة وتفاحش الامر وفي الخبر كل الناس معافى
الا المجاهرين يبيت احدهم على ذنب قد ستره الله عليه فيصبح فيكشف ستر الله عليه ويتحدث عنه
وهذا لان من صفات الله ونعمه انه يظهر الجميل ويستر القبيح ولا يهتك الستر فالاظهار كفران
لهذه النعمة وقال بعضهم لا تذنب فان كان ولابد فلا ترغب غيرك فيه فتذنب ذنبين ولذلك
قال تعالي والمنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يامرون بالمنكر وينهون عن المعروف
وقال بعض السلف ما انتهك المرء من اخيه حرمة اعظم من ان يساعده على معصية ثم يهونها
عليه ومنها ان يكون المذنب عالما يقتدي به فاذا فعله بحيث يرى ذلك منه كبر ذنبه كلبس
العالم الابريسم وركوبه مراكب الذهب واخذه مال الشبهة من اموال السلاطين ودخوله
على السلاطين وتردده اليهم ومساعدته اياهم بترك الانكار عليهم واطلاق اللسان في الاعراض
والتعدي باللسان في المناظرة وقصده الاستخفاف واشتغاله من العلوم بما لا يقصد منه الا
الجاه كعلم الجدل والمناظرة فهذه ذنوب يتبع العالم عليها فيموت العالم ويبقى شره مستطيرا
في العالم آمادا متطاولة وطوبى لمن اذا مات ماتت معه ذنوبه وفي الخبر من سن سنة سيئة
فعليه وزرها ووزر من عمل بها لا ينقص من اوزارهم شيء وقال تعالي ونكتب ما قدموا وآثارهم
والآثار ما يلحق من الاعمال بعد انقضاء العمل والعامل وقال ابن عباس رضي الله عنه ويل للعالم
من الاتباع يزل زلة فيرجع عنها ويحملها الناس فيذهبون بها في الآفاق وقال بعضهم مثل
زلة العالم مثل انكسار السفينة تغرق ويغرق اهلها وفي الاسرائيليات ان عالما كان يضل
الناس بالبدعة ثم ادركته توبة فعمل في الاصلاح دهرا فاوحى الله تعالي الي نبيهم قل له ان ذنبك
لو كان فيما بيني وبينك لغفرته لك ولكن كيف بمن اضللت من عبادي فادخلتهم النار فهذا

يتضح ان امر العلماء مخطر فعليهم وظيفتان احديهما ترك الذنب والاخرى اخفاؤه وكما يتضاعف
اوزارهم على الذنوب فكذلك يتضاعف ثوابهم على الحسنات اذا اتبعوا فاذا ترك التجمل والميل
الى الدنيا وقنع منها باليسير ومن الطعام بالقوت ومن الكسوة بالخلق فيتبع عليه ويقتدي
به العلماء والعوام فيكون له مثل ثوابهم وان مال الى التجمل مال الطباع ممن دونه الى التشبه به
ولا يقدرون على التجمل الا بخدمة السلطان وجمع حطام من الحرام ويكون هو السبب في جميع
ذلك فحركات العلماء في طرفي الزيادة والنقصان تتضاعف آثارها اما بالربح واما بالخسران
وهذا القدر كاف في تفاصيل الذنوب التي تكون التوبة توبة عنها الركن الثاني في تمام
التوبة وشروطها في دوامها الى آخر العمر قد ذكرنا ان التوبة عبارة عن ندم يورث عزما وقصدا
وذلك الندم اورثه العلم بكون المعاصي حايلة بينه وبين محبوبه ولكل واحد من العلم والندم
والعزم دوام وتمام ولتمامها علامة ولدوامها شرط فلا بد من بيانها اما العلم فالنظر فيه نظر
في سبب التوبة وسياتي واما الندم فهو توجع القلب عند شعوره بفوات المحبوب وعلامته
طول الحسرة والحزن وانسكاب الدمع وطول البكاء فمن استشعر عقوبة نازلة بولده او بعض
اعزته طال عليه مصيبته وبكاؤه واي عزيز اعز عليه من نفسه واي عقوبة اشد عليه من
النار واي سبب ادل على نزول العقوبة من المعاصي واي مخبر اصدق من الله ورسوله ولو حدثه
انسان واحد يسمى طبيبا ان ولده المريض لا يبرا وانه سيموت منه طال في الحال حزنه فليس
ولده باعز من نفسه ولا الطبيب باعلم ولا اصدق من الله تعالى ورسوله ولا الموت باشد
من النار ولا المرض ادل على الموت من المعاصي على سخط الله تعالى والتعرض بها للنار فالم الندم
كلما كان اشد كان تكفير الذنوب به ارجى فعلامة صحة الندم رقة القلب وغزارة الدمع وفي
الخبر جالسوا التوابين فانهم ارق افيدة ومن علامته ان تتمكن مرارة تلك الذنوب في قلبه
بدلا عن حلاوتها فيستبدل بالميل كراهة وبالرغبة نفرة وفي الاسرائيليات ان الله تعالى
قال لبعض انبيائه عليهم السلم وقد ساله النبي صلى الله عليه وسلم قبول توبة عبد بعد ان اجتهد
سنين في العبادة ولم ير اثر قبول توبته فقال وعزتي لو شفع فيه اهل السموات والارض ما
قبلت توبته وحلاوة ذلك الذنب الذي تاب منه في قلبه فان قلت فالذنوب هي افعال
مشتهاة بالطبع فكيف يجد مرارتها فاقول من يجد عسلا كان فيه سم فتناوله ولم يدركه
بالذوق واستلذه ثم مرض وطال المه وتناثر شعره وفلجت اعضاؤه فاذا قدم اليه عسل فيه

مثل ذلك السم وهو في غاية الجوع والشهوة للحلاوة فهل تنفر نفسه عن ذلك العسل ام لا فان
قلت لا فهو جحد للمشاهدة بل ربما ينفر عن العسل الذي ليس فيه سم ايضا لشبهه به فوجدان
التائب مرارة الذنب كذلك يكون وذلك لعلمه بان كل ذنب فذوقه ذوق العسل وعمله عمل
السم ولا تصح التوبة ولا تصدق الا بمثل هذا الايمان ولما عز مثل هذا الايمان عزت التوبة
والتائبون فلا ترى الا معرضا عن الله تعالى متهاونا بالذنوب مصرا عليها فهذا شرط تمام
الندم وينبغي ان يدوم الى الموت وينبغي ان يجد هذه المرارة في جميع الذنوب وان لم يكن قد
ارتكبها من قبل كما يجد متناول السم في العسل النفرة من الماء البارد مهما علم ان فيه مثل
ذلك السم اذ لم يكن ضرره في العسل بل مما فيه ولم يكن ضرر التائب من سرقته وزناه من
حيث انه سرقة وزنا بل من مخالفة امر الله وذلك جار في كل ذنب واما القصد الذي ينبعث
منه وهو ارادة التدارك فله تعلق بالحال وهو موجب ترك كل محظور هو ملابس له واداء كل
فرض هو متوجه عليه في الحال وله تعلق بالماضي وهو تدارك ما فرط فيه وبالمستقبل وهو دوام
الطاعة ودوام ترك المعصية الى الموت وشرط صحته فيما يتعلق بالماضي ان يرد فكره الى اول
يوم بلغ فيه بالسن او الاحتلام ويفتش عما مضى من عمره سنة سنة وشهرا شهرا ويوما يوما
ونفسا نفسا وينظر الى الطاعات ما الذي قصر فيه منها والى المعاصي ما الذي قارفه منها
فان كان قد ترك صلاة او صلاها مع ثوب نجس او صلاها بنية غير صحيحة لجهله بشرط
النية قضاها عن آخرها فان شك في عدد ما فاته منها حسب من مدة بلوغه وترك القدر
الذي يستيقن انه اداه ويقضي الباقي وله ان ياخذ فيه بغالب الظن ويصل اليه على سبيل
التحري والاجتهاد واما الصوم فان كان قد تركه في سفر او مرض ولم يقضه او افطر عمدا
او نسي النية بالليل ولم يقض فليتعرف مجموع ذلك بالتحري والاجتهاد وليشتغل بقضائه
واما الزكوة فيحسب جميع ماله وعدد السنين من اول ملكه لا من زمان بلوغه فان الزكوة
واجبة على الصبي فيؤدي ما علم بغالب الظن انه في ذمته وان اداه لا على وجه يوافق مذهبه
بان لم يصرفها الى الاصناف الثمانية او اخرج البدل وهو على مذهب الشافعي فيقضي جميع
ذلك فان ذلك لا يجزئه اصلا وحساب الزكوة ومعرفة ذلك يطول ويحتاج فيه الى تامل شاف
ويلزمه ان يسال عن كيفية الخروج عنه من العلماء واما الحج فان كان قد استطاع في
بعض السنين ولم يتفق له الخروج والآن قد افلس فعليه الخروج فان لم يقدر مع الافلاس فعليه

الخروج فان لم يقدر مع الافلاس فعليه ان يكتسب من الحلال قدر الزاد فان لم يكن له كسب ولا
مال فعليه ان يسال الناس ليصرف اليه من الزكوات والصدقات ما يحج به فانه ان مات
قبل الحج مات عاصيا قال صلى الله عليه وسلم من مات ولم يحج فليمت ان شاء يهوديا وان شاء
نصرانيا والعجز الطاري بعد القدرة لا يسقط عنه الحج فهذا طريق تفتيشه عن الطاعات
وتداركها واما المعاصي فينبغي ان يفتش من اول بلوغه عن سمعه وبصره ولسانه وبطنه
ويده ورجله وفرجه وساير جوارحه ثم ينظر في جميع ايامه وساعاته ويفصل عند نفسه ديوان
معاصيه حتى يطلع على جميعها صغارها وكبارها ثم ينظر فيها فما كان من ذلك بينه وبين
الله تعالى من حيث انه مما لا يتعلق بمظالم العباد كالنظر الى غير محرم وقعود في مسجد مع الجنابة
ومس مصحف بغير وضوء واعتقاد بدعة وشرب خمر وسماع ملاهي وغير ذلك مما لا يتعلق بمظالم
العباد فالتوبة عنها بالندم والتحسر عليها وبان يحسب مقدارها من حيث الكثرة ومن حيث
المدة ويطلب لكل معصية منها حسنة تناسبها فياتي من الحسنات بمقدار تلك السيئات
اخذا من قوله صلى الله عليه وسلم اتق الله حيث كنت واتبع السيئة الحسنة تمحها بل من قوله تعالى
ان الحسنات يذهبن السيئات فيكفر سماع الملاهي بسماع القرآن وبمجالس الذكر ويكفر
القعود في المسجد جنبا بالاعتكاف فيه مع الاشتغال بالعبادة ويكفر مس المصحف محدثا
باكرام المصحف وكثرة قراءة القرآن منه وكثرة تقبيله وبان يكتب مصحفا ويجعله وقفا ويكفر
شرب الخمر بالتصدق بكل شراب حلال هو اطيب عنده واحب اليه وعد جميع المعاصي غير ممكن
وانما المقصود سلوك طريق المضادة فان المرض يعالج بضده وكل ظلمة ارتفعت الى القلب
بمعصية فلا يمحوها الا نور يرتفع اليها بحسنة تضادها والمتضادات هي المتناسبات فلذلك
ينبغي ان يمحو كل سيئة بحسنة من جنسها لكي يضادها فان البياض يزال بالسواد لا بالحرارة
والبرودة وهذا التدريج والتحقيق من التلطف في طريق المحو فالرجاء فيه اصدق والثقة به
اكثر من ان يواظب على نوع واحد من العبادات وان كان ذلك ايضا موثرا في المحو فهذا حكم
ما بينه وبين الله تعالى ويدل على ان الشيء يكفر بضده ان حب الدنيا راس كل خطيئة واثر اتباع
الدنيا في القلب السرور بها والالفة لها والحنين اليها فلاجرم فان كل اذى يصيب المسلم بنبوّ
بسببه قلبه عن الدنيا يكون كفارة له اذ القلب يتجافى بالهموم والغموم عن دار الهموم وفي
لفظ آخر الا الهم بطلب المعيشة وفي حديث عايشة رضي الله عنها اذا كثرت ذنوب العبد ولم يكن

لا اعمال يكفرها سلط الله تعالى عليه الغموم فتكون كفارة لذنوبه ويقال ان الهم الذي يدخل على
القلب والعبد لا يعرفه هو ظلمة الذنوب والهم بها وشعور القلب بوقفة الحساب وهول المطلع
فان قلت هم الانسان غالبا بماله وولده وجاهه وهو خطيئة فكيف يكون كفارة فاعلم ان الحب
له خطيئة والحرمان عنه كفارة ولو تمتع به لتمت الخطيئة فقد روي ان جبرئيل عليه السلم دخل على
يوسف عليه السلم في السجن فقال له كيف تركت ذلك الشيخ الكبير الكئيب فقال قد حزن عليك
حزن مائة ثكلى قال فما له عند الله قال اجر مائة شهيد فاذا الهموم ايضا مكفرات حقوق الله تعالى
فهذا حكم ما بينه وبين الله تعالى واما مظالم العباد ففيها ايضا معصية وجناية على حق الله
فان الله تعالى نهى عن ظلم العباد ايضا فما يتعلق منه بحق الله تداركه بالندم والتحسر وترك مثله
في المستقبل والاتيان بالحسنة التي هي ضدها فيقابل ايذاء الناس بالاحسان اليهم ويكفر
غصبه اموالهم بالتصدق بملكه الحلال ويكفر تناول اعراضهم بالغيبة والقدح بالثناء على اهل
الدين واظهار ما يعرف من خصال الخير من اقرانه وامثاله ويكفر قتل النفوس باعتاق الرقاب لان
ذلك احياء لان العبد مفقود لنفسه موجود لسيده فالاعتاق ايجاد لا يقدر الانسان على اكثر منه
فيقابل الاعدام بالايجاد وبهذا يعرف ان ما ذكرناه من سلوك طريق المضادة في التكفير والمحو
مشهود له في الشرع حيث ورد تكفير القتل باعتاق رقبة ثم اذا فعل ذلك كله لم ينجه ولم يكفه
ما لم يخرج عن مظالم العباد ومظالم العباد اما في النفوس او الاموال او الاعراض او القلوب اعني به
الايذاء المحض اما النفوس فان جرى عليه قتل فتوبته بتسليم الدية ووصولها الى المستحق اما
منه او من عاقلته وهو في عهدة ذلك قبل الوصول وان كان عمدا موجبا للقصاص فبالقصاص
فان لم يعرف ذلك ولي الدم وجب عليه ان يعترف به عنده ويحكمه في روحه فان شاء عفا عنه وان
شاء قتله ولا يسقط عهدته الا بهذا ولا يجوز له الاخفاء وليس هذا كما لو زنا او شرب او سرق او قطع
الطريق او باشر ما يجب فيه حد الله تعالى فانه لا يلزمه في التوبة ان يفضح نفسه ويهتك ستره ويلتمس
من الوالي استيفاء حق الله تعالى بل عليه ان يتستر بستر الله ويقيم حد الله على نفسه بانواع المجاهدة
والتعذيب فالعفو في محض حقوق الله قريب من التائبين والنادمين فان رفع امره الى الوالي
حتى يقيم عليه الحد وقع موقعه ويكون توبته صحيحة مقبولة عند الله بدليل ما روي ان ماعز بن
مالك رضي الله عنه اتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله اني قد ظلمت نفسي وزنيت
واني اريد ان تطهرني فرده فلما كان من الغد اتاه فقال يا رسول الله اني قد زنيت فرده الثانية

والثالثة فلما كان في الرابعة حفر له حفرة ثم امر به فرجم فكان الناس فيه فرقتين فقائل يقول
لقد هلك لقد احاطت به خطيئته وقائل يقول ما توبة افضل من توبة ماعز فقال رسول الله صلى الله
عليه وسلم لقد تاب توبة لو قسمت بين امة لوسعتهم وجاءت الغامدية رضي الله عنها وقالت
يا رسول الله اني قد زنيت فطهرني وانه ردها فلما كان الغد قالت يا رسول الله لم تردني تريد ان
تردني كما رددت ماعزا فوالله اني حبلى فقال اما الآن فاذهبي حتى تلدي فلما ولدت اتت بالصبي
في خرقة فقالت هذا قد ولدته قال اذهبي فارضعيه حتى تفطميه فلما فطمته اتت بالصبي وفي
يده كسرة خبز فقالت هذا يا نبي الله قد فطمته وقد اكل الطعام فدفع الصبي الى رجل من المسلمين
ثم امر بها فحفر لها الى صدرها وامر الناس فرجموها فاقبل خالد بن الوليد بحجر فرمى راسها
فنضح الدم على وجه خالد فسبها فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبه اياها فقال مهلا يا خالد
فوالذي نفسي بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له ثم امر بها فصلى عليها ودفنت
واما القصاص وحد القذف فلابد من تحكيم المستحق فيه وان كان المتناول مالا تناوله
بغصب او خيانة او غبن في معاملة بنوع تلبيس كترويج زائف او ستر عيب من المبيع او نقص
اجرة اجير او منع اجرته فكل ذلك يجب ان يفتش عنه لا من حد بلوغه بل من اول مدة وجوده
فان ما يجب في مال الصبي يجب على الصبي اخراجه بعد البلوغ ان كان الولي قد قصر فيه
فان لم يفعل كان ظالما ويكون مطالبا به في القيمة اذ يستوي في الحقوق المالية الصبي والبالغ
وليحاسب نفسه على الحبات والذرات من اول يوم حياته الى يوم توبته قبل ان يحاسب
في القيمة وليناقش قبل ان يناقش فمن لم يحاسب نفسه في الدنيا طال في الآخرة حسابه
فاذا حصل مجموع ما عليه بظن غالب ونوع من الاجتهاد ممكن فليكتبه وليكتب اسامي اصحاب
المظالم واحدا واحدا وليطف في نواحي العالم وليستحلهم او ليؤد حقوقهم وهذه التوبة تشق على
الظلمة وعلى التجار فانهم لا يقدرون على طلب المعاملين كلهم ولا على طلب ورثتهم ولكن على كل
واحد منهم ان يفعل ما يقدر عليه فان عجز فلا يبقى له طريق الا ان يكثر من الحسنات حتى تفيض
منه يوم القيمة فتؤخذ حسناته وتوضع في موازين ارباب المظالم وليكن كثرة حسناته بقدر كثرة
مظالمه فانه ان لم يف بها حسناته حمل من سيئات ارباب المظالم فيهلك بسيئات غيره فهذا طريق
كل تائب في رد المظالم وهذا يوجب استغراق العمر في الحسنات لو طال العمر بحسب طول مدة
المظالم كيف وذلك مما لا يعرف وربما يكون الاجل قريبا فينبغي ان يكون تشمره للحسنات والوقت

ضيق اشد من تشمره الذي كان في المعاصي في متسع الاوقات هذا حكم المظالم الثابتة
في ذمته اما اموال الحاضرة فليرد الى المالك ما يعرف له مالكا معينا وما لا يعرف له مالكا
فعليه ان يتصدق به فان اختلط الحرام بالحلال عرف قدر الحرام بالاجتهاد وتصدق
بذلك المقدار كما سبق تفصيله في كتاب الحلال والحرام واما الجناية على القلوب بمشافهة
الناس بما يسوءهم او تعييبهم في الغيبة فليطلب من كل من تعرض له بلسانه او آذى
قلبه بفعل من افعاله وليستحل واحدا واحدا منهم ومن مات او غاب فقد فات
امره ولا يتدارك الا بتكثير الحسنات لتوخذ عوضا في القيمة واما من وجده واحله بطيب
قلب منه فذلك كفارته وعليه ان يعرفه قدر جنايته ويعرضه لها فالاستحلال المبهم لا يكفي
فربما لو عرف ذلك وكثرة تعديه عليه لم تطب نفسه بالاحلال وادخر ذلك في القيمة ذخيرة
ياخذها من حسناته او يحمله من سيآته فان كان في جملة جناياته على الغير ما لو ذكره وعرفه
لتاذى بمعرفته كزناه بجاريته او اهله او نسبته باللسان الى عيب من خفايا عيوبه
يعظم اذاه مهما شافهه فقد انسد طريق الاستحلال فليس له الا ان يستحل مهما ثم تبقى له مظلمة
الميت والغايب فاما الذكر والتعريف فهو سيئة جديدة يجب الاستحلال منها ومهما ذكر جنايته
وعرفه المجني عليه فلم تسمح نفسه بالاحلال بقيت المظلمة عليه فان هذا حقه فعليه ان
يتلطف به ويسعى في مهماته واغراضه ويظهر من حبه والشفقة عليه ما يستميل به قلبه فان
الانسان عبد الاحسان وكل من نفر بسيئته مال بحسنة فاذا طاب قلبه بكثرة تودده وتلطفه
سمحت نفسه بالاحلال فان ابى الا الاصرار فينبغي ان يكون تلطفه به واعتذاره اليه من
جملة حسناته التي يمكن ان يجبر بها في القيمة جنايته وليكن قدر سعيه في فرحه وسرور قلبه
بتودده وتلطفه كقدر سعيه في ايذايه حتى اذا قاوم احدهما الاخر وزاد عليه اخذ ذلك
منه عوضا في القيمة بحكم الله به عليه كمن اتلف في الدنيا مالا فجاء بمثله فامتنع من له عن القبول
وعن الابراء فان الحاكم يحكم عليه بالقبض منه شاء ام ابى فكذلك يحكم في صعيد القيمة احكم
الحاكمين واعدل العادلين المقسطين وفي المتفق عليه من الصحيحين عن ابي سعيد الخدري
رضي الله عنه ان نبي الله صلى الله عليه وسلم قال كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسا فسال
عن اعلم اهل الارض فدل على راهب فاتاه فقال انه قتل تسعة وتسعين نفسا فهل له من
توبة فقال لا فقتله فكمل به مائة ثم سال عن اعلم اهل الارض فدل على رجل عالم فقال انه قتل

مائة نفس فهل له من توبة قال نعم ومن يحول بينه وبين التوبة انطلق الى ارض كذا وكذا
فان بها اناسا يعبدون الله تعالى فاعبد الله معهم ولا ترجع الى ارضك فانها ارض سوء
فانطلق حتى اذا انتصف الطريق اتاه الموت فاختصمت فيه ملايكة الرحمة وملايكة العذاب
فقالت ملايكة الرحمة جاء تائبا مقبلا بقلبه الى الله تعالى وقالت ملايكة العذاب انه لم يعمل
خيرا قط فاتاهم ملك في صورة آدمي فجعلوه حكما بينهم فقال قيسوا ما بين الارضين فالى
ايتهما كان ادنى فهو له فقاسوا فوجدوه ادنى الى الارض التي اراد فقبضته ملايكة الرحمة
وفي رواية فكان الى القرية الصالحة اقرب منها بشبر فجعل من اهلها وفي رواية فكان
الى القرية فاوحى الله تعالى الى هذه ان تباعدي والى هذه ان تقربي وقال قيسوا ما
بينهما فوجدوه الى هذه اقرب بشبر فغفر له فبهذا يعرف انه لا خلاص الا برجحان ميزان الحسنات
ولو بمثقال فلا بد للتائب من تكثير الحسنات هذا حكم القصد المتعلق بالماضي فاما العزم
المرتبط بالاستقبال فهو ان يعقد مع الله عقدا موكدا ويعاهده بعهد وثيق ان لا
يعود الى تلك الذنوب والى امثالها كالذي يعلم في مرضه ان الفاكهة تضره مثلا فيعزم
عزما جزما انه لا يتناول الفاكهة ما لم يزل مرضه فان هذا العزم يتاكد في الحال
وان كان يتصور ان تغلبه الشهوة في ثاني الحال ولكن لا يكون تائبا ما لم يتاكد عزمه في
الحال ولا يتصور ان يتم ذلك التائب في اول امره الا بالعزلة والصمت وقلة الاكل والنوم
واحراز قوت حلال فان كان له مال موروث حلال او كانت له حرفة يكتسب بها قدر
الكفاية فليقتصر عليه فان راس المعاصي اكل الحرام فكيف يكون تائبا مع الاصرار عليه
ولا يكتفي بالحلال وترك الشبهات من لا يقدر على ترك الشهوات في الماكولات والملبس
وقال بعضهم من صدق في ترك شهوة وجاهد نفسه لله سبع مرات لم يبتل بها وقال
آخر من تاب من ذنب واستقام عليه سبع سنين لم يعد اليه ابدا ومن مهمات التائب
اذا لم يكن عالما ان يتعلم ما يجب عليه في المستقبل وما يحرم عليه حتى يمكنه الاستقامة
وان لم يوثر العزلة لم يتم له الاستقامة المطلقة الا ان يتوب عن بعض الذنوب كالذي
يتوب عن الزنا والشرب والغصب مثلا وليس هذه توبة مطلقة وقد قال بعض الناس
ان هذه التوبة لا تصح وقال قائلون تصح ولفظ الصحة في هذا المقام مجمل بل نقول
لمن قال لا تصح ان عنيت به ان تركه بعض الذنوب لا يفيد اصلا بل وجوده كعدمه فما

٦٥٢

اعظم خطاك فانا نعلم ان كثرة الذنوب سبب لكثرة العقاب وقلتها سبب لقلته ونقول لمن قال تصح ان اردت ان التوبة عن بعض الذنوب توجب قبولا يوصل الى النجاة والفوز فهذا ايضا خطا بل النجاة والفوز بترك الجميع هذا حكم الظاهر ولسنا نتكلم في خفايا اسرار عفو الله وان قال من ذهب الى انه لا تصح انى اردت به ان التوبة عبارة عن الندم وانما يندم على السرقة مثلا لكونها معصية لا لكونها سرقة ويستحيل ان يندم عليها دون الزنا ان كان توجعه لاجل المعصية فان العلة شاملة لهما اذ من يتوجع على ولده بالسيف يتوجع على قتله بالسكين لان توجعه بفوات محبوبه سواء كان بالسيف او بالسكين فكذلك توجع العبد بفوات محبوبه وذلك بالمعصية سواء عصى بالسرقة او بالزنا فكيف يتوجع على البعض دون البعض فالندم حالة توجبها العلم بكون المعصية مفوتا للمحبوب من حيث انها معصية فلا يتصور ان يكون على بعض المعاصي دون بعض ولو جاز هذا لجاز ان يتوب من شرب الخمر من احد الدنين دون الآخر فاذا استحال ذلك من حيث ان المعصية في الخمرين واحدة وانما الدنان ظروف فكذلك اعيان المعاصي آلات للمعصية والمعصية من حيث مخالفة الامر فاذا معنى عدم الصحة ان الله تعالى وعد للتائبين رتبة تلك الرتبة لا تنال الا بالندم ولا يتصور الندم على بعض المماثلات فهو كالملك المرتب على الايجاب والقبول فانه اذا لم يتم الايجاب والقبول يقال ان العقد لم يصح اي لا يترتب عليه الثمرة وهو الملك وتحقيق هذا ان ثمرة مجرد الترك ان ينقطع عنه عقاب ما تركه وثمرة الندم تكفير ما سبق وترك السرقة لا يكفر السرقة بل الندم عليها ولا يتصور الندم الا لكونه معصية وذلك يعم جميع المعاصي وهذا كلام مفهوم واقع نستنطق المصنف بتفصيل به ينكشف الغطاء فنقول التوبة عن بعض الذنوب لا يخلو اما ان يكون عن الكباير دون الصغاير او عن الصغاير دون الكباير او عن كبيرة دون كبيرة اما التوبة عن الكباير دون الصغاير فممكن لانه يعلم ان الكباير اعظم عند الله تعالى واجلب لسخط الله عز وجل ومقته والصغاير اقرب الى تطرق العفو اليه فلا يستحيل ان يتوب عن الاعظم ويتندم عليه كالذي يجني على اهل الملك وحرمه ويجني على دابته فيكون خايفا من الجناية على الاهل مستحقرا للجناية على الدابة والندم بحسب استعظام الذنب واعتقاد كونه مبعدا عن الله وهذا ممكن وجوده في الشرع فقد كثر التائبون في الاعصار ولم يكن احد منهم معصوما فلا تستدعي التوبة العصمة والطبيب قد يحذر المريض العسل تحذيرا شديدا ويحذره السكر تحذيرا اخف منه على وجه يشعر معه بانه ربما لا يظهر ضرر السكر اصلا فيتوب فيتوب المريض بقوله عن العسل دون السكر فهذا غير محال وجوده وان اكلهما جميعا بحكم شهوته

ندم على اكل العسل دون السكر الثاني ان يتوب عن بعض الكباير دون بعض وهذا ايضا ممكن لاعتقاده
ان بعض الكباير اشد واغلظ عند الله كالذي يتوب عن القتل والنهب والظلم ومظالم العباد لعلمه
بان ديوان العباد لا يترك وما بينه وبين الله يتسارع اليه العفو فهذا ايضا ممكن كما في تفاوت الصغاير
والكباير لان الكباير ايضا متفاوتة في انفسها وفي اعتقاد مرتكبها ولذلك قد يتوب عن بعض الكباير
التي لا يتعلق بالعباد كما يتوب عن شرب الخمر دون الزنا مثلا اذ يتضح له ان الخمر مفتاح الشرور
وانه اذا زال العقل ارتكب المعاصي وهو لا يدري فبحسب ترجح شرب الخمر عنده ينبعث منه خوف
يوجب ذلك تركا في المستقبل وندما على الماضي الثالث ان يتوب عن صغيرة او صغاير وهو مصر على
كبيرة يعلم انها كبيرة كالذي يتوب عن الغيبة او عن النظر الى غير المحرم وما يجري مجراه وهو مصر على
شرب الخمر وهو ايضا ممكن ووجه امكانه انه ما من مؤمن الا وهو خايف على معاصيه ونادم على
فعله ندما اما ضعيفا واما قويا ولكن يكون لذة نفسه في تلك المعصية اقوى من الم قلبه في الخوف
منها لاسباب توجب ضعف الخوف من الجهل والغفلة واسباب توجب قوة الشهوة فيكون الندم
موجودا ولكن لا يكون مليا بتحريك العزم ولا قويا عليه فان سلم عن شهوة اقوى منه بل لم يعارضه الا ما هو
اضعف قهر الخوف الشهوة وغلبها واوجب ذلك ترك المعصية وقد يشتد ضراوة الفاسق بالخمر فلا يقدر
على الصبر عنه ويكون له ضراوة ما بالغيبة وثلب الناس والنظر الى غير المحرم وخوفه من الله تعالى
قد يبلغ مبلغا يقمع هذه الشهوة الضعيفة دون القوية فيوجب عليه جند الخوف انبعاث
العزم للترك بل يقول هذا الفاسق في نفسه ان قهرني الشيطان بواسطة غلبة الشهوة
في بعض المعاصي فلم ينبغي انا اخلع العذار وارخي العنان بالكلية بل اجاهده في بعض المعاصي
فلم ينبغي ان اخلع العذار وارخي العنان بالكلية بل اجاهده في بعض المعاصي فعسى ان
اغلبه فيكون قهري له في البعض كفارة لبعض ذنوبي ولو لم يتصور هذا لما تصور من الفاسق ان
يصلي ويصوم ويقال له ان كانت صلوتك لغير الله فلا تصح وان كانت لله فاترك الفسق لله فان امر
الله فيهما واحد فلا يتصور ان يقصد بذلك التقرب الى الله تعالى ما لم يتقرب بترك الفسق وهذا
محال بل يقول لله علي امران ولي على المخالفة فيهما عقوبتان وانا ملي في احدهما بقهر الشيطان
عاجز عنه في الاخر فاقهره فيما اقدر عليه وارجو بمجاهدتي فيه ان يكفر عني ما عجزت عنه بفرط
شهوتي فكيف لا يتصور هذا وهو حال كل مسلم اذ لا مسلم الا وهو جامع بين طاعة ومعصية ولا
سبب له الا هذا واذا فهم هذا ان غلبة الخوف للشهوة في بعض الذنوب ممكن وجوده والخوف

اذا كان من فعل ماض اورث الندم والندم يورث العزم وقد قال صلى الله عليه وسلم الندم توبة ولم يشترط
التوبة على كل ذنب وقال التايب من الذنب كمن لا ذنب له ولم يقل التايب من الذنوب كلها وبهذه
المعاني يتبين ان التوبة عن بعض الذنوب غير ممكن لانها متماثلة في حق الشهوة وفي حق التعرض لسخط
الله عز وجل نعم يجوز ان يتوب عن الخمر دون النبيذ لتفاوتهما في اقتضاء السخط ويتوب عن الكثير دون
القليل لان لكثرة المعصية تاثيرا في كثرة العقوبة فيساعد الشهوة بالقدر الذي يعجز عنه ويترك بعض شهوته
لله كالمريض الذي حذره الطبيب الفاكهة فانه قد يتناول قليلها ولكن لا يستكثر منها فقد حصل من هذا
انه لا يمكن ان يتوب عن شي ولا يتوب عن مثله بل لا بد ان يكون ما تاب عنه مخالفا لما بقي عليه اما في شدة
المعصية واما في غلبة الشهوة واذا حصل هذا التفاوت في اعتقاد التايب تصور اختلاف حاله
في الخوف والندم فيتصور اختلاف حاله في الترك فندمه على ذلك الذنب ووفاؤه بعزمه على الترك يلحقه
بمن لم يذنب وان لم يكن قد اطاع الله تعالى في جميع الاوامر والنواهي فان قلت فهل تصح توبة العنين
من الزنا الذي قارفه قبل طريان العنة فاقول لا لان التوبة عبارة عن ندم يبعث العزم على الترك فيما
يقدر على فعله وما لا يقدر على فعله انعدم بنفسه لا بتركه اياه ولكني اقول لو طرا عليه بعد العنة كشف ومعرفة
تحقق بها ضرر الزنا الذي قارفه وثار منه احتراق وتحسر وندم ولو كانت شهوة الوقاع باقية لكانت حرقة الندم
تقمع تلك الشهوة وتغلبها فاني ارجو ان يكون ذلك مكفرا لذنبه وماحيا عنه سيئته اذ لا خلاف في انه لو
تاب قبل طريان العنة ومات عقيبه كان من التائبين وان لم تطرا عليه حالة تهيج فيها الشهوة وتتيسر
اسباب القضاء للشهوة ولكنه تايب باعتبار ان ندمه بلغ مبلغا اوجب صرف قصده عن الزنا لو ظهر قصده
فاذا لا يستحيل ان تبلغ قوة الندم في حق العنين هذا المبلغ الا انه لا يعرفه من نفسه فان كل من لا يشتهي شيا
يقدر نفسه قادرا على تركه بادني خوف والله مطلع على ضميره وعلى مقدار ندمه فلعله يقبله منه بل الظاهر
انه يقبله والحقيقة في هذا ترجع الى ان ظلمة المعصية تمحى عن القلب بشيئين احدهما حرقة الندم والاخر
شدة المجاهدة بالترك في المستقبل وقد امتنعت المجاهدة بزوال الشهوة ولكن ليس محالا ان يقوى
الندم بحيث يقوى على محوه دون المجاهدة ولولا هذا لقلنا ان التوبة لا تقبل ما لم يعش التايب بعد
التوبة مدة يجاهد نفسه في عين تلك الشهوة مرات كثيرة وذلك مما لا يدل ظاهر الشرع على اشتراطه اصلا
فان قلت اذا فرضنا تايبين احدهما سكنت نفسه عن النزوع الى الذنب والاخر بقي في نفسه نزوع
اليه وهو يجاهدها ويمنعها فايهما افضل فاعلم ان هذا مما اختلف العلماء فيه فقال احمد بن ابي
الحواري في اصحاب ابي سليمان الداراني رحمه الله عليهما ان المجاهد افضل لان مع التوبة فضل الجهاد وقال

علماء البصرة ذلك الآخر افضل لانه لو فتر في توبته كان اقرب الي السلامة من المجاهد الذي هو في عرضه المقصود عن المجاهدة وما قال كل واحد من الفريقين لا يخلو عن حق وعن قصور عن كمال الحقيقة والحق فيه ان الذي انقطع نزوع نفسه له حالتان احداهما ان يكون انقطاع نزوعه اليه لفتور في نفس الشهوة فقط فالمجاهد افضل من هذا اذ ترکه بالمجاهدة قد دل علي قوة يقينه واستيلاء دينه علي شهوته فهو دليل قاطع علي قوة اليقين وعلي قوة الدين واعني بقوة الدين قوة الارادة التي تنبعث باشارة اليقين وتقمع الشهوة المنبعثة باشارة الشيطان فهاتان قوتان تدل المجاهدة عليهما قطعا وقول القايل ان هذا اسلم اذ لو فتر لا يعود الي الذنب فهذا صحيح ولكن استعمال لفظ الافضل فيه خطأ وهو كقول القايل العنين افضل لانه في امن من خطر الشهوة والصبي افضل من البالغ لانه اسلم والمفلس افضل من الملك القاهر القامع لاعدائه لان المفلس لا عدو له والملك ربما يغلب مرة وان غلب مرات وهذا كلام رجل سليم القلب قاصر النظر علي الظواهر غير عالم بان العز في الاخطار وان العلو مرتبطه باقتحام الاغرار بل هو كقول القايل الصياد الذي ليس له فرس ولا كلب افضل في صناعة الاصطياد واعلي رتبة من صاحب الكلب والفرس لانه امن من ان يجمح به فرسه فينكسر اعضاؤه عند السقوط علي الارض وامن من ان يعضه الكلب ويعتدي عليه وهذا خطأ بل صاحب الفرس والكلب اذا كان قويا عالما بطريق تاديبهما اعلي رتبة واحري بدرک سعادة الصيد الحالة الثانية ان يكون بطلان النزوع بسبب قوة اليقين وصدق المجاهدة السابقة اذ بلغ مبلغا قمع هيجان الشهوة حتى تادبت بادب الشرع فلا تهيج الا باشارة الدين وقد سكنت بسبب استيلاء الدين عليه فهذا اعلي رتبة من المجاهد المقاسي لهيجان الشهوة وقمعها وقول القايل لذلك فضل الجهاد قصور عن الاحاطة بمقصود الجهاد فان الجهاد ليس مقصودا لعينه بل المقصود قطع ضراوة العدو حتى لا يستجرك الي شهواته وان عجز عن استجرارك فلا يصدك عن سلوک طريق الدين فاذا قهرته وحصلت المقصود فقد ظفرت وما دمت في المجاهدة فانت بعد في طلب الظفر ومثاله كمثال من قهر العدو واسترقه بالاضافة الي من هو مشغول بالجهاد في صف القتال ولا يدري كيف يسلم ومثاله ايضا مثال من علم كلب الصيد وراض الفرس وهما نايمان عنده بعد ترک الكلب الضراوة والفرس الجماح بالاضافة الي من هو مشغول بمقاساة التاديب بعد ولقد زل في هذا فريق فظنوا ان الجهاد هو المقصود الاقصى ولم يعلموا ان ذلك طلب الخلاص من عوائق الطريق وظن آخرون ان قمع الشهوات واماطتها بالكلية مقصود حتى جرب بعضهم بنفسه ذلك فعجز عنه فقال هذا محال فكذب بالشرع وسلك سبيل الاباحة

واسترسل في اتباع الشهوات وكل ذلك جهل وضلال وقد قررنا ذلك في كتاب رياضة النفس من ربع
المهلكات فان قلت فما قولك في تائبين احدهما نسي الذنب ولم يشتغل بالتفكر فيه والآخر جعله
نصب عينه ولا يزال يتفكر فيه ويحترق ندما عليه ايهما افضل فاعلم ان هذا قد اختلفوا فيه فقال
بعضهم حقيقة التوبة ان تنصب ذنبك بين عينيك وقال آخر حقيقة التوبة ان تنسى ذنبك وكل واحد
من المذهبين عندنا حق ولكن بالاضافة الى حالين وكلام المتصوفة ابدا يكون قاصرا فان عادة كل
واحد منهم ان يخبر عن حال نفسه فقط ولا يهمه حال غيره فيختلف الاجوبة لاختلاف الاحوال وهذا
نقصان بالاضافة الى درجة العلم فان معرفة الاشياء على ما هي عليه افضل واعلى ولكنه كمال
بالاضافة الى الهمة والارادة والجد حيث يكون صاحبه مقصور النظر على حال نفسه ولا يهمه امر غيره
اذ طريقه الى الله نفسه ومنازل احواله وقد يكون طريق العبد الى الله العلم والتعليم فالطرق الى
الله كثيرة وان كانت مختلفة في القرب والبعد والله اعلم بمن هو اهدى سبيلا مع الاشتراك في
اصل الهداية فاقول حضور الذنب وذكره والتفجع عليه كمال في حق المبتدئ المريد لانه اذا نسيه
لم يكثر احتراقه فلا يقوى ارادته وانبعاثه لسلوك الطريق لان ذلك يستخرج منه الحزن والخوف الوازع
عن الرجوع الى مثله فهو بالاضافة الى الغافل كمال ولكنه بالاضافة الى سالك الطريق نقصان
فانه شغل مانع من سلوك الطريق بل سالك الطريق ينبغي ان لا يعرج على غير السلوك فان ظهر له
مبادي الوصول وانكشف له انوار المعرفة ولوامع الغيب استغرقه ذلك ولم يبق فيه متسع للالتفات
الى ما سبق من الاحوال وهو الكمال بل لو عاق عن الطريق الى بلد من البلاد نهر حاجز طال تعب
المسافر في عبوره من حيث انه كان قد خرب جسره من قبل فجلس على شاطئ النهر بعد عبوره يبكي
متأسفا على تخريبه الجسر كان هذا مانعا آخر اشتغل به بعد الفراغ عن ذلك المانع نعم ان لم يكن له وقت
الرحيل بان كان ليلا متعذر السلوك وكان على طريقه انهار وهو يخاف على نفسه ان عبرها
فليطل بالليل بكاءه وحزنه على تخريب الجسر ليتأكد بطول الحزن عزمه على ان لا يعود الى
مثله فان حصل له من التنبه ما وثق به ان لا يعود الى مثله فان حصل له من التنبه ما وثق به
ان لا يعود الى مثله فسلوك الطريق اولى به من الاشتغال بذكر تخريب الجسر والبكاء عليه وهذا لا يعرفه
الا من عرف الطريق والمقصد والعائق وطريق السلوك وقد اشرنا الى تلويحات منه في كتاب
العلم وفي ربع المهلكات بل نقول لشرط دوام التوبة ان يكون كثير التفكر في نعيم الآخرة لتزيد
رغبته ولكن ان كان شابا فلا ينبغي ان يطيل فكره في كل ما له نظير في الدنيا كالحور والقصور

فان ذلك الفكر ربما يحرك رغبته فيطلب العاجلة ولا يرضى بالآجلة بل ينبغي ان يتفكر في لذة النظر
الى وجه الله تعالى فقط فذلك لا نظير له في الدنيا فكذلك تذكر الذنب قد يكون محركا للشهوة فالمبتدى
ايضا قد يستضر به فيكون النسيان افضل له عند ذلك ولا يصدنك عن التصديق بهذا التحقيق
ما يحكى لك من بكاء داود عليه السلم ونياحته فان قياسك نفسك على الانبياء عليهم السلم قياس
في غاية الاعوجاج لانهم قد ينزلون في اقوالهم وافعالهم الى الدرجات اللائقة باممهم فانهم ما بعثوا
الا لارشادهم فعليهم التلبس بما ينتفع اممهم بمشاهدتهم وان كان ذلك نازلا عن ذروة مقامهم
فقد كان في الشيوخ من لا يشير على مريد بنوع رياضة الا ويخوض معه فيها وقد كان مستغنيا عنها
لفراغه عن المجاهدة وتاديب النفس ولكن تسهيلا للامر على المريد ولذلك قال صلى الله عليه وسلم
اما اني لا انسى ولكني انسى لاشرع وفي لفظ انما اسهو لاسن ولا تعجب من هذا فان الامم في كنف
شفقة الانبياء كالصبيان في كنف شفقة الآباء وكالمواشي في كنف الرعاة اما ترى الاب اذا
اراد ان يستنطق ولده الصبي كيف ينزل الى درجة نطق الصبي كما قال صلى الله عليه وسلم للحسن
كخ كخ لما اخذ تمرة من الصدقة ووضعها في فيه وما كانت فصاحته تقصر عن ان يقول ارم هذه
التمرة فانها حرام ولكنه اذ علم انه لا يفهم منطقه ترك فصاحته ونزل الى لكنته بل الذي يعلم شاة
او طائرا يصوت به رغاء وصفيرا تشبها بالبهيمة والطائر وتلطفا في تعليمه فاياك وان تغفل
عن امثال هذه الدقائق فانها مزلة اقدام العارفين فضلا عن الغافلين **بيان**
اقسام العباد في دوام التوبة اعلم ان طبقات التائبين اربع طبقات الطبقة الاولى
ان يتوب العاصي ويستقيم على التوبة الى آخر عمره فيتدارك ما فرط في امره ولا يحدث نفسه
بالعود الى ذنوبه الا الزلات التي لا ينفك البشر عنها في العادات مهما لم يكن في رتبة النبوة
فهذا هو الاستقامة في التوبة وصاحبه هو السابق بالخيرات المستبدل بالسيئات حسنات
واسم هذه التوبة التوبة النصوح واسم هذه النفس الساكنة النفس المطمئنة التي ترجع الى
ربها راضية مرضية وهؤلاء هم الذين اليه الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم سبق المفردون
المستهترون بذكر الله وضع الذكر عنهم اوزارهم فوردوا القيامة خفافا فان فيه اشارة الى
انهم كانوا تحت اوزار وضعها الذكر عنهم واهل هذه الطبقة على رتب من حيث النزوع الى
الشهوات فمن تائب سكنت شهواته تحت قهر المعرفة ففتر نزاعها ولم يشغله عن السلوك
صراعها ومن تائب لا ينفك عن منازعة النفس ولكنه ملي بمجاهدتها ثم تتفاوت درجات النزاع

٤٥٥

ايضا بالكثرة والقلة وباختلاف المدة وباختلاف الانواع وكذلك يختلفون من حيث طول العمر من
مختطف قريب من توبته يغبط على ذلك لسلامته وموته قبل الفترة ومن طال الجهاد وصبر
وتمادت استقامته وكثرت حسناته وحال هذا اعلى وافضل اذ كل سيئة فانما يمحوها حسنة حتى
قال بعض العلماء انما يكفر الذنب الذي ارتكبه العاصي ان يتمكن عشر مرات مع صدق الشهوة ثم يصبر عنه
ويكسر شهوته خوفا من الله تعالى واشتراط هذا بعيد وان لا ينكر عظم اثره لو فرض ولكن لا ينبغي للمريد
الضعيف ان يسلك هذا الطريق فيهيج الشهوة ويحضر الاسباب حتى يتمكن ثم يطمع في الانفكاك
فانه لا يؤمن خروج عنان الشهوة عن اختياره فيقدم على المعصية وينقض توبته بل طريقه الفرار
من اقتراب اسبابه الميسرة له حتى يسد طرقها على نفسه ويسعى مع ذلك في كسر شهوته بما يقدر
عليه فيه تسلم توبته في الابتداء ، الطبقة الثانية تايب يسلك طريق الاستقامة في امهات
الطاعات وكباير الفواحش كلها الا انه ليس ينفك عن ذنوب تعتريه لا عن عمد وتجريد قصد ولكن
يبتلي بها في مجاري احواله من غير ان يقدم عزما على الاقدام عليها ولكنه كلما اقدم عليها لام نفسه
وندم وتاسف وجدد عزمه على ان يتشمر للاحتراز من اسبابها التي تعرضه لها وهذه النفس جديرة
بان تكون هي النفس اللوامة اذ تلوم صاحبها على ما يستهدف له من الاحوال الذميمة لا عن تصميم
عزم وتخمير راي وقصد وهذه ايضا رتبة عالية وان كانت نازلة عن الطبقة الاولى وهي اغلب
احوال التايبين لان الشر معجون بطينة الادمي قلما ينفك عنه وانما غاية سعيه ان يغلب خيره
شره حتى يثقل ميزانه فترجح كفة الخيرات فاما ان يخلو بالكلية كفة السيات فذلك في غاية البعد
وهولاء لهم حسن الوعد من الله اذ قال الذين يجتنبون كباير الاثم والفواحش الا اللمم ان ربك واسع
المغفرة فكل المام يقع بصغيرة لا عن توطين نفس عليه فهو جدير بان يكون من اللمم المعفو عنه وقد قال الله
والذين اذا فعلوا فاحشة او ظلموا انفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم فاثنى عليهم مع ظلمهم
انفسهم لتندمهم ولومهم انفسهم عليه والى مثل هذه الرتبة الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه
عنه علي رضي الله عنه خياركم كل مفتتن تواب وفي خبر اخر المومن كالسنبلة تفيء احيانا وتميل احيانا
وفي الخبر لا بد للمومن من ذنب ياتيه الفينة بعد الفينة اي الحين بعد الحين فكل ذلك دلالة قاطعة
على ان هذا القدر لا ينقض التوبة ولا يلحق صاحبها بدرجة المصرين ومن يويس مثل هذا عن درجة
التايبين كالطبيب الذي يويس الصحيح عن دوام الصحة بما يتناوله من الفواكه والاطعمة الحارة
مرة بعد اخرى من غير مداومة واستمرار وكالفقيه الذي يويس المتفقه عن نيل درجة الفقهاء بفتوره

عن التكرار والتعليق في اوقات نادرة غير مستطاولة ولا كثيرة وذلك يدل على نقصان العفة في الطيب
بل العفة في الدين هو الذي لا يوئس الخلق عن درجات السعادات بما يتفق لهم من الفترات ومقارفة
السيئات المختطفات قال صلى الله عليه وسلم كل بني آدم خطاء وخير الخطائين المستغفرون وقال ايضا
صلى الله عليه وسلم المومن واه راقع فخيرهم من مات على رقعة اي واه بالذنوب راقع بالتوبة والندم وقال
تعالى اولئك يوتون اجرهم مرتين بما صبروا ويدرون بالحسنة السيئة فما وصفهم بعدم السيئة
اصلا الطبقة الثالثة ان يتوب ويستمر على الاستقامة مدة ثم تغلبه شهوة في بعض ذنوبه فيقدم
عليها عن قصد وصدق شهوة لعجزه عن قهر الشهوة الا انه مع ذلك مواظب على الطاعات وتارك
جملة من الذنوب مع القدرة والشهوة وانما قهرته هذه الشهوة الواحدة او الشهوتان وهو يود ان
لو اقدره الله عز وجل على قمعها وكفاه شرها هذه امنيته في حال قضاء الشهوة وعند الفراغ
يتندم ويقول ليتني لم افعله وسأتوب عنه واجاهد نفسي في قهرها لكنه تسول له نفسه ويسوف
توبته مرة بعد اخرى ويوما بعد يوم فهذه النفس هي التي تسمى النفس المسولة وصاحبها من الذين
قال الله تعالى فيهم وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا فامره من حيث مواظبته
على الطاعات وكراهيته لما يتعاطاه مرجو فعسى الله ان يتوب عليه وعاقبته مخطرة من حيث تسويفه
وتاخيره وربما يختطف قبل التوبة ويقع امره في المشية فان تداركه الله بفضله وجبر كسره
وامتن عليه بالتوبة الحق بالسابقين وان غلبته شقوته وقهرته شهوته فيخشى ان يحق عليه
في الخاتمة ما سبق عليه من القول في الازل لانه مهما تعذر على المتفقه مثلا الاحتراز عن
شواغل التعلم دل التعذر ذلك على انه سبق له في الازل ان يكون من الجاهلين فيضعف الرجاء
في حقه واذا تيسرت له اسباب المواظبة على التحصيل دل على انه سبق له في الازل ان يكون
من جملة العالمين فكذلك ارتباط سعادات الآخرة ودركاتها بالحسنات والسيئات بحكم تقدير
مسبب الاسباب كارتباط المرض والصحة بتناول الاغذية والادوية وارتباط حصول فقه
النفس الذي به يستحق المناصب العلية في الدنيا بترك الكسل والمواظبة على تفقيه النفس
فكما لا يصلح لمنصب الرياسة والقضاء والتقدم بالعلم الا نفس صارت فقيهة بطول التفقه
والتفقيه فلا يصلح لملك الآخرة ونعيمها ولا للقرب من رب العالمين الا قلب سليم صار طاهرا
بطول التزكية والتطهر هكذا سبق في الازل تدبير رب العالمين ولذلك قال الله تعالى ونفس
وما سواها فالهمها فجورها وتقويها قد افلح من زكيها وقد خاب من دسيها فمهما وقع العبد

في ذنب فصار الذنب نقدا والتوبة نسيئة كان هذا من علامات الخذلان قال صلى الله عليه وسلم ان العبد
ليعمل بعمل اهل الجنة سبعين سنة حتى يقول الناس انه من اهلها ولا يبقى بينه وبينها الا شبر فيسبق عليه
الكتاب فيعمل بعمل اهل النار فيدخلها فاذا الخوف من الخاتمة قبل التوبة وكل نفس فهو خاتمة لما قبله
اذ يمكن ان يكون الموت متصلا به فليراقب الانفاس والا وقع المحذور ودامت الحسرات حين لا ينفع
التحسر الطبقة الرابعة ان يتوب ويجري مدة على الاستقامة ثم يعود الى مقارفة الذنب او الذنوب
من غير ان يحدث نفسه بالتوبة ومن غير ان يتاسف على فعله بل ينهمك انهماك الغافل في اتباع
الشهوات فهذا من جملة المصرين وهذه النفس هي النفس الامارة بالسوء الفرارة من الخير ويخاف على
هذا سوء الخاتمة وامره في مشية الله فان ختم له بالسوء شقي شقاوة لا آخر لها وان ختم له بالحسنى حتى
مات بالتوحيد ينتظر له الخلاص من النار ولو بعد حين ولا يستحيل ان يشمله عموم العفو بسبب خفي
لا يطلع عليه كما لا يستحيل ان يدخل الانسان خرابا ليجد كنزا فيتفق ان يجده ولا ان يجلس في البيت
ليجعله الله عالما بالعلوم من غير تعلم كما كان للانبياء صلوات الله عليهم اجمعين فطلب المغفرة بالطاعات
كطلب العلم بالجهد والتكرار وطلب المال بالتجارة وركوب البحار وطلبها بمجرد الرجاء مع خراب
الاعمال كطلب الكنوز في المواضع الخربة وطلب العلوم من تعليم الملائكة وليس من اجتهد تعلم وليس
من اتجر استغنى وليس من صلى وصام غفر له فالناس كلهم محرومون الا العالمين والعالمون محرومون
الا العاملين والعاملون محرومون الا المخلصين والمخلصون على خطر عظيم وكما ان من خرب
بيته وضيع ماله وترك نفسه وعياله جياعا يزعم انه ينتظر فضل الله تعالى بان يرزقه كنزا يجده
تحت الارض في بيت الخرب يعد عند ذوي البصاير من الحمقى والمغرورين وان كان ما ينتظره
غير مستحيل في قدرة الله وفضله فكذلك من ينتظر المغفرة من فضل الله وهو مصر على الذنوب
غير سالك سبل المغفرة معدود عند ارباب القلوب من المغرورين المعتوهين والعجب من عقل
هذا المعتوه وترويجه حماقته في صيغة حسنة اذ يقول ان الله تعالى كريم وجنته ليست بضيقة
عن مثلي ومعصيتي ليست تضره ثم تراه يركب البحار ويقتحم الاغوار في طلب دينار واذا قيل
له ان الله كريم ودنانير خزائنه ليست تقصر عن فقرك وغناك وكسلك بترك التجارة ليس يضرك فاجلس
في بيتك فعساه يرزقك من حيث لا تحتسب يستحمق قائل هذا الكلام ويستهزئ به ويقول
ما هذا الهوس السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة وانما ينال ذلك بالكسب هكذا قدره رب الارباب
واجرى بذلك سنته ولا تبديل لسنة الله ولا يعلم المغرور ان رب الآخرة ورب الدنيا واحد

وان سنته جميعا لا تبديل لها فيهما جميعا وانه قد اخبر بذلك اذ قال وان ليس للانسان الا ما
سعي فكيف يعتقد انه كريم في الآخرة وليس بكريم في الدنيا وكيف يقول ليس مقتضى الكرم [illegible]
كسب المال ومقتضاه القعود عن الملك المقيم والنعيم الدايم وان ذلك بحكم الكرم يعطيه [illegible] بغير جهد
وهذا ينعدم مع شدة الاجتهاد في غالب الامر في الدنيا وينسي قوله تع وفي السماء رزقكم وما توعدون
فنعوذ بالله من العمى والضلال فما هذا الا انكاس على ام الراس وانغماس في ظلمات الجهل وحقيقا
جدير بان يكون داخلا تحت قول الله تعالي ولو تري اذ المجرمون ناكسوا رؤسهم عند ربهم ربنا ابصرنا
وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا اي ابصرنا انك صدقت اذ قلت وان ليس للانسان الا ما سعي
فارجعنا لنسعي وعند ذلك لا يمكن من الانقلاب ويحق عليه العذاب نعوذ بالله من دواعي الجهل
والشك والارتياب السايق بالضرورة الي سوء المنقلب والمآب بيان ما ينبغي ان يبادر اليه
التايب ان جري عليه ذنب اما عن قصد وشهوة غالبة او عن المام بحكم الاتفاق اعلم ان الواجب عليه
التوبة والندم والاشتغال بالتكفير بحسنة تضاده كما ذكرنا طريقه فان لم تساعده النفس على
العزم علي الترك لغلبة الشهوة فقد عجز عن احد الواجبين فلا ينبغي ان يترك الواجب الثاني
وهو ان يدرا بالحسنة السيئة ليمحوها فيكون ممن خلط عملا صالحا وآخر سيئا والحسنات
المكفرة للسيئات اما بالقلب او باللسان او بالجوارح ولتكن الحسنة في محل السيئة وفيما
يتعلق باسبابها فاما بالقلب فيكفره بالتضرع الي الله تعالي في سوال المغفرة والعفو ويتذلل
تذلل العبد الآبق ويكون ذله بحيث يظهر لساير العباد وذلك لنقصان كبره فيما بينهم فما للعبد
الابق المذنب وجه التكبر علي العباد وكذلك يضمر بقلبه الخيرات للمسلمين والعزم على الطاعات
واما باللسان فبالاعتراف بالظلم والاستغفار فيقول رب ظلمت نفسي وعملت سوء فاغفر لي
ذنوبي ولذلك يكثر من ضروب الاستغفار كما اوردناه في كتاب الدعوات والاذكار واما بالجوارح
فبالطاعات والصدقات وانواع العبادات وفي الآثار ما يدل علي ان الذنب اذا اتبع بثمانية
اعمال كان العفو عنه مرجوا اربعة من اعمال القلوب وهو التوبة او العزم علي التوبة وحب
الاقلاع عن الذنب وخوف العقاب عليه ورجاء المغفرة له واربعة من اعمال الجوارح وهو ان
يصلي عقيب الذنب ركعتين ثم يستغفر الله بعدهما سبعين مرة ويقول سبحان الله العظيم وبحمده
ماية مرة ثم يتصدق بصدقة ثم يصوم يوما وفي بعض الآثار يسبغ الوضوء ويدخل المسجد ويصلي
ركعتين وفي بعض الآثار يسبغ الوضوء ويدخل المسجد ويصلي ركعتين وفي بعض الاخبار يصلي

اربع ركعات وفي الخبر اذا عملت سيئة فاتبعها حسنة يكفرها السر بالسر والعلانية بالعلانية وكذلك
قيل صدقة السر تكفر ذنوب الليل وصدقة الجهر تكفر ذنوب النهار وفي الخبر الصحيح ان رجلا
قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم اني عالجت امرأة فاصبت منها كل شئ الا المسيس فاقض علي
بحكم الله تعالى فقال صلى الله عليه وسلم اوما صليت معنا صلاة الغداة فقال بلى فقال ان الحسنات
يذهبن السيئات وهذا يدل على ان مادون الزنا من معالجة النساء صغيرة اذ جعل الصلوة
كفارة له بمقتضى قوله صلى الله عليه وسلم الصلوات الخمس كفارات لما بينهن الا الكبائر فعلى
الاحوال كلها ينبغي ان يحاسب نفسه كل يوم ويجمع سيئاته ويجتهد في دفعها بالحسنات
فان قلت فكيف يكون الاستغفار نافعا من غير حل عقدة الاصرار وفي الخبر المستغفر من
الذنب وهو مصر عليه كالمستهزئ بآيات الله وكان بعضهم يقول استغفر الله من قول استغفر الله
وقيل الاستغفار باللسان توبة الكذابين وقالت رابعة العدوية رحمها الله استغفارنا
يحتاج الى استغفار فاعلم انه قد ورد في فضل الاستغفار اخبار خارجة عن الحصر ذكرناها
في كتاب الاذكار والدعوات حتى قرن الله الاستغفار ببقاء الرسول صلى الله عليه وسلم فقال
وما كان الله ليعذبهم وانت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون وكان بعض
الصحابة يقول كان لنا امانان ذهب احدهما وهو كون الرسول فينا وبقي الاستغفار فان
ذهب هلكنا فنقول الاستغفار الذي هو توبة الكذابين هو الاستغفار بمجرد اللسان من
غير ان يكون للقلب فيه شركة كما يقول الانسان بحكم العادة وعن رأس الغفلة استغفر الله وكما
يقول اذا سمع صفة النار نعوذ بالله من غير ان يتأثر به قلب وهذا يرجع الى مجرد حركة اللسان
ولاجدوى له فاما اذا انضاف اليه تضرع القلب الى الله وابتهاله في سؤال المغفرة عن صدق
ارادة وخلوص رغبة فهذه حسنة في نفسها فتصلح ان يدفع بها السيئة وعلى هذا يحمل
الاخبار الواردة في فضل الاستغفار حتى قال صلى الله عليه وسلم ما اصر من استغفر ولو عاد
في اليوم سبعين مرة وهو عبارة عن الاستغفار بالقلب وللتوبة وللاستغفار درجات واوائلها
لا تخلو عن الفائدة وان لم تنته الى اواخرها ولذلك قال سهل رحمة الله عليه لا بد للعبد في كل
حال من مولاه فاحسن احواله ان يرجع اليه في كل شئ فان عصى قال يا رب استر علي فاذا
فرغ من المعصية قال يا رب تب علي فاذا تاب قال يا رب ارزقني العصمة واذا عمل قال يا رب
تقبل مني وسئل ايضا عن الاستغفار الذي يكفر الذنوب فقال اول الاستغفار الاستجابة

ثم الانابة فالاستجابة اعمال الجوارح والانابة اعمال القلوب والتوبة اقبال على مولاه بان يترك الخلق
ثم يستغفر من تقصيره الذي هو فيه ومن الجهل بالنعمة وترك الشكر فعند ذلك يغفر له ويكون
عنده ماواه ثم الشغل الى الانفراد ثم الثبات ثم البيان ثم القرب ثم المعرفة ثم المناجاة ثم الصفاة
ثم الموالاة ثم محادثة السر وهو الخلة لا يستقر هذا في قلب عبد حتى يكون العلم غذاوه
والذكر قوامه والرضا زاده والتوكل صاحبه ثم ينظر الله تعالى اليه فيرفعه الى العرش فيكون
مقامه مقام حملة العرش وسئل ايضا عن قوله صلى الله عليه وسلم التايب حبيب الله فقال
انما يكون حبيبا اذا كان فيه جميع ما ذكر في قوله تعالى التايبون العابدون الحامدون الآية
وقال الحبيب هو الذي لا يدخل فيما يكرهه حبيبه والمقصودان للتوبة امرين احدهما تكفير
السيات حتى يصير كمن لا ذنب له والثانيه نيل الدرجات حتى يصير حبيبا وللتكفير ايضا درجات
فبعضه محو لاصل الذنب بالكلية وبعضه تخفيف له وتتفاوت ذلك بتفاوت درجات
التوبة والاستغفار بالقلب والتدارك بالحسنات وان خلا عن حل عقدة الاصرار من اوايل
الدرجات فليس يخلو عن الفايدة اصلا فلا ينبغي ان يظن ان وجودها كعدمها بل عرف اهل
المشاهدة وارباب القلوب معرفة لا ريب فيها ان قول الله تعالى فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره
ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره صدق وانه لا يخلو ذرة من الخير عن اثر كما لا تخلو شعيرة تطرح
في الميزان عن اثر ولو خلت الشعيرة الاولى عن اثر لكانت الثانيه مثلها ولكان لا يترجح
الميزان باحمال وذلك بالضرورة محال بل ميزان الحسنات يترجح بذرات الخير الى ان يثقل
فيشيل كفة السيات فاياك وان تستصغر ذرات الطاعات فلا تاتيها وذرات المعاصي
فلا تتقيها كالمراة الخرقاء تكسل عن الغزل تعللا بانها لا تقدر في كل ساعة الا على خيط
واحد واي غناء يحصل بخيط واين يقع ذلك في الثياب ولا تدري المعتوهة ان ثياب الدنيا
اجتمعت خيطا خيطا وان اجسام العالم مع اتساع اقطاره اجتمعت ذرة ذرة فاذا التضرع
والاستغفار بالقلب حسنة لا تضيع عند الله اصلا بل اقول الاستغفار باللسان ايضا حسنة
اذ حركة اللسان بها عن غفلة خير من حركة اللسان في تلك الساعة بغيبة مسلم او فضول
كلام بل هو خير من السكوت عنه فيظهر فضله بالاضافة الى السكوت عنه وانما يكون نقصا بالاضافة
الى عمل القلب ولذلك قال بعضهم لشيخه ابي عثمان المغربي ان لساني في بعض الاوقات يجري
بالذكر والقرآن وقلبي غافل فقال اشكر الله تعالى اذ استعمل جارحة من جوارحك في خير وعوده

الذكر ولم يستعمله في الشر ولم يعوده الفضول وما ذكر حق فان تعود الجوارح للخيرات حتى يصير
لها ذلك كالطبع يدفع جملة من المعاصي فمن تعود لسانه الاستغفار اذا سمع من غيره كذبا سبق
لسانه الى ما تعوده فقال استغفر الله ومن تعود الفضول سبق لسانه الى ان يقول ما احمقك
وما اقبح كذبك ومن تعود الاستعاذة اذا حدث بظهور مبادي الشر من شرير قال بحكم
سبق اللسان نعوذ بالله واذا تعود الفضول قال لعنه الله فيعصي في احدى الكلمتين ويسلم
في الاخرى وسلامته اثر اعتياد لسانه الخير وهو من جملة معاني قوله ان الله لا يضيع اجر
المحسنين ومعاني قوله تعالى وان تك حسنة يضاعفها فانظر كيف ضاعفها اذ جعل
الاستغفار في الغفلة عادة اللسان حتى دفع بتلك العادة شر العصيان بالغيبة واللعن
والفضول هذا تضعيف في الدنيا لادنى الطاعات وتضعيف الآخرة اكبر لو كانوا يعلمون
فاياك ان تلمح في الطاعات مجرد الآفات فتفتر رغبتك في العبادات فان هذه مكيدة
روجها الشيطان بلعنته على المغرورين وخيل اليهم انكم ارباب البصائر واهل الفطن بالخفايا
والسرائر فاي خير في ذكرك باللسان مع غفلة القلب فانقسم الخلق في هذه المكيدة الى
ثلثة اقسام ظالم لنفسه ومقتصد وسابق اما السابق فقال صدقت يا ملعون ولكن كلمة
حق اردت بها باطلا فلا جرم اعذبك مرتين وارغم انفك من وجهين فاضيف الى حركة اللسان
حركة القلب فكان كالذي داوى جرح الشيطان بنثر الملح عليه واما الظالم المغرور فاستشعر في
نفسه خيلاء الفطنة لهذه الدقيقة ثم عجز عن الاخلاص بالقلب فترك مع ذلك تعويد اللسان بالذكر
فاسعف الشيطان وتدلى بحبل غروره فتمت بينهما المشاكلة والموافقة كما قيل وافق شن
طبقه وافقه فاعتنقه واما المقتصد فلم يقدر على ارغامه باشراك القلب في العمل وتفطن
لنقصان حركة اللسان بالاضافة الى القلب ولكن اهتدى الى كماله بالاضافة الى السكوت عن الفضول
فاستمر عليه وسال الله تعالى ان يشرك القلب مع اللسان في اعتياد الخير فكان السابق كالحائك
ذمت حياكته فتركها واصبح كاتبا والظالم المتخلف كالذي ترك الحياكة واصبح كناسا والمقتصد
كالذي عجز عن الكتابة فقال لا انكر مذمة الحياكة ولكن الحائك مذموم بالاضافة الى الكاتب
لا بالاضافة الى الكناس فاذا عجزت عن الكتابة فلا اترك الحياكة ولما قالت رابعة العدوية رحمها
الله استغفارنا يحتاج الى استغفار فلا تظن انها تذم حركة اللسان من حيث انه ذكر الله بل تذم
غفلة القلب فهو يحتاج الى الاستغفار من غفلة قلبه لا من حركة لسانه فان سكت عن الاستغفار

باللسان ايضا احتاج الى استغفار من لا الا استغفار واحد فهكذا ينبغي ان تفهم ذم ما يذم وحمد
ما يحمد والا جهلت ما قال الصادق رضي الله عنه حسنات الابرار سيئات المقربين فان هذه امور
تثبت بالاضافة فلا ينبغي ان توخذ من غير اضافة بل ينبغي ان لا تستحقر ذرات الطاعات والمعاصي
ولذلك قال جعفر الصادق رضي الله عنه خبا الله ثلثا في ثلث رضاه في طاعته فلا تحقروا منها شيا
فلعل رضاه فيه وغضبه في معاصيه فلا تحقروا منها شيا فلعل غضبه فيه وخبا ولايته
في عباده فلا تحقروا منهم احدا فلعله ولي الله وزاد وخبا اجابته في دعائه [illegible] فلا تتركوا
الدعاء فربما كانت الاجابة فيه الركن الرابع في دواء التوبة وطريق العلاج لحل
عقدة الاصرار اعلم ان الناس قسمان شاب لا صبوة له نشا على الخير واجتناب الشر وهو الذي
قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم يعجب ربك من الشاب ليست له صبوة وهذا عزيز نادر والقسم الثاني
هو الذي لا يخلو عن مقارفة الذنوب ثم هم ينقسمون الى مصرين والى تائبين وغرضنا ان نبين
العلاج في حل عقدة الاصرار ونذكر الدواء فيه فاعلم ان شفاء التوبة لا يحصل الا بالدواء ولا يقف
على الدواء من لا يقف على الداء اذ لا معنى للدواء الا مناقضة اسباب الداء فكل داء حصل من
سبب فدواؤه حل ذلك السبب ورفعه وابطاله ولا يبطل الشي الا بضده ولا سبب للاصرار الا
الغفلة والشهوة ولا يضاد الغفلة الا العلم ولا يضاد الشهوة الا الصبر على قطع الاسباب المحركة
للشهوة والغفلة راس الخطايا قال الله تعالى اولئك هم الغافلون لا جرم انهم في الآخرة هم الخاسرون
فلا دواء اذا للتوبة الا معجون يعجن من حلاوة العلم ومرارة الصبر كما يجمع في السكنجبين بين
حلاوة السكر وحموضة الخل ويقصد بكل واحد منهما غرض آخر في العلاج بمجموعهما يقطع
الاسباب المهيجة للصفراء فهكذا ينبغي ان يفهم علاج القلب عما به من مرض الاصرار فاذا
لهذا الدواء اصلان احدهما العلم والآخر الصبر فلا بد من بيانهما فان قلت اينفع كل علم لحل
الاصرار ام لا بد من علم مخصوص فاعلم ان كل العلوم بجملتها ادوية لامراض القلوب ولكن لكل مرض
علم يخصه كما ان علم الطب نافع في علاج الامراض بالجملة ولكن يخص كل علة علم مخصوص فكذلك
داء الاصرار فلنذكر خصوص ذلك العلم على موازنة مرض الابدان ليكون اقرب الى الفهم فنقول
يحتاج المريض الى تصديق بامور الاول ان يصدق على الجملة بان للمرض والصحة اسبابا يتوصل
اليها بالاختيار على ما رتبه مسبب الاسباب وهذا هو الايمان باصل الطب فان من لا يؤمن
به لا يشتغل بالعلاج ويحق عليه الهلاك وهذا وزانه مما نحن فيه الايمان باصل الشرع وهو ان

للسعادة في الآخرة سببا وهو الطاعة وللشقاوة سببا وهو المعصية وهو الايمان باصل
الشرايع وهذا لابد من حصوله اما عن تحقيق او تقليد وكلاهما من جملة الايمان الثاني انه لابد
ان يعتقد المريض في طبيب معين انه عالم بالطب حاذق فيه صادق فيما يعبر عنه لا يلبس ولا
يكذب فان ايمانه باصل الطب لا ينفعه بمجرده دون هذا الايمان ووزانه مما نحن فيه العلم بصدق
الرسول صلى الله عليه وسلم والايمان بكل ما يقوله حق وصدق لا كذب فيه ولا خلف الثالث انه
لابد ان يصغى الى الطبيب فيما يحذره من تناول الفواكه والاسباب المضرة على الجملة حتى يغلب عليه
الخوف في ترك الاحتماء فيكون شدة الخوف باعثة له على الاحتماء ووزانه من الدين الاصغاء
الى الآيات والاخبار المشتملة على الترغيب في التقوى والتحذير من ارتكاب الذنوب واتباع الهوى
والتصديق بجميع ما يلقى اليه سمعه من ذلك من غير شك وارتيابه حتى ينبعث به الخوف المقوي
على الصبر الذي هو الركن الآخر في العلاج الرابع ان يصغى الى الطبيب فيما يخص مرضه وفيما يلزمه
بنفسه الاحتماء عنه ليعرفه اولا تفصيل ما يضره من افعاله واحواله وماكوله ومشروبه فليس على كل
مريض الاحتماء عن كل شيء ولا ينفعه كل دواء بل لكل علة خاصة علم خاص وعلاج خاص ووزانه
من الدين ان كل عبد فليس يبتلى بكل شهوة وارتكاب كل ذنب بل لكل مؤمن ذنب مخصوص
او ذنوب مخصوصة انما حاجته في الحال مرهقة الى العلم بانها ذنوب ثم الى العلم بآفاتها وقدر
ضررها في الدين ثم الى العلم بكيفية التوصل الى الصبر عنها ثم الى العلم بكيفية تكفير ما سبق منها
فهذه علوم مختصة بها اطباء الدين وهم العلماء الذين هم ورثة الانبياء فان العاصي ان علم عصيانه
فعليه طلب العلاج من الطبيب وهو العالم وان كان لا يدري ان ما يرتكبه ذنب فعلى العالم
ان يعرفه ذلك بان يتكلف كل عالم باقليم او بلدة او محلة او مسجد فيعلم اهله دينهم ويميز ما يضرهم
عما ينفعهم وما يشقيهم عما يسعدهم ولا ينبغي ان يصبر الى ان يسال عنه بل ينبغي ان يتصدى
لدعوة الناس الى نفسه فانهم ورثة الانبياء والانبياء ما تركوا الناس على جهلهم بل كانوا ينادونهم
في مجامعهم ويدورون على ابواب دورهم في الابتداء ويطلبون واحدا واحدا فيرشدونهم فان
مرضى القلوب لا يعرفون مرضهم كما ان الذي ظهر على وجهه برص ولا مرآة معه لا يعرف برصه
ما لم يعرفه غيره وهذا فرض عين على العلماء كافة وعلى السلاطين كافة ان يرتبوا في كل قرية
وكل محلة فقيها متدينا يعلم الناس دينهم فان الناس لا يولدون الا جهالا فلابد من تبليغ
الدعوة اليهم في الاصل والفرع فالدنيا دار مرضى اذ ليس في بطن الارض الا ميت ولا على ظهرها

الاستقيم ومرض القلوب اكثر من مرض الابدان والعلماء اطباء والسلاطين قوام دار المرضى وكل مريض
لم يقبل العلاج بمداواة العالم سلم الى السلطان ليكف شره كما يسلم الطبيب المريض الذي لا يحتمى او الذي
غلب عليه الجنون الى القيم ليقيده بالسلاسل والاغلال ويكف شره عن ساير الناس وانما صار مرض
القلوب اكثر من مرض الابدان لثلث علل احديها ان المريض لا يدرى انه مريض والثانية ان عاقبته
غير مشاهدة في هذا العالم بخلاف مرض البدن فان عاقبته موت مشاهد تنفر الطباع عنه وما بعد
الموت غير مشاهد فقلت النفرة عن الذنوب وان علمها مرتكبها فلذلك تراه يتكل على فضل الله في مرض
القلب ويجتهد في علاج مرض البدن من غير اتكال والثالثة وهو الداء العضال فقد الطبيب فان
الاطباء هم العلماء وقد مرضوا في هذه الاعصار مرضا شديدا عجزوا عن علاجه وصارت لهم سلوة
في عموم المرض حتى لا يظهر نقصانهم فاضطروا الى اغواء الخلق والاشارة عليهم بما يزيدهم مرضا لان الداء المهلك
هو حب الدنيا وقد غلب هذا الداء على الاطباء فلم يقدروا على تحذير الخلق منه استنكافا من ان يقال
لهم فما بالكم تامرون بالعلاج وتنسون انفسكم فبهذا السبب عم الداء وعظم الوباء وانقطع الدواء
وهلك الخلق لفقد الاطباء بل اشتغل الاطباء بفنون الاغواء فليتهم اذ لم ينصحوا لم يغشوا واذ لم يصلحوا
لم يفسدوا وليتهم سكتوا وما نطقوا فانهم اذا تكلموا لم يهمهم في مواعظهم الا ما يزعق العوام ويستميل
قلوبهم ولا يتوصلوا الى ذلك الا بالارجاء وتغليب اسباب الرجاء وذكر دلايل الرحمة لان ذلك الذ في
الاسماع واخف على الطباع فينصرف الخلق عن مجالس الوعظ وقد استفادوا مزيد جراة على المعاصي ومزيد
ثقة بفضل الله ومهما كان الطبيب جاهلا او خائنا اهلك بالدواء حيث يضعه في غير موضعه فالرجاء
والخوف دوآن ولكن لشخصين متضادي العلة اما الذي غلب عليه الخوف حتى هجر الدنيا بالكلية وكلف
نفسه ما لا يطيق وضيق العيش على نفسه بالكلية فيكسر سورة اسرافه في الخوف بذكر اسباب الرجا ليعود
الى الاعتدال وكذا المصر على الذنوب المشتهى للتوبة الممتنع عنها بحكم القنوط والياس استعظاما لذنوبه
التي سبقت يعالج ايضا باسباب الرجاء حتى يطمع في قبول التوبة فيتوب فاما معالجة المغرور المسترسل
في المعاصي بذكر اسباب الرجاء فيضاهي معالجة المحرور بالعسل طلبا للشفاء وذلك من داب الجهال
والاغبياء فاذا فساد الاطباء هي المعضلة الوباء التي لا تقبل الدواء اصلا فان قلت فاذكر الطريق
الذي ينبغي ان يسلكه الواعظ في وعظه مع الخلق فاعلم ان ذلك يطول ولا يمكن استقصاؤه نعم نشير
الى الانواع النافعة في حل عقدة الاصرار وحمل الناس على ترك الذنوب وهي اربعة انواع النوع الاول
ان يذكر ما في القرآن من الآيات المخوفة للمذنبين والعاصين وكذلك ما ورد من الاخبار والآثار مثل

قوله صلى الله عليه وسلم ما من يوم طلع فجره ولا ليلة غاب شفقها الا وملكان يتجاوبان باربعة
اصوات يقول احدهما يا ليت هذه الخلايق لم يخلقوا ويقول الآخر يا ليتهم اذ خلقوا علموا لماذا خلقوا
فيقول الآخر يا ليتهم اذ لم يعلموا لماذا خلقوا اعملوا بما علموا وفي بعض الروايات تجالسوا فتذاكروا ما
علموا فيقول الآخر ويا ليتهم اذ لم يعملوا بما علموا تابوا عما عملوا وقال بعض السلف اذا اذنب العبد امر
صاحب اليمين صاحب الشمال وهو امير عليه ان يرفع القلم عنه ست ساعات فان تاب واستغفر لم يكتبها
عليه وان لم يستغفر كتبها وقال بعض السلف ما من عبد يعصي الا استاذن مكانه من الارض ان يخسف
به واستاذن سقفه من السماء ان يسقط عليه كسفا فيقول الله تعالى للارض والسماء كفا عن
عبدي وامهلاه فانكما لم تخلقاه ولو خلقتماه لرحمتماه لعله يتوب الي فاغفر له لعله يستبدل صالحا
فابدله حسنات وذلك معنى قوله تع ان الله يمسك السموات والارض ان تزولا ولئن زالتا ان امسكهما من
احد من بعده وفي حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه الطابع معلق بقائمة العرش فاذا انتهكت
الحرمات واستحلت المحارم ارسل الله الطابع فيطبع على القلوب بما فيها وفي حديث مجاهد القلب
مثل الكف المفتوحة كلما اذنب ذنبا انقبضت اصبع حتى تنقبض الاصابع كلها فيشد على القلب
فذلك هو القفل وقال الحسن رحمة الله عليه ان بين العبد وبين الله عز وجل حدا في المعاصي معلوما
اذا بلغه العبد طبع على قلبه فلم يوفقه بعدها للخير والاخبار والآثار في ذم المعاصي ومدح التائبين
لا يحصى فينبغي ان يستكثر الواعظ منها ان كان وارث رسول الله صلى الله عليه وسلم فانه ما خلف دينارا
ولا درهما وانما خلف العلم والحكمة وورثه كل عالم بقدر ما اصابه النوع الثاني حكايات الانبياء
والسلف وما جرى عليهم من المصايب بسبب ذنوبهم فذلك شديد الوقع ظاهر النفع في قلوب الخلق مثل
احوال آدم عليه السلم في عصيانه وما لقي من الاخراج من الجنة حتى روى انه لما اكل الشجرة تطايرت
الحلل عن جسده وبدت عورته فاستحيى التاج والاكليل من وجهه ان يرتفعا عنه فجاءه جبرئيل عليه السلم
فاخذ التاج عن راسه وحل الاكليل عن جبينه ونودي من فوق العرش اهبطا من جواري فانه لا
يجاورني من عصاني فالتفت آدم الى حواء باكيا وقال هذا اول شوم المعصية اخرجنا من جوار الحبيب
وروي ان سليمان عليه السلم لما عوتب على خطيئته لاجل التمثال الذي عبد في داره اربعين يوما
وقيل لان المراة سألته ان يحكم لابيها فقال نعم ولم يفعل وقيل بل احب بقلبه ان يكون الحكم لابيها
على خصمه لمكانها فسلب ملكه اربعين يوما هرب تائها على وجهه وكان يسال بكفه فلا يطعم فاذا
قال اطعموني فاني سليمان بن داود شج وضرب وحكى انه استطعم من بيت لامراة فطردته وبزقت

في وجهه وفي رواية فاخرجت عجوز جرة فيها بول فصبته على راسه الى ان اخرج له الخاتم من بطن الحوت
فلبسه بعد انقضاء الاربعين ايام العقوبة قال فجاءت الطير فعكفت على راسه وجاءت الجن والشياطين
والوحوش فاجتمعت حوله واعتذر اليه بعض من كان جنى عليه فقال لا الومكم فيما فعلتم من قبل
ولا احمدكم في عذركم الآن هذا امر كان من السماء ولا بد منه وروي في الاسرائيليات ان رجلا تزوج
بامرأة من بلدة فارسل عبده يحملها اليه فراودته نفسه وطالبته بها فجاهدها واستعصم قال فنبأه الله
تعالى ببركة تقواه وكان نبيا في بني اسرائيل وفي قصص موسى انه قال للخضر عليهما السلام بم اطلعك
الله تعالى على علم الغيب قال بترك المعاصي لاجل الله وروي ان الريح كانت تسير بسليمان فنظر الى قميصه
نظرة وكان عليه قميص جديد فكانه اعجبه فوضعته الريح فقال لم فعلت ولم آمرك قالت انما
نطيعك اذا اطعت الله وروي ان الله تعالى اوحى الى يعقوب عليه السلام اتدري لم فرقت بينك وبين
ولدك يوسف قال لا قال لقولك لاخوته اخاف ان ياكله الذئب لم خفت عليه الذئب ولم ترجني
ولم نظرت الى غفلة اخوته ولم تنظر الى حفظي له ولذلك لما قال يوسف اذكرني عند ربك
قال تعالى فانساه الشيطان ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين وتدري لم رددته عليك قال
لا قال لانك رجوتني وقلت عسى الله ان ياتيني بهم جميعا ولما قلت اذهبوا فتحسسوا من يوسف
واخيه ولا تياسوا من روح الله وامثال هذه الحكايات لا تحصر ولم يرد بها القرآن والاخبار ورود
الاسمار بل الغرض بها الاعتبار والاستبصار ليعلم ان الانبياء عليهم السلام لم يتجاوز عنهم في الذنوب
الصغار فكيف يتجاوز عن غيرهم في الذنوب الكبار نعم كانت سعادتهم في ان عجلوا بالعقوبة
ولم تؤخر الى الآخرة والاشقياء يمهلون ليزدادوا اثما ولان عذاب الآخرة اشد واكبر فهذا ايضا
مما ينبغي ان يكثر جنسه على اسماع المصر فانه نافع في تحريك دواعي التوبة النوع الثالث ان
تقرر عندهم ان تعجيل العقوبة في الدنيا متوقع على الذنب وان كل ما يصيب العبد من المصائب فهو
بسبب جناياته فرب عبد يتساهل في امر الآخرة ويخاف من عقوبة الله في الدنيا اكثر لفرط جهله
فينبغي ان يخوف به فان الذنوب كلها يتعجل في الدنيا شومها في غالب الامر كما حكي في قصة داود
وسليمان عليهما السلام حتى قد يضيق على العبد رزقه بسبب ذنوبه وقد يسقط منزلته عن القلوب
ويستولي عليه اعداؤه قال صلى الله عليه وسلم ان العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه وقال ابن مسعود
رضي الله عنه اني لاحسب ان العبد ينسى العلم بالذنب يصيبه وهو معنى قوله صلى الله عليه وسلم
من قارف ذنبا فارقه عقل لا يعود اليه ابدا وقال بعض السلف ليست اللعنة سوادا في الوجه

٧٦١

ونقصا في المال انما اللعنة ان لا تخرج من ذنب الا وقعت في مثله او شر منه وهو كما قال لان اللعنة
هي الطرد والابعاد فاذا لم يوفق للخير ويسر له الشر فقد ابعد والحرمان من رزق التوفيق اعظم حرمان
وكل ذنب فانه يدعو الى ذنب آخر ويتضاعف فيحرم العبد به رزقه النافع في مجالسة العلماء المنكرين
للذنوب ومجالسة الصالحين بل يمقته الصالحون وحكي عن بعض العارفين انه كان يمشي في
الوحل جامعا ثيابه محترزا حتى زلت رجله وسقط فقام وهو يمشي في وسط الوحل ويبكي وهو
يقول هذا مثل العبد الذي لا يزال يتوقى الذنوب ويجانبها حتى يقع في ذنب وذنبين فعندها
يخوض الذنوب خوضا وهو اشارة الى ان الذنب تعجل عقوبته بالانجرار الى ذنب آخر ولذلك
قال الفضيل رحمة الله عليه ما انكرت من تغير الزمان وجفاء الاخوان فذنوبك ورثتك ذلك
وقال بعضهم اني لاعرف عقوبة ذنبي في سوء خلق حماري وقال اعرف العقوبة حتى في فار بيتي قال
بعض صوفية الشام نظرت الى غلام نصراني حسن الوجه فوقفت انظر اليه فمر بي ابن الجلاء
الدمشقي فاخذ بيدي فاستحييت منه فقلت يا ابا عبد الله تعجبت من هذه الصورة الحسنة وهذه
الصنعة المحكمة كيف خلقت للنار فغمز يدي وقال لتجدن عقوبتها بعد حين قال فعوقبت بعد
ثلثين سنة وقال ابو سليمان الداراني الاحتلام عقوبة وقال لا يفوت احدا صلوة جماعة الا بذنب
يذنبه وفي الخبر ما انكرتم من ازمانكم فيما غيرتم من اعمالكم وفي الخبر يقول الله تع ان ادنى ما اصنع بالعبد
اذا اثر شهوته على طاعتي ان احرمه لذيذ مناجاتي وحكي عن ابي عمرو بن علوان في قصة تطول
قال فيها فكنت قايما اصلي ذات يوم فخامر قلبي هوى طاولته بفكري حتى تولد منه شهوة الرجال
فوقعت الى الارض واسود جسدي كله واستترت في البيت ولم اخرج ثلثة ايام وكنت اعالج غسله
في الحمام بالصابون فلا يزداد الا سوادا حتى انكشف بعد ثلثة ايام فلقيت الجنيد رحمه الله عليه
وكان قد وجه الي واشخصني من الرقة فلما اتيته قال لي اما استحييت من الله تعالى كنت قايما بين
يديه فساررت نفسك بشهوة حتى استولت عليك برقة فاخرجتك من بين يدي الله تعالى فلولا اني
دعوت الله لك وتبت اليه عنك للقيت الله تعالى بذلك اللون قال فعجبت كيف علم بذلك وهو ببغداد
وانا بالرقة واعلم انه لا يذنب العبد ذنبا الا ويسود وجه قلبه فان كان سعيدا اظهر السواد على
ظاهره لينزجر وان كان شقيا اخفي عنه حتى ينهمك ويستوجب النار والاخبار كثيرة في آفات
الذنوب في الدنيا من الفقر والمرض وغيره بل من شوم الذنب في الدنيا على الجملة ان يكتسب ما بعده
صفته فان ابتلى بشي كان عقوبة له ويحرم جميل الصبر حتى يتضاعف شقاوته وان اصابته

نعمة كان استدراجا له ويحرم جميل الشكر حتي يعاقب علي كفرانه واما المطيع فمن بركة طاعته
ان يكون نعمته في حقه جزاء علي طاعته ويوفق لشكرها وكل بلية كفارة لذنوبه وزيادة لدرجاته الرابع
ذكر ما ورد من العقوبات علي آحاد الذنوب كالخمر والزنا والسرقة والقتل والغيبة والكبر والحسد
وذلك مما لا يمكن حصره فذكره مع غير اهله وضع للدواء في غير موضعه بل ينبغي ان يكون العالم كالطبيب
الحاذق يستدل اولا بالنبض والسحنة ووجوه الحركات علي العلل الباطنة ويشتغل بعلاجها
فليستدل بقراين الاحوال علي خفايا الصفات وليتعرض لما وقف عليه اقتداء برسول الله صلى الله عليه
وسلم حيث قال له واحد اوصني ولا تكثر علي فقال لا تغضب وقال آخر اوصني فقال عليك بالياس
مما في ايدي الناس فان ذلك هو الغني واياك والطمع فانه الفقر الحاضر وصل صلوة مودع واياك
وما يعتذر منه وقال رجل لمحمد بن واسع اوصني فقال اوصيك ان يكون ملكا في الدنيا والآخرة
فقال كيف لي بذلك قال الزم الزهد في الدنيا فكانه صلى الله عليه وسلم توسم في السايل مخايل الغضب
فنهاه عنه وفي السايل الآخر مخايل الطمع في الناس وطول الامل وتخيل محمد بن واسع في السايل
مخايل الحرص علي الدنيا وقال رجل لمعاذ رضي الله عنه اوصني فقال كن رحيما اكن لك بالجنة زعيما فكانه
تفرس فيه الفظاظة والغلظة وقال رجل لابرهيم بن ادهم اوصني فقال اياك والناس وعليك
بالناس ولا بد من الناس فان الناس هم الناس ولكن ليس كل الناس بالناس ذهب الناس
وبقي النسناس وما اراهم بالناس بل غمسوا في ماء الناس فكانه تفرس فيه آفة المخالطة واخبر
عما كان هو الغالب علي حاله في وقته وكان الغالب اذاء بالناس والكلام علي قدر حال السايل
اولي من ان يكون بحسب حال القايل وكتب معاوية الي عايشه رضي الله عنها ان اكتبي لي كتابا
توصيني فيه ولا تكثري فكتبت اليه من عايشه الي معاوية سلام عليك اما بعد فاني سمعت
رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من التمس رضى الناس بسخط الله وكله الله الي الناس ومن التمس
رضى الله بسخط الناس كفاه الله مونة الناس والسلام عليك فانظر الي فقهها كيف تعرضت للآفة
التي تكون الولاة بصددها وهو مراعاة الناس وطلب مرضاتهم وكتبت مرة اخرى اما بعد فاتق
الله فانك اذا اتقيت الله كفاك الناس واذا اتقيت الناس لن يغنوا عنك من الله شيا والسلام فاذا
علي كل ناصح ان تكون عنايته مصروفة الي تفرس الصفات الخفية وتوسم الاحوال اللايقة ليكون
اشتغاله بالمهم فان حكاية جميع مواعظ الشرع مع كل واحد غير ممكن والاشتغال بوعظه بما هو
مستغني عن الوعظ فيه تضييع زمان فان قلت فان كان الواعظ يتكلم في جمع او سأله من لا

يدري باطن حاله ان يعظه فكيف يفعل فاعلم ان طريقه في ذلك ان يعظه بما يشترك كافة الخلق في
الحاجة اليه اما على العموم واما على الاكثر فان في علوم الشرع اغذية وادوية فالاغذية للكافة والادوية لارباب
العلل ومثاله ما روى ان رجلا قال لابي سعيد الخدري رضي الله عنه اوصني فقال عليك بتقوى الله
فانه راس كل خير وعليك بالجهاد فانه رهبانية الاسلام وعليك بالقرآن فانه نور لك في اهل الارض
وذكر لك في اهل السماء وعليك بالصمت الا من خير فانك بذلك تغلب الشيطان وقال رجل للحسن رحمه
الله عليه اوصني فقال اعز امر الله يعزك الله وقال لقمن لابنه يا بني زاحم العلماء بركبتيك ولا تجادلهم فيمقتوك
وخذ من الدنيا بلاغك وانفق فضول كسبك لآخرتك ولا ترفض الدنيا كل الرفض فتكون عيالا وكلا على
اعناق الرجال ولا تصم صوما يكسر شهوتك ولا تصم صوما يضر بصلوتك فان الصلوة افضل من الصوم
ولا تجالس السفيه ولا تخالط ذا الوجهين وقال ايضا لابنه يا بني لا تضحك من غير عجب ولا تمش في
غير ارب ولا تسال عما لا يعنيك ولا تضيع مالك وتصلح مال غيرك فان مالك ما قدمت ومال غيرك ما
تركت يا بني ان من يرحم يرحم ومن يصمت يسلم ومن يقل الخير يغنم ومن يقل الشر ياثم ومن لا يملك
لسانه يندم وقال رجل لابي حازم اوصني فقال كل ما لو جاءك الموت عليه فرايته غنيمة فالزمه
وكل ما لو جاءك الموت عليه فرايته مصيبة فاجتنبه وقال موسى للخضر عليهما السلم اوصني فقال كن
بساما ولا تكن غضابا وكن نفاعا ولا تكن ضرارا وانزع عن اللجاجة ولا تمش في غير حاجة ولا تضحك
من غير عجب ولا تعير الخطائين بخطاياهم وابك على خطيئتك يا ابن عمران وقال رجل لمحمد بن كرام اوصني
فقال اجتهد في رضا خالقك بقدر ما تجتهد في رضا نفسك وقال رجل لحامد اللفاف اوصني فقال
اجعل لدينك غلافا كغلاف المصحف كيلا تدنسه الآفات قال وما غلاف الدين قال ترك طلب الدنيا
الا ما لا بد منه وترك كثرة الكلام الا فيما لا بد منه وترك مخالطة الناس الا فيما لا بد منه وكتب الحسن الى
عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليهما اما بعد فخف ما خوفك الله واحذر ما حذرك الله وخذ مما في يديك لما
بين يديك فعند الموت ياتيك الخبر اليقين والسلام وكتب عمر بن عبد العزيز الى الحسن يساله ان
يعظه فكتب اليه اما بعد فان الهول الاعظم والامور المفظعات امامك ولا بد لك من مشاهدة ذلك
اما بالنجاة واما بالعطب واعلم ان من حاسب نفسه ربح ومن غفل عنها خسر ومن نظر في العواقب
نجا ومن اطاع هواه ضل ومن حلم غنم ومن خاف امن ومن امن اعتبر ومن اعتبر ابصر ومن ابصر فهم
ومن فهم علم فاذا زللت فارجع واذا ندمت فاقلع واذا جهلت فسل واذا غضبت فامسك وكتب
مطرف بن عبد الله الى عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه اما بعد فان الدنيا دار عقوبة ولها يجمع من لا عقل له

وبها يغتر من لا علم له فكن فيها يا امير المومنين كالمداوي جرحه يصبر على شدة الدواء لما يخاف
من عاقبة الداء وكتب عمر بن عبد العزيز الى عدي بن ارطاة اما بعد فان الدنيا عدوة اوليا
الله وعدوة اعداء الله اما اولياء الله فغمتهم واما اعداؤه فغرتهم وكتب ايضا الى بعض عماله اما
بعد فقد امكنتك المقدرة من ظلم العباد فاذا هممت بظلم احد فاذكر قدرة الله عليك واعلم
انك لا تاتي الى الناس شيا الا كان زايلا عنهم باقيا عليك واعلم ان الله تعالى آخذ للمظلومين من
الظالمين والسلام فهكذا ينبغي ان يكون وعظ العامة ووعظ من لا يدري خصوص واقعته
فهذه المواعظ مثل الاغذية التي يشترك العامة في الانتفاع بها ولاجل فقد مثل هولاء الوعاظ
انحسم باب الاتعاظ وغلبت المعاصي وانتشر الفساد وبلي الخلق بوعاظ يزخرفون اسجاعا وينشدون
ابياتا ويتكلفون ذكر ما ليس في سعة علمهم ويتشبهون بحال غيرهم فسقط عن قلوب العامة وقارهم
ولم يكن كلامهم صادرا من القلب ليصل الى القلب بل القايل متصلف والمستمع متكلف
وكل واحد منهما مدبر ومتخلف واذا كان طلب الطبيب اول علاج المرضى فطلب العلماء اول علاج
العاصين فهذا احد اركان العلاج واصوله الاصل الثاني الصبر ووجه الحاجة اليه ان المريض
انما يطول مرضه لتناوله ما يضره وانما يتناول ذلك اما لغفلته عن مضرته واما لشدة غلبة شهوته
فله سببان فما ذكرناه علاج الغفلة فيبقى علاج الشهوة وطريق علاجه قد ذكرناه في كتاب رياضة
النفس وحاصله ان المريض اذا اشتدت ضراوته بماكول مضر فطريقه ان يستشعر عظم ضرره
ثم يغيب ذلك عن عينه فلا يحضره ثم يتسلى عنه بما يقرب منه في صورته ولا يكثر ضرره ثم يصبر
بقوة الخوف على الالم الذي يناله في تركه فلا بد على كل حال من مرارة الصبر فكذلك يعالج الشهوة
في المعاصي كالشاب مثلا اذا غلبته الشهوة فصار لا يقدر على حفظ عينه وحفظ قلبه وحفظ
جوارحه في السعي وراء شهوته فينبغي ان يستشعر ضرر ذنبه بان يستقري المخوفات التي جاءت
فيه من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فاذا اشتد خوفه تباعد عن الاسباب
المهيجة لشهوته ومهيج الشهوة من خارج هو حضور المشتهى والنظر اليه وعلاجه الهرب والعزلة
ومن داخل تناول لذايذ الاطعمة وعلاجه الجوع والصوم الدايم وكل ذلك لا يتم الا بصبر ولا يصبر الا
عن خوف ولا يخاف الا عن علم ولا يعلم الا عن بصيرة وتفكر او عن سماع وتقليد فاول الامر حضور
مجالس الذكر ثم الاستماع من قلب مجرد عن ساير الشواغل مصروف الى السماع ثم التفكر فيه لتمام
الفهم وينبعث من تمام فهمه خوفه لا محالة واذا قوي الخوف تيسر بمعونته الصبر وانبعث الدواعي

لطلب العلاج وتوفيق الله وتيسره من وراء ذلك فمن اعطى من قلبه حسن الاصغاء واستشعر الخوف
فاتقى وانتظر الثواب وصدق بالحسنى فسنيسره الله لليسرى واما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى
فسنيسره للعسرى ثم لا يغني عنه ما اشتغل به من ملاذ الدنيا مهما هلك وتردى وما على الانبياء
الا شرح طرق الهدى وانما لله الآخرة والاولى فان قلت فقد رجع الامر كله الى الايمان لان
ترك الذنب لا يمكن الا بالصبر والصبر لا يمكن الا بمعرفة الخوف والخوف لا يحصل الا بالعلم بعظم ضرر
الذنوب وهو تصديق الله ورسوله فهو الايمان وكل من اصر على الذنب لم يصر الا لانه غير مؤمن فاعلم
ان هذا لا يكون لفقد الايمان بل يكون لضعف الايمان اذ كل مؤمن مصدق بان المعصية سبب
البعد من الله وسبب العقاب في الآخرة ولكن سبب وقوعه في الذنب امور احدها ان العقاب الموعود
غيب وليس بحاضر والنفس جبلت متاثرة بالحاضر فتاثرها بالموعود ضعيف بالاضافة الى تاثرها
الحاضر الثاني ان الشهوات الباعثة على الذنوب لذاتها ناجزة وهي في الحال آخذة بالمخنق وقد قوي
ذلك واستولى بسبب الاعتياد والالفة والعادة طبيعة خامسة والنزوع عن العاجل لخوف
الآجل شديد على النفس ولذلك قال تعالى تحبون العاجلة وتذرون الآخرة وقال تعالى بل
تؤثرون الحياة الدنيا وقد عبر عن شدة الامر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم حفت الجنة بالمكاره
وحفت النار بالشهوات وقوله صلى الله عليه وسلم ان الله خلق النار فقال لجبريل اذهب
فانظر اليها فذهب فنظر اليها فقال وعزتك لا يسمع بها احد فيدخلها فحفها بالشهوات
ثم قال اذهب فانظر اليها فنظر فقال وعزتك لقد خشيت ان لا يبقى احد الا دخلها وخلق الجنة
فقال لجبريل اذهب فانظر اليها فنظر فقال وعزتك لا يسمع بها احد الا دخلها فحفها بالمكاره
ثم قال اذهب فانظر اليها فنظر فقال وعزتك لقد خشيت ان لا يدخلها احد فاذا كون الشهوة
مرهقة في الحال وكون العقاب متاخرا الى المال سببان ظاهران في الاسترسال مع
حصول الايمان فليس كل من يشرب في مرضه الثلج لشدة عطشه مكذبا باصل الطب ولا مكذبا
بان ذلك مضر في حقه ولكن الشهوة تغلبه والم الصبر عنه ناجز فيهون عليه الالم المنتظر الثالث
انه ما من مذنب مؤمن الا وهو في الغالب عازم على التوبة وتكفير السيئات بالحسنات وقد وعد
بان ذلك يجبره ويجبره الا ان طول الامل غالب على الطباع فلا يزال يسوف التوبة والتكفير فمن حيث
رجاؤه توفيق التوبة ربما يقدم عليه مع الايمان الرابع انه ما من مؤمن موقن الا وهو معتقد ان
الذنب لا يوجب العقوبة ايجابا لا يمكن العفو عنها فهو يذنب وينتظر العفو اتكالا على فضل الله